التاريخ السري للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق

JOINT SPECIAL OPERATIONS COMMAND

JOINT SPECIAL OPERATIONS COMMAND

شون نايلور

ترجمة: عمار كاظم محمد





التاريخ السري للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق

شون نايلور

ترجمة: عمار كاظم محمد

RELENTLESS STRIKE: THE SECRET HISTORY OF JOINT SPECIAL OPERATIONS COMMAND

Sean Naylor

Ammar kadum Mohammed

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
ص.ب 74090
الرمز البريدي 12114
07700492576 - 07711002790 :هاتف email: bal - alame@yahoo.com

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 354 - 4

التاريخ السري

للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق

شون نايلور

ترجمة: عمار كاظم محمد

التاريخ السري

للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق

شون نايلور

ترجمة: عمار كاظم محمد



الإهداء....

إلى عائلتي وكل العراقيين الذي عاشوا سنوات المحنة



مقدمة المترجم

العمليات الأمريكية الخاصة:
آلة القتل المخيفة التي أنشاها ماكرستل في العراق

يمثل كتاب «التاريخ السري للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق» للمؤلف والمراسل الصحفي والمؤرخ العسكري الأمريكي من أصل كندي شون نايلور الصادر نهاية عام 2015 بين يدَي القراء جزءا من كتاب ضخم بعنوان «Relentless Strike» التاريخ السري لقيادة العمليات الأمريكية الخاصة المشتركة والتي تَتَبّع فيها المؤلف تاريخ إنشاء قيادة العمليات الخاصة الأمريكية منذ الثمانينيات على إثر فشل قوات المهمات الخاصة الأمريكية آنذاك، والتي أُطلق عليها تسمية «فالكون» في إنقاذ الرهائن الأمريكيين المحتجزين في السفارة الأمريكية في طهران على إثر قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 وسقوط نظام شاه إيران محمد رضا بهلوي.

الكتاب الضخم يقدم حسابا خاصا لذلك التاريخ باعتباره أول كتاب يتتبع مراحل تطور العمليات الخاصة الأمريكية طوال أكثر

من 35 عاما، والتي تعتبر مهمة شاقة لسببين: الأول بسبب خصوصية وسرية تلك العمليات باعتبارها ضمن أسرار أجهزة الاستخبارات الأمريكية المختلفة، والسبب الثاني يكمن في امتناع الكثيرين ممن شاركوا أو أشرفوا على تلك العمليات من التصريح للمؤلف، ورفض أغلبهم ذكر أسمائهم الصريحة عند الحديث عن تلك العمليات، ولذا سيرى القارئ أن الكثيرين ممن تحدثوا للمؤلف عن العمليات الخاصة في العراق لا يتم ذكر أسمائهم وإنما يشار إليهم بعناوين مختلفة باعتبارهم مصادر خوفاً من تعرضهم للعقوبات القانونية هناك الناتجة عن كشف الأسرار غير المصرح بها من جهة، ومن جهة أخرى باعتبار كشف الأسماء ربما يعرّض أولئك الأفراد الذين مازالوا في الخدمة إلى الخطر من الناحية الأمنية.

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يذكر في كتابه سوى أسماء القادة المعروفين للعمليات الخاصة أمثال الجنرال ديل دايلي والجنرال ستانلي ماكرستل ومن بعده نائب الأدميرال الجنرال بيل مكرفن وبعض قادة العمليات الكبار، إلا أنه تعرض لحملة انتقادات شديدة لدى الدوائر الأمريكية وبعض وسائل إعلامها لكونه كشف الكثير عن تفاصيل العمليات التي ينبغي أن تبقى طيّ الكتمان واتهامه بتعريض حياة أفراد وضباط العمليات الخاصة، الذين مازالوا في الخدمة، للخطر على المستوى الأمني.

المؤلف شون نايلور الحاصل على شهادة البكالوريوس في

الصحافة والماجستير في الآداب من جامعة بوسطن عام 1990 يعتبر من المراسلين والمؤلفين والصحفيين الذي أولوا اهتماما خاصا بالعمليات الأمريكية الخاصة فقد عمل لصحيفة «Army Times» المتخصصة بالشؤون العسكرية ومراسلا في الصومال وهاييتي والبوسنة والبانيا وكوسوفو ومقدونيا، وكان ضمن ثمانية صحفيين فقط سُمح لهم بتغطية العمليات العسكرية الأمريكية في أفغانستان، وكتب على إثرها كتابا حاز على جائزة صحيفة نيويورك تايمز لأفضل المبيعات، وهو كتابه المعنون «يوما ليس جيدا للموت» المتعلق بتغطية عملية مطاردة قيادات القاعدة الفاشلة في أفغانستان والتي دعيت باسم عملية «الاناكوندا»، كما حصل على جائزة أدغار ألن بو المرموقة من البيت الأبيض لرابطة المراسلين عن العملية نفسها فضلا عن زياراته الميدانية وتغطياته للعمليات في باكستان والعراق، كما عمل أيضا لصحيفة نيويورك تايمز وككاتب مشارك لمجلة فورين بوليسي ما بين شهرَي كانون الأول وآب من عام 2015.

بالعودة إلى تفاصيل الكتاب وضخامته خلال تلك الفترة الطويلة من السرد التاريخي الذي اعتمد فيه المؤلف أسلوبا روائيا حديثا مغرقا بالتفاصيل عن الأماكن والأحداث والمعدات والتقنيات العسكرية، تعمّد فيه أحيانا عملية قطع تسلسل الأحداث عند وصوله إلى ذروة أي حدث مهم لينتقل إلى رواية أخرى مرتبطة به، ومن

ثَمَّ يستكمل الأحداث على طريقة داون براون في رواياته الغامضة لغرض إضافة المزيد من التشويق ومتابعة القرّاءة، فإن ما يهمنا حقا من الكتاب هو الفصول التسعة التي كتبها عن العراق من مجموع ثلاثين فصلا في ما يقارب 500 صفحة التي تمثل المجموع الكلي للكتاب، عدا الهوامش والمصطلحات التي استخدمت للتعريف بأسماء الوحدات العسكرية وأنواع الأسلحة والتقنيات المستخدمة في تلك العمليات.

إن ما يهمنا كشعب وبلد تعرض للغزو والاحتلال من قبل أمريكا وحلفائها أن نعرف على الأقل ما الذي كان يجري بالضبط تحت السطح من صراعات كان يدفع ثمنها في كثير الأحيان الأبرياء من المدنيين الذين يتعرضون للقصف والقتل والاغتيالات والتفجيرات بالسيارات الملغومة والعبوات الناسفة في الأسواق والمساجد والكنائس والشوارع والمدارس دون أن يرتكبوا أي ذنب، في الوقت الذي كانوا يتطلعون فيه لبناء بلادهم المدمرة والخارجة لتوّها من حصار وحرب لم يكن لها أي غطاء شرعي أو قانوني بعد أن بُلِيت الناس في العراق بسنوات طويلة من الحكم الديكتاتوري القمعي الذيَ جرّ إلى العراق الحروب والويلات والمآسي وإراقة الدماء.

نعم كانت هناك حرب تحت السطح بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة، وبين دول إقليمية تدعم إرهاب القاعدة

والأجندات الطائفية في البلاد لإغراق الولايات المتحدة في المستنقع العراقي وفرض نفسها في المشهد، بينما كان الأبرياء من المدنيين ضحية هذا الصراع يسقطون بالمئات يوميا دون أن يلتفت إليهم أحد.

كتاب التاريخ السري للعمليات الأمريكية الخاصة في العراق ومؤلفه لم يكن يلتفت إلى ما كان يحصل من مجازر بحق الأبرياء في الشارع العراقي أو يهتم حتى لجواسيس الاحتلال العاملين لصالح العمليات الخاصة حينما يُقتَلون، قدر التفاته وتركيزه على كل إصابة تحدث للعناصر الأمريكية، وبالأسماء أحيانا، وكل تهديد للوجود العسكري الأمريكي في البلاد خصوصا في السنوات المظلمة أعوام 2005 و2006 و2007 والتي كانت باعترافه من أصعب السنوات التي مرت على الوجود الأمريكي الذي كان وشك الانهيار أمام عصابات القاعدة وغيرها من المجاميع الإرهابية، وهذا ما يدفع إلى أنه يجب الالتفات إلى الملاحظات التالية عند القراءة:

أولا/ إن الكتاب بالطبع يمثل وجهة النظر الأمريكية البحتة لما كان يجري من صراع، ولذا فليس من الضرورة أن يكون كل ما فيه صادقا بنسبة مئة بالمئة، وربما تم إخفاء الكثير من الانتهاكات والانتكاسات التي قامت بها العمليات الأمريكية الخاصة، كما أنه يغطي فقط نشاطات قيادة العمليات الخاصة وليس العمليات التي يقوم بها الجيش الأمريكي وحلفاؤه، بل يهتم بالنشاط السري

والاستخباري في محاربة الجماعات الإرهابية مثل إلقاء القبض أو قتل رؤوس النظام السابق وقيادات القاعدة وغيرهم، خصوصا مع الفوضى التي أعقبت الاحتلال وعدم وجود أي جهاز أمني أو استخباري عراقي في ذات الوقت الذي تولت فيه قوات الدلتا تلك المهمة.

الأمر الثاني/ إن التعابير والمصطلحات التي يوردها المؤلف في كتابه بشأن مختلف الفصائل التي كانت موجودة على الساحة العراقية تمثل وجهة نظر المؤلف، وهي بالتأكيد وجهة النظر الأمريكية التي كانت تعتبر جميع الفصائل التي تهدد الوجود الأمريكي في العراق هي جماعات إرهابية دون التفريق بين الإرهابيين الذين كانوا يسعون باتجاه إشعال الحرب الطائفية وتفجير المدنيين وتخريب البلاد وبين غيرهم ممن يستهدفونهم فقط باعتبارهم قوة احتلال باعتراف المؤلف نفسه، ولذا أبقينا على المصطلحات التي استخدمها كما هي حفاظا على أمانة الترجمة، إذ ليس من المعقول أن يطلق مؤلف الكتاب الذي يمثل وجهة النظر الأمريكية أي اصطلاح يدلّ على المقاومة تجاه أي فصيل آخر معادٍ للاحتلال وللتوجهات الأمريكية في البلاد.

الأمر الثالث/ يعرف الجنرال بيل مكرفن والذي تولى قيادة العمليات بعد الجنرال ستانلي ماكرستل عام 2008 العمليات الخاصة بأنها (تجري من قبل قوة مدربة ومجهزة ومدعومة خضيصا

لهدف محدد يكون تدميره أو إزالته ذا ضرورة سياسية وعسكرية)، وعلى هذا الأساس فإن تلك القوات لابد أن تكون صغيرة وبأعداد محدودة، بينما نقرأ خلال صفحات الكتاب أن الجنرال ستانلي ماكرستل أنشا ماكنة قتل رهيبة ومخيفة ضمت الآلاف من العناصر في قاعدة بلد الجوية وقاعدة عين الأسد في الأنبار ومقرات في الموصل والكوت ومطار بغداد والمنطقة الخضراء وغيرها من مناطق العراق ومن مختلف الصنوف، وأخذت دورا محوريا في إدارة الصراع ربما فاق أحيانا دور الجيش الأمريكي نفسه من خلال تأسيس شبكة استخبارية وعملياتية واسعة النطاق تحت مبدأ أقرّه ماكرستل نفسه حينما قال «لا يمكن القضاء على شبكة إرهابية إلا بإنشاء شبكة (استخبارية) مضادة لها «فيما لعبت قوات الدلتا والرينجرز وقوة سيل 6 والفريق البرتقالي وغيرها من الوحدات ضمن فرقة المهام عمليات اغتيال وتجسس وتحقيقات مع المعتقلين لا يفترض في السياقات أن تكون من مهامٍّ الوحدات الخاصة المعنية بالأهداف الرئيسة لقادة ورؤوس الإرهاب، وهي بذلك تكون جيشا آخر داخل الجيش الأمريكي التقليدي، ولكنها تعمل ضمن أهداف منفصلة عن أهدافه.

الأمر الرابع/ يتغافل المؤلف عن ذكر داعمي الإرهاب الذين تسببوا بالأوضاع الخطرة في العراق بعد الاحتلال، فقد انشغلت العقلية العسكرية الأمريكية على الأوضاع الميدانية دون الضغط

على داعمي الإرهاب من حلفاء الولايات المتحدة سياسيا في دول الخليج وغيرها من البلدان العربية، وكانوا السبب الرئيس لمقتل الجنود الأمريكان والمدنيين العراقيين، ولذا ترى أحيانا المؤلف يسهب في تفاصيل الفصائل الشيعية والدعم الإيراني المقدم لها من جهة، بينما لا يتساءل وهو يتناول تدفق الإرهابيين الأجانب من العرب إلى العراق عبر سوريا والأردن، على الرغم من جنسياتهم السعودية والتونسية والأردنية والخليجية والمصرية وغيرها، من جهة أخرى، عن الجهات التي تقف وراء إرهابيي القاعدة وتمولهم مع علمه بعمليات التحريض على العنف التي كانت تمارس في تلك الدول على مختلف المستويات وحتى من قبل حتى أئمة بعض المساجد وبشكل علني دون تدخل الولايات المتحدة بالضغط سياسيا على تلك الدول لوقف دوامة العنف تحت دوافع التحريض الديني والطائفي ضد العراقيين.

الأمر الخامس/ الكتاب يبيِّن تفاصيل بناء شبكات الأمن والجهد الاستخباري، وهو بذلك يقدم درسا في كيفية بناء المنظومة الأمنية في العراق، وخصوصا خطة الجنرال ماكرستل في تحويل قدرات أجهزة الاستخبارات المختلفة وصهر جهدها في منظومة لتبادل المعلومات بين الأجهزة الأمنية والمنظومات الاستخبارية المختلفة مع الفارق في التقنية التكنولوجية التي تتفوق فيها الولايات المتحدة على غيرها من البلدان والتي كان يمكن الاستفادة منها بالنسبة

للعراق لو أنه فكر فعلا ببناء أجهزة أمنية قوية قادرة على حماية أمن البلاد وأرواح الناس، فالشبكة الإرهابية لا تدمرها إلا شبكة استخبارية مضادة لها بحسب تعبير ماكرستل، وعسى أن يكون هناك من يسمع ويستفيد من الجهد والتجربة.

الأمر السادس/ إن الانتصار الذي حققته قيادة العمليات الخاصة المشتركة في العراق يعتبر نجاحا تكتيكيا من وجهة النظر العسكرية، لكنه بالمقابل لم يقدم شيئا من الناحية الاستراتيجية على المدى الطويل، فلم تتطور أوضاع العراق نحو الاستقرار بعد الانسحاب الأمريكي، فيما لم تجعل تلك العمليات الولايات المتحدة أكثر امنا بعد القضاء على معظم قيادات القاعدة في العراق وقتل أسامة بن لادن، بل إن ما حدث بعد ذلك كان أسوأ بكثير مع ظهور عصابات داعش الإرهابية واحتلالها لمناطق واسعة في سوريا والعراق وتمدد الإرهاب في العالم ليشمل القيام بهجمات في أوروبا وفي داخل الولايات المتحدة نفسها، مما يعني أن الانتصار الذي تحقق لم يكن إلا مؤقتا، وحينما سُئل المؤلف عن ذلك في ندوة عرض فيها كتابه أجاب أنه مؤرخ وصحافي عسكري وليس من واجبه أن يطرح الحلول فيما يجب القيام به بعد الانتصار العسكري التكتيكي على الرغم من أهمية ذلك السؤال، مما يستدعي التأمل في أن ما يجب القيام به إلى جانب النصر العسكري المؤقت هو استغلال الفرصة لإيجاد حل سياسي يمنع من عودة العنف مجددا وظهور تنظيمات

إرهابية أخرى على غرار القاعدة وداعش، وقد لمح إلى ذلك في أن الاضطرابات السياسية في العراق وعدم التوافق بين أطراف العملية السياسية في إيجادِ حل سلمي بعد سحق القاعدة كان أحد الأسباب التي أدت فيما بعد إلى تفاقم الأوضاع مجددا في البلاد.

في النهاية أتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل الأصدقاء والإخوة الذين شجعوا وساعدوا في حصولي على الكتاب وإخراجه للنور، كما أتقدم بوافر الاحترام لكل الجهود البنّاءة التي ساهمت في التصحيح والتنقيح والتصميم لكي يخرج الكتاب بصيغته النهائية للقارئ، مع اعترافي دائما أن الكمال لله وحده إن بدا هنالك أي نقص أو هفوة، لكن ما يشفع دائما هي النية الخالصة في أن أرى كما يرى أبناء هذا الوطن عراقا ينعم بالسلام والأمن والازدهار بعد كل ما مرّ بنا من ويلات وحروب.

عمار كاظم محمد

ـ بغداد ـ تموز ـ 2017

مقدمة المؤلف

لقد بدأت هذا المشروع وكنت على معرفة أكيدة أن كتابة كتاب عن منظمة سرية تسيطر على منظمات سرية أخرى يمثل تحديا، وهذا ما تم البرهان عليه.

لقد رفضتْ قيادة العمليات الأمريكية الخاصة وقيادة العمليات المشتركة الخاصة العليا من مقراتها الرئيسة تقديم المساعدة في هذا المشروع بدلا عن الإجابة أحيانا عن أسئلتنا، كما رفض العديد من الأشخاص الذين يحتلون مكانا بارزا في تلك الأحداث التي وصفها الكتاب طلباتِ إجراء مقابلات معهم، لكن مع ذلك كان كتاب (ضربة بلا هوادة) يمثل أول تاريخ مطول لقيادة العمليات الخاصة المشتركة، وتم بناء هذا الكتاب لذلك السبب على أساسين مهمين.

الأساس الأول ويتمثل في عشرات المقابلات التي أجريتها مع عشرات المصادر، معظمها تتحدث في الكتاب بشكل غير مباشر، مما يعني أنني يمكنني التعريف بهم بشكل عام مثل كبار ضباط وحدة «SEAL Team 6» ضمن قيادة العمليات الخاصة باعتبارهم مصادر بدلا من التعريف بأسمائهم، والحقيقة أن الكثير من

مصادري شغلوا مناصب مختلفة خلال الفترة التي يغطيها الكتاب، لذلك كان الأمر معقدا في الكتاب عندما يتعلق الأمر بذكر الإسناد، فمثلا أنا استخدم تعبير «مشغل قوات الدلتا» والذي ينطبق على منصب المصدر خلال الأحداث التي يتم مناقشتها، وهو ما يعني في بعض الأحيان أن الشخص نفسه قد يكون مشارا إليه بصفات مختلفة في فصول مختلفة، وعلى أية حال فإن بعض الأشخاص قد أصرّوا على الإشارة إليهم بالعبارة نفسها، مثلا «ضابط العمليات الخاصة المتقاعد» عبر الكتاب.

الأساس الثاني الذي يقوم عليه الكتاب يكمن في الكتب المنشورة من قبل كُتّاب آخرين، لأنه لا ينبغي أو يجب كتابة كتاب عن العمليات الخاصة المشتركة كما أشارت الكثير من التعليقات بشأن هذا الكتاب.

ما أود الإشارة إليه أن هذا الكتاب يقف على أكتاف العشرات من الجهات التي كانت على تماس مع القيادة بشكل كلي أو جزئي، وقد كنت أنوي أن يركز كتابي هذا على قيادة العمليات الخاصة المشتركة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، لكنني أدركت أن المناقشة المستفيضة خلال العقدين الأولين من نشوء قيادة القيادة سيكون ضروريا لتزويد القارئ بالسياق الضروري لتأطير الأحداث التي جرت في وقت لاحق.

الفصول التي تتناول إنشاء آلة القتل المخيفة التي أنشأتها قيادة

العمليات الخاصة في العراق على نطاق صناعي اعتمدت اعتمادا كبيرا على ثلاثة كتب هي «قوة الواجب السوداء» لمؤلفه مارك اوربان، والذي يركز على العمليات الخاصة البريطانية، واحتوى على ثروة من المعلومات القيمة عن حملة قيادة العمليات الخاصة الأمريكية، الكتاب الثاني بعنوان «نهاية اللعبة» لمؤلفة مايكل. آر. غوردن والجنرال بيرنارد.اي. ترينر، والذي سرد بشكل بارع أحداث الحرب في العراق، والذي غلب عليه سرد التفاصيل حول الدور الذي لعبته قيادة العمليات الخاصة المشتركة، والكتاب الثالث كان بعنوان «حصتي من العمليات»، ويضم مذكرات الجنرال ستانلي ماكرستل قائد قيادة العمليات الخاصة المشتركة خلال تلك الفترة الحرجة من حرب العراق والذي يقدم حسابا شخصيا، وقد اعتمدت عليه في فصول خاصة، ولذا أعبر عن امتناني الشديد لكل الأشخاص الذين كانوا في القلب من هذه الأسس التي بنيت عليها الكتاب ووافقوا على إجراء المقابلات وتعاونوا معي في هذا العمل.



الفصل الأول

الغزو

في ليلة من ليالي نيسان هبطت طائرة مروحية بيضاء في الظلام على بُعد 115 ميلا شمال غرب بغداد، كانت تلك الطائرة في المخازن لعدة سنوات، ولم يتمّ استعمالها من قبل لعملية تسلل سرية، الآن اثنان من طياريها على بعد مئات الأميال وراء خطوط العدو، يبحثون من خلال مناظيرهم الليلية عن مكان للهبوط.

لم يكن هناك أي مطار أو حتى شريط قريب في التراب، لكنهما لم يكونا قلقين أمام الطريق الوحيد المعبد حولهما والذي يمتد لأميال، وأشعلوا ضوء الأشعة الكيميائية تحت الحمراء والتي تعتبر من تكتيكات مشغلي سرب 24 الخاص، وتمّ وضعها هناك لكي يجعلهما يهبطان بشكل محاذٍ لشريط أسود رقيق عبر الصحراء، حيث هبط الطيار الرئيس رويدا رويدا حتى مسّت عجلات الطائرة الطريق المعبدة واستراحت على الأرض.

خارج الطائرة كان يقف رجل رياضي البنية في أوائل الأربعينات من عمره يدعونه ضمن قوة الدلتا بـ«النمر»، وكان الغرض من

وصوله أن يتولى فريق صغير للقيام بمهمة كبيرة، ولم يكن الأمر بالنسبة له جديدا، لكن الجديد هو مكياج التمويه الذي غيّر من سحنة مجموعته، وهو الأمر الذي يحدث لأول مرة منذ غزو بنما، حيث كانت تقود العمليات الخاصة الدبابات إلى المعركة، وكان بيتر بلابر يقودها.

على الرغم من انتكاسات الجيش الأمريكي في منطقة تورا بورا وخطة ثعبان الاناكوندا التي كان القصد منها محاصرة قيادات القاعدة، والتي هرب الآلاف من مقاتليها إلى باكستان، كان من الواضح لدى معظم الموجودين في قيادة العمليات الخاصة المشتركة أن المرحلة التالية من حرب إدارة بوش على الإرهاب سوف لن تكون حملة عسكرية سرية ضد أعدائها الاستراتيجيين في منطقة القبائل الباكستانية بل ستكون غزو العراق.

كان كادر قيادة العمليات المشتركة الخاصة يناقش الدور المحتمل للقيادة في عملية كهذي نهاية عام 2001، وبدأ التخطيط الفعلي لها بعد فترة قصيرة من عملية «الاناكوندا» حينما عاد الكادر إلى قاعدة البابا الجوية، وكانوا جنبا إلى جنب مع نظرائهم في قوة الدلتا، ينفضون الغبار عن خطط معركة «عاصفة الصحراء» (التي جرت ضد العراق عام 1991 ـ حرب تحرير الكويت)، وتقارير ما بعد العمل للتذكير بالدروس المستفادة منها قبل 12 عاما.

كان طاقم طائرات براون لا يملكون سوى القليل من الشك في

أين تكمن المعركة القادمة، فقد قال طيار لطائرة هليكوبتر من طراز ليتل بيرد «حينما عادت وحدتنا إلى قاعدة فورت كامبل في نهاية شهر كانون الأول من عام 2001 كانت كل التدريبات التي قمنا بها والسيناريوهات التي لدينا بنيت غلى سيناريو غزو عراقي».

في كانون الأول من عام 2002 كان يتواجد موظفو قيادة العمليات الخاصة المشتركة في قطر لبحث المشاركة الداخلية مع القيادة المركزية الأمريكية في لعبة الحرب لغزو العراق في غضون ثلاثة أشهر، وبدأ دايلي بتأسيس مركز عملياته المشتركة بالقرب من منطقة عرعر غرب العراق في المطار نفسه الذي استخدمته قيادة العمليات الخاصة المشتركة في معركة عاصفة الصحراء بعيدا عن أنظار وسائل الإعلام، ولم يتم الاعتراف به بشكل رسمي.

كانت هناك قوة حقيقية تتجمع ولم تكن فقط تشمل العناصر المرمزة التي شكلتها قيادة العمليات الخاصة المشتركة، بل أيضا قوة كبيرة من الجيش التقليدي تضم كتيبة مشاة من الفرقة المجوقلة 82 وبطاريات صواريخ الدفاع الجوي «باتريوت» ووحدات الصواريخ ونظام المدفعية الصاروخية عالية التنقل وبطارية من نظام الصواريخ المحمولة على الشاحنات تناسب القتال من طراز تالون والتي تجعل حركتها تقدم دعما ناريا مثاليا للقوة المداهمة، فيما تتجمع على بعد خمسين ميلا من الحدود العراقية عناصر قوة المهام تتكون من 160 عنصرا معظمهم من الكتيبة الأولى غير العناصر التي طلب منها

البقاء في المقر وإدامة حزم رصاص المروحيات المستعدة للقيام بمهام العمليات الخاصة المشتركة دون إنذار مسبق والذين قال عنهم طيار الليتل بيرد إن «أولئك الرجال يكرهون الحياة، وكأنما هم يعتقدون بأنهم سيفقدون كل فرص الحركة وأن القتال سينتهي في عدة أشهر ويفتقدون الحرب بعدها».

كانت قوة الدلتا تمثل وحدة المهام الرئيسة بعد أن سلمت أفغانستان إلى الفريق السادس(Team6) نهاية عام 2002، وكان سرب المقاتلات سي بقيادة العقيد بيل كولترب في عرعر ينتظر بدء الحركة، لكن قائد قوة الدلتا العقيد رون روسل كان يعاني من تمدد الأوعية الدموية في الدماغ حينما كان يركض حول أرض المطار مع مساعده العقيد تشوك سيلرز في فورت براغ، مما دفع دايلي إلى تسليم مهامّ القيادة لضابط الوحدة بلابر في مسرح العمليات، وكان الفريق السادس الذهبي متواجدا هناك أيضا.

إذا قدمت وحدة الدلتا السيف لفرقة المهام 20 فإن على قوات الرينجرز إبراز عضلاتها، وقد كانت الرينجرز هناك ضمن القوة، لأن دايلي كان يخطط للقيادة من أجل المقاومة والاستيلاء على مطار بغداد، وهي مهمة كلاسيكية مشتركة تدربت عليها، حيث قامت وحدة المهمات بتدريبات واسعة النطاق في معسكر فورتس بيننغ وبراغ قبل أن يتم انتشارها، وكان الأمر بالنسبة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة إسناد مهمة ثانية لمطاردة أسلحة الدمار الشامل

العراقية، حيث كان يفضل دايلي خيار إبقاء القوات في عرعر وإطلاق مداهمات هيلبورن من هناك.

إن من غير المدهش حقا أن يعترض بلابر على ذلك، حيث إنه ومن خلال تجربته في أفغانستان فإن ضابط قوات الدلتا كان يدعو لوضع القوات على الأرض في العراق لتطوير الموقف، لكن دايلي وفريقة الحذر انقلبوا على هذا المقترح انشغالا بالمخاطر المترتبة على إرسال قوة مداهمة إلى العراق، ولم يكن لديهم اهتمام بإرسال قوة مسلحة صغيرة مدرعة إلى الصحراء الغربية الواسعة في البلاد، مذكرين مشغلي قوة الدلتا المتحمسين لانطلاق في العراق بعملية «Bravo Two Zero» التي حدثت في عام 1991 لقوة صغيرة مكونة من ثمانية أشخاص من القوات الخاصة البريطانية «SAS» الذين تعرضوا للخطر في معركة عاصفة الصحراء والتي انتهت بمقتل ثلاثة عناصر من المشغلين البريطانيين وإلقاء القبض على أربعة آخرين، وكان موقف دايلي إلى قوة الدلتا واضحا وبسيطا وهو أن «لا تعملوا خلف خطوط العدو».

كان بلابر يعتقد أن دايلي وموظفيه العصبيين يبالغون في تقدير المخاطر، لقد قال لهم ضابط قوات الدلتا في عرعر «أيها الرجال، إنكم تخوضون حربا ماضية مرة أخرى»، فقبل إدراج الأصول الخمسة المتوفرة لقوات الدلتا عام 2003 والتي لم تكن متوفرة عام 1991 وهي: ذخائر دقيقة وموجهة للدبابات على شكل صواريخ

تحمل على الكتف والتي تسمح للقوة العاملة مشاغلة الدبابات في نطاق المواجهة، وذخائر الهجوم المشتركة والتي كانت عبارة عن قنابل ذكية تسقطها الطائرات، وطائرات مسيَّرة صغيرة يمكن إطلاقها لكي تمكن المهاجم للتحقق من المخاطر على التضاريس المتقدمة، وشاحنات صغيرة متحركة تحمل مولدات كهربائية وكميات كبيرة من الوقود، وكلاب مدربة مع بيوت مكيفة الهواء للمساعدة في تأمين المحيط ومعرفة أرض المعركة وفرق استخبارات لإنتاج أوامر قابلة للتنفيذ على الفور، وأضاف ضابط الدلتا لفريقه «تلك الأصول مجتمعة معا تغيّر من قواعد اللعبة»، وكان رجال بلابر يعرفون ذلك.

كان فريق المهمات يحاولون التجول عبر غرب العراق، فيما قال أحد مصادر قوة الدلتا «لقد كنا نتوسل ونقتبس ونتوسل مرة أخرى من أجل الدخول إلى «غرب العراق، وقد رمى دايلي عظمة لبلابر وسمح له بإرسال قوة عمل صغيرة تم تنظيمها حول سرب سي عبر الحدود كجزء من مهمة مطاردة صواريخ سكود التي منحتها القيادة المركزية للمجموعة الخامسة من القوات الخاصة والتي نصبت ورشة لها في قاعدة الأمير حسن الجوية في الأردن المعروفة أيضا باسم «H5 «في منتصف شهر آذار.

توجه كلٌّ من بلابر وكولتروب والعقيد فرانك كيرني الذي كان لايزال مديرا للعمليات الخاصة المشتركة وقوة المهام 20 للاجتماع،

فقد طاروا إلى هناك لتغطية الطائرات من عرعر لمقابلة قائد المجموعة الخامسة جون ملهولاند وقائد كتيبته الأولى اللفتانت كولونيل غريس هاس والذي عمل معه بلابر بشكل وثيق قبل وبعد عملية الاناكوندا، فيما حضر الاجتماع عناصر من الاستخبارات والقوات الخاصة البريطانية، وكان لدايلي توجيه واضح لبلابر «جد صواريخ سكود لأن الصواريخ يمكن أن تستخدم لإطلاق رؤوس حربية كيميائية»، وغالبا ما كانت القوات الأمريكية تستخدم هذه التسمية ليس للإشارة إلى الصواريخ، فحسب بل إلى برنامج صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل، لكنْ بلابر وزملاؤه كانت لديهم أفكار أخرى.

كان أمر ممثل قوة الدلتا لقوة كولتروب كلاسيكيا بالنسبة لبلابر وهو «تطوير الموقف»، وعلى الرغم من توقعات دايلي أن قوة الدلتا ستحدّ من نفسها في مواقع الصواريخ في الصحراء الغربية للعراق، لكن بلابر صمَّم قوة الكولتروب بالذهاب إلى طول الطريق نحو بغداد، فيما قال مصدر من قوة الدلتا «كان ذلك الأمر كمهمة سرية، لكنها كانت سرية عن شعبنا، لأننا كنا نعرف أننا سوف لن نجد أية أسلحة دمار شامل ولن نجد أية صواريخ سكود».

وقال بلابر لبقية القادة إن «تكنولوجيا الاتصالات الجديدة يمكن أن تقلل من خطر إصابتهم»، مشيرا إلى أنهم «كانوا جميعا يحملون أجهزة الاتصالات المرتبطة بالأقمار الصناعية والتي تُدْعى هواتف

«ايرديوم»، فيما اقترح عليهم بلابر «وضع أرقام بعضهم على الاتصال السريع، فإذا تعرضت إحدى الفرق إلى هجوم فإن على القائد أن يرسل فورا كلمة «بيسبول» إلى الآخرين الذين سيقومون بالتحرك إلى الموقع مما يقل من خطر وجود عناصر مجموعات صغيرة تعمل في الصحراء بشكل مستقل، وقال لهم بلابر «حينئذ سنصبح سربا واحدا».

في ليلة ظلماء بدون قمر في 19 آذار من عام 2003 أطلق طيارو قوة المهام البنية «طائرات براون» الجولة الأولى من الحرب ضد العراق، وكانت أهدافهم عددا من المباني الصغيرة تمثل مراكز المراقبة البصرية والتي ترصد منها القوات العراقية الحدود الغربية والجنوبية مع السعودية والأردن والكويت، فقد طارت من منطقة عرعر زوج طائرات هليكوبتر من طراز (DAP) بلاك هوك متجهة نحو الشمال الغربي لتدمير المراكز التي تواجه الأردن، في حين حلّقت عشر طائرات هليكوبتر من طراز ليتل بيرد نحو الشمال والشمال الشرقي لتدمير مراكز المراقبة على الحدود مع السعودية.

لقد انقسمت طائرات الهليكوبتر «ليتل بيرد» إلى فرق «الأسراب السوداء» في تكتيكات تم تطويرها في العام الذي سبق خلال التمارين التي أجريت في جنوب غرب أمريكا وفي قاعدة فورت نوكس في ولاية كنتاكي، وكان كل فريق من طائرات ليتل بيرد من طراز MH ـ 6 مكونا من أربع طائرات تنقسم أيضا إلى زوجين،

وحينما تدخل الحدود فإن كل زوج ينفصل عن الآخر، حيث تبقى طائرة في الانتظار من كل زوج، بينما تهاجم الأخرى مراكز المراقبة، حيث تستخدم لاستكشاف الأهداف أجهزة الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء (فلير)، واستخدام محددات الليزر التي صممت لطائرات ليتل بيرد منذ العودة من أفغانستان، لكن بعض طواقم طائرات الهليكوبتر من طراز AH ـ 6 قد تمت إزالة هذا النظام منها للسماح لها بحمل المزيد من الذخائر «فيما يقوم الزوج الثاني المنتظر بحمايتها».

هذا التكتيك كان تنويعا عن تكتيك استخدم في عملية «الفرصة الناضجة» عام 1987 ضد الإيرانيين في الخليج مع تطور مهم هو إن كل طائرة ليتل بيرد يمكن أن تستدعي زوجا من طائرات سلاح الجو من طراز (A ـ 10) التي تدعى (الصاعقة 2)، أي طائرات الهجوم البري لمعالجة الأهداف الأكبر بصواريخ مافريك ومدافع عيار 30 ملم، وقد سمحت قواعد الاشتباك باستهداف أي عراقي يحمل سلاحا، وكان إطلاق النار يتم أحيانا على بعد يتراوح ما بين 2 إلى 3 ميل، وقد ضربت طائرات (DAP) بلاك هوك وليتل بيرد عشرات الناس، وكانت المقاومة في حدّها الأدنى وغير فعّالة، فيما قال طيار الهليكوبتر من طراز AH ـ 6 إن فريقه لم يتلقَّ أي رد بالنيران «لقد كان الأمر إلى حد كبير أشبه بإطلاق النار على البط في الماء»، على حد قوله.

لقد كانت النيران الصديقة أكثر تهديدا لطائرات الهليكوبتر من نيران العدو، وقد منح قبل المهمة فريق الطائرات البني خرائط أضيفت إليها مسارات كل صاروخ كروز مقرز ضربه في تلك الليلة، فيما قال أحد الطيارين «لم نكن نطير منفردين، فقد كانت الخطوط المتشعبة تشبه في شكلها قنديل البحر»، مضيفا «كانت الخرائط من أجل أن يتم التأكد أن الطواقم لا تتشابك مع بعضها، فقد كان علينا أن نخطط لطرقنا الجوية، لأن الطواقم كانت تحلق ضمن ارتفاع واحد، لذا فإن أيّ طيار من العمليات الخاصة لا يريد أن يكون ضمن تشكيل طائرات بلاك هوك وليتل بيرد والتي تقوم بشكل منهجي بتدمير مراكز المراقبة البصرية، وفي الوقت الذي كانت فيه القنابل تسقط على بغداد كان رتل مكون من 17 مركبة تخترق الحاجز الحدودي للعراق الذي يبلغ ارتفاعه 40 قدما لتعبر إلى العراق وهي أول قوة أمريكية تفعل ذلك.

كان الرتل المكون من 15 مركبة من طراز بنزيغاروس، ومركبتين دفع رباعي من طراز اس يو في تضم سبعين عنصرا من قيادة العمليات الخاصة المشتركة وسرب من قوات الدلتا بقيادة كولتروب، لقد أصبح حلم بلابر حقيقة، وكانت قوة المهام الخضراء في القتال.

كانت الغارات التي تستهدف مواقع المراقبة البصرية، من العلامات الأولى على بداية الغزو الأمريكي، لكن الطواقم الجوية لم تكن هي قوات العمليات الخاصة المشتركة الأولى التي عبرت

الحدود، فقبل الغزو كان هناك عنصر مشغل من الاستخبارات الأمريكية وهو عنصر سابق من قوات الدلتا مازال يعمل للوحدة، وقد صعد في سيارة دفع رباعي سوداء من طراز SUV في عمان/ الأردن، وبدأ رحلة خمس عشرة ساعة قيادة بالسيارة باتجاه بغداد، حيث سيصبح العنصر الوحيد من قيادة العمليات الخاصة المشتركة والوكيل غير الرسمي المخفي في عاصمة العدو.

هذا الشخص ولد ونشأ في أوروبا الشرقية، وكان هذا الوكيل ذا فك سلافي عالٍ وعيون تصغر حينما يبتسم، وكان قد انتقل الى الولايات المتحدة في سن المراهقة وانضم إلى الجيش الأمريكي في سبعينات القرن الماضي قبل أن يتم اختياره ضمن قوات الدلتا في وقت مبكر للمشاركة في عملية مخلب النسر، فيما أشار أحد العاملين معه في مطلع الثمانينات إلى أنه كان «رجلا لطيفا ومرحا، وكانت لهجته ثقيلة»، مضيفا «لقد كان يبدو أوربيا شرقيا جدا، وقد ترهل قليلا ولم يكن في الواقع رياضيا وبحال جسدية جيدة جدا، لكنه كان يتحرك وكان سريعا».

لقد بقي الرجل الأوربي الشرقي في الوحدة طوال الثمانينات، وانضم بعد ذلك إلى الدعم التشغيلي في بداية التسعينات، ثم اختفى في التدريب والتقييم وقسم بحوث العمليات حيث إن ضباط الصف الأكبر سنا ذهبوا إلى حيث لم يعودوا يرغبون أن يوضعوا في صرامة تواجدهم في السرب التشغيلي، ولهذا السبب

كان المشغلون الآخرون يعودون في بعض الأحيان إلى بحوث العمليات لأجل السفر إلى أي مكان أو التقاعد، لكن الإدارة تبقى مأهولة إلى حد كبير بالموظفين الذين يمتلكون الخبرة التقنية والتكنولوجية وتزويد المشغلين بمعدات فريدة من نوعها لاسيما بالنسبة للمهمات والعمليات السرية، فيما قال أحد مشغلي قوات الدلتا إن «كنت في حاجة إلى كاميرا يمكن إخفاؤها في الصخور أو حقيبة مرتبطة بميكرفون فسوف تحتاج إلى زيارة القسم، فهم يطورون وينتجون كل أنواع معدات الاختراق اللطيفة، فالمؤسسة كانت دائما تواكب التكنولوجيا».

في مرحلة ما ترك الأوربي الشرقي الزي العسكري ليصبح مشغلا سريا بشكل غير رسمي كضابط مخابرات يعمل تحت غطاء وهوية سرية لا تشبه موظفا حكوميا «وكان في أوروبا الشرقية كرجل أعمال»، وهو من أكثر أنواع الأعمال الاستخبارية خطورة، لأن المشغل لا يتمتع بأي حصانة دبلوماسية، وقد ظل الأوربي الشرقي يقدم تقاريره في دوره الجديد ولا يعلم به سوى عدد من زملائه القدامى.

وقال مصدر في قوات الدلتا إن «هذا العمل خاص تماما في الوحدة، فإن العميل نادرا ما يزور المقر»، وكان المشغل الذي عمل في الثمانينات لا يمتلك أي تصور بأنه قد أصبح مشغلا سريا بشكل غير رسمي قائلا «لقد كنت أفترض فقط أنه قد انتقل إلى وحدة أخرى».

لقد عاش الأوربي الشرقي لعدة سنوات في وطنه الأم بشكل سري، حتى إنه غاد إلى هناك للعلاج الطبي وكذلك لمقابلة المصادر، وقد سافر حول العالم بضمنها أسابيع طويلة قضاها في أمريكا اللاتينية وإيران وتركيا من أجل بناء غطاء له فضلا عن العراق الذي زاره مرارا وتكرارا في التسعينات لتقديم الدعم لمهمة وحدة الدلتا وخصوصا دور الوحدة في المكون الأمريكي للجان تفتيش التابعة للأمم المتحدة، فيما قال مصدر من قوة الدلتا إن «كل الذين قاموا بالتفتيش لم يكُ لديهم شيء حتى لو كان قريبا بذلك العمق أو محميا»، وكان للأوربي الشرقي ضابط مسؤول عنه برتبة رائد يتولى مهماته، لكن كان من صلاحية الأوربي الشرقي أن يجند عملاء أجانب لصالحه مثل رجال الأعمال وضباط الجيش من الناس الذين كان يتحدث اليهم».

وقال مصدر كبير في قيادة العمليات الخاصة المشتركة إن «الأوربي الشرقي قد تم تدريبه بما فيه الكفاية من أجل الاتصال مع أصدقائه، حيث يعطيهم اتصالات سرية ويعلمهم أساسيات الحرفة مثل تقديم القطرات المميتة واستخدام الكاميرات البسيطة التي يقدمها لهم، ولم يكن يكشف حتى لمن يجندهم عن خلفيته الأمريكية حتى عندما يقوم بتجنيد مصادر له فهم لا يعلمون أنهم يعملون لصالح أمريكا».

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول وفي أواخر عام 2001،

تساءل مسؤولو الاستخبارات والعمليات الخاصة عما إذا كانوا قد وسعوا الفرص التي يمثلها الأوربي الشرقي، فيما قال أحد ضباط الاستخبارات «كانت هناك الكثير من النقاشات بشأن الاستفادة منه بشكل أكبر وأفضل»، مضيفا «لقد تم تقييمه، وقد أدرك الجميع أنه لم يتم الاستفادة منه بالوسائل الملائمة».

لقد كان في الخمسين من عمره حينما غزت الولايات المتحدة العراق، وكانت أوروبا الشرقية تخفي موطنه الأصلي وهو ما ساعده على إدامة ذلك وحتى منحه الدخول من سفارة بلاده في بغداد، فيما قال أحد كبار القادة في العمليات الخاصة المشتركة» لقد كان برنامجا نادرا في أعوام 2001 ـ 2002 ومع ذلك كان الأوربي الشرقي واحدا من سبعة إلى ثمانية عناصر من العاملين في قوة الدلتا بشكل غير رسمي في قيادة العمليات المشتركة ووحدتها الخاصة والذين كانوا يعملون في السنوات الأولى بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، وكان الفريق يتضمن اثنين تم إرسالهم إلى إيران، فيما كانت مهمة الأوربي الشرقي قد صممت للنظر في فرصة تجنيد مصادر في الجيش الإيراني فضلا عن عنصر إيراني بالولادة من الذين أصبحوا مواطنين أمريكان ويعملون في جيش ولاية فرجينيا الشمالية التابع للعمليات الخاصة.

لقد غدت مهمة الأوربي الشرقي الآن هي الأخطر، فلم يكن وحيدا في الطريق الطويل من عمان إلى بغداد، لكن رفاقه لم

يكونوا عارفين بذلك، وبعبارة أخرى فإن رفاقه كانوا لا يعلمون أنه يستقل سيارة دفع رباعي «SUV» غير عادية، فقد قامت وكالة الأمن القومي بتزويدها بمجموعة من أجهزة الاستقبال المخفية تمكن فنيو الوكالة من التحكم عن بعد بأجهزة الهاتف الخلوي المحمولة ومسحها والتنصت على شبكة موجات الراديو FM للمرور، وهو ما يمكّن بالمقابل وكالة الأمن القومي من التركيز على موجات بث محددة.

حينما وصل إلى بغداد تم توجيه الأوامر إلى الأوربي الشرقي بركن العجلة بالقرب من مقر جهاز المخابرات العراقية وتركها هناك، لأن أجهزة الاستقبال المخفية في السيارة يمكن أن تلتقط بحساسية أكبر من الأقمار الصناعية أو أنظمة تجميع المعلومات الجوية، وقد استخدمتها وكالة الأمن القومي لتثبيت وتجميع المتحسسات الإضافية، فضلا عن أن أجهزة الاستقبال يمكنها الاستحواذ على طيف واسع من الترددات الراديوية في بغداد ونقلها مرة أخرى لغرض كشفها في مقر الوكالة في مدينة فورت ميد في ولاية مريلاند».

وقال ضابط كبير في قيادة قوات العمليات الخاصة المشتركة «لقد كنا في حالة يأس عام 2003 للحصول على معلومات تتعلق بتفكير القيادة العراقية ونياتها، ولذا كان أملنا هو إن أجهزة الاستقبال على سبيل المثال يمكن أن تمكّن وكالة الأمن القومي من معرفة

الترددات التي يستخدمها كبار المسؤولين الحكوميين العراقيين ومعرفة تفاصيل الأمن الشخصي لهم».

مضيفا أنه «إذا كنت تحاول أن تحدد في كل مرة التفاصيل الأمنية الشخصية لصدام حسين حين يقود حول بغداد فقد كانت تلك الطريقة لفعل ذلك»، مشيرا إلى أن العراقيين «كانوا سيئين جدا في الأمن التشغيلي، فهم غالبا لم يغيروا تردداتهم الراديوية منذ عدة سنوات».

لكن وعلى الرغم من نجاح الأوربي الشرقي في وضع السيارة والجانب التقني التي عملت بها المهمة فإن ضباط قيادة العمليات الخاصة المشتركة لا يتذكرون الجهد الذي أنتج الكثير من المعلومات»، وتابع الضابط أن «تلك في الحقيقة لم تكن عمليتنا، فقد كنا رجال التسليم».

بعدما ترك السيارة في مكانها المناسب، كانت مهمة الأوربي الشرقي في بغداد هو معرفة ونقل موقع صدام لاستهدافه بالضربات الجوية الأمريكية وفي عدة حالات قام بما أطلق عليه أحد قادة العمليات الخاصة المشتركة في البنتاغون تسمية «تحديد المواقع من خلال السير على الأقدام»، فقد كان يرتدي أداة نظام تحديد المواقع «GPS» العالمي أثناء سيره في بغداد ويضغط على زر ينقل بالضبط أماكنه عبر الأقمار الصناعية كلما اجتاز موقع هدف محتمل.

كانت مهمات كهذي تحمل الكثير من المخاطر، ليس فقط من قبل أجهزة الأمن العراقية إذا ما تم كشف العميل، بل أيضا من الحملات الجوية، لذا كانت حمايته تتطلب تخطيطا دقيقا ومحدثا للغارات الجوية، وقد تم إطلاق إحدى الضربات الجوية بناء على معلومات استخبارية قدمها، لكن صدام في حينه لم يكن في منطقة الهدف.

وقال ضابط كبير في قيادة العمليات الخاصة المشتركة «لقد كانت مهمة الأوربي الشرقي عبثا إلى حد كبير، فهو لم يستطع تجنيد أي مصدر يمكن أن يزوده بمعلومات تتعلق بمكان صدام»، فيما قال ضابط في قوات الدلتا إن «خلفية العميل الأوربي الشرقي لم تكن تساعده كثيرا وإنه كان من الأفضل لو كان عربيا أمريكي الجنسية، لم يكن يهمّ إلى أي سفارة تنتمي، لأنك إن لم تكن عراقيا فإن الحركة في تلك الأيام كانت تعني عقوبة الإعدام».

وقال مصدر في قوات الدلتا إن «العميل كان يقوم بتزويد قيادة العمليات الخاصة المشتركة بمعلومات لا تتجاوز سوى «المعلومات البيئية» والمعلومات العامة عما يمكن توقعه في بغداد، وحالما احتلت القوات الأمريكية بغداد عاد الأوربي الشرقي إلى عمان»، مضيفا أنها «ربما تكون فرصة أخرى لم يتم الاستفادة منها بشكل كامل، وفي الواقع لم يتم الاستفادة منه في شيء جوهريا».

حينما انتقل الأوربي الشرقي إلى وظيفة خدمة الدفاع في

صيف عام 2004 ولم يتم استبداله كان ذلك يمثل خسارة لقوات الدلتا بحسب مصدر في الاستخبارات والذي أضاف أن «الرجل لا يمكن الاستغناء عنه «فقد أثار السؤال الأكبر بشأن أن تقوم وحدات المهمات الخاصة إدارة عمليات التغطية للعملاء العاملين بشكل غير رسمي، وبحلول نهاية العقد كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تنفق ما بين 1.5 إلى 1.8 مليار دولار سنويا للحفاظ على تغطية ضباطها، فيما كان كبار ضباط الإدارة في وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) يشعرون بإحباط شديد نتيجة عدم قدرة وكالة الاستخبارات المركزية على تقديم معلومات استخبارية فعّالة في أماكن مثل إيران والعراق وسوريا.

وقال مصدر في قوات الدلتا «حتى في أعوام التسعينات من القرن الماضي كانت عمليات زرع عملاء الاستخبارات بشكل سري أمرا صعبا للغاية إلا إذا كان الشخص محظوظا بما فيه الكفاية ليكون قد ولد ونشأ في بلد آخر، ويكون هناك جزء مفقود من حياته لأن الجنود الذي يذهبون إلى الأقسام الخاصة عند انضمامهم إلى قوات الدلتا يجب أن يخفوا ذلك عن عامة الناس، وقد أوفى الأوربي الشرقي كل المتطلبات اللازمة لذلك».

وأضاف أن «ما بعد ذلك يتطلب وجود حليف يضمن له التغطية وخلق تاريخ لذلك الجزء المفقود من حياة العميل»، وهو ما قاموا به لاحقا، إن خلق مثل هذا الغطاء العميق للوضع في القرن الواحد

والعشرين كان سببا معقولا لقيام المشغلين في جهاز الاستخبارات بالزيارات المتكررة أو العيش في بلدان محددة، لكن هذا الأمر كان أشبه بالمستحيل لقيادة العمليات الخاصة المشتركة لأنه يتطلب الاختباء والوقت، فيما كشف مصدر من قوات الدلتا أن «من المستحيل القيام بذلك بدون كل المتطلبات الأخرى»، مشيرا إلى أنه «فيما يتعلق بالسيارة المحملة بالهوائيات وأجهزة التنصت المخفية في بغداد فقد تم تدميرها لكن ليس بضربة جوية».

طبقا لأوامر دايلي، كانت مهمة فرقة العمل الخضراء الأولى هي التحقق من عدد أسلحة الدمار الشامل المحتملة ومواقع صواريخ سكود في غرب العراق قبل التحرك نحو سد حديثة في الأنبار وهو سد ضخم تم تصميمه سوفيتيا على نهر الفرات على بعد 130 ميلا شمال غرب بغداد، والذي كان ينظر إليه الجنرالات الأمريكان كمكان محتمل لإخفاء أسلحة الدمار الشامل العراقية، لكن بلابر وخلافا لرؤسائه كان متشككا في أن يقدم صدام على إخفاء الأسلحة في المواقع النائية في الصحراء الغربية من العراق.

ضباط قوات الدلتا من جانبهم كانوا يعتقدون أن من المرجح أن يحتفظ صدام بهذا النوع من الأسلحة، إذا كان يملكها، بالقرب من مركز السلطة في بغداد، وتم استدعاء مهمة أخرى لهذا الغرض.

في الأسابيع القليلة التي سبقت الغزو اعترضت المخابرات الأمريكية المكالمات الهاتفية لجنرال عراقي أثناء قيادته على

الطريق السريع من وإلى الحدود السورية مما اثار احتمال قيام الجنرال باستطلاع طريق الهروب لقادة النظام، ولذا أمر بلابر كولتروب بعرقلة الطريق نحو الأردن وسوريا من أجل منع صدام وولديه وغيرهم من كبار قادة النظام من الفرار من الخناق الذي سيشدده التحالف حول بغداد، ولذا قامت فرقة العمل الخضراء ولعدة أيام بتصعيد الدمار غرب العراق ونصب كمائن للأرتال العسكرية العراقية وتطهير مواقع أسلحة الدمار الشامل المشتبه بها، ولم يكن أيٌّ منها يحتوي على أي شيء مثير للشكوك.

في تلك الأثناء حيث كانت تتسابق فرقة المشاة الثالثة وفيلق المارينز الأول نحو بغداد في أسرع تقدم عسكري في التاريخ، أصبح من الواضح في عرعر أن الارتال المدرعة يمكن أن تحتل مطار بغداد دون الحاجة إلى مساعدة قيادة العمليات الخاصة المشتركة، على الرغم من محاولات دايلي اليائسة الإبقاء عليها، فقد بدا أن مهمة فرقة العمل 20 في الاستيلاء على مطار العاصمة العراقية كانت تتبخر أمام عينيه، وكان يتوسل للحصول على مهمة مطاردة.

في الثالث والعشرين من آذار عام 2003 علمت قوات الرينجرز أن المهمة التي كانت مقررة في اليوم التالي قد تم إلغاؤها، وتركز الانتباه الآن على فرقة المهام الخضراء التي أمر بها دايلي فقد تمت الموافقة عليها، لكن بشكل صارم، فيما قال مصدر في قوات الدلتا

إن «المهمة بدت وكأنها مهمة قيادة العمليات الخاصة المشتركة «وبقي العقيد جو فوتل المسؤول عن فوج الرينجرز الذي كانت مهمته الرئيسة الاستيلاء على المطار، يبحث عن مهمة جديدة، وقد سأل بلابر قائلا «أنا ليست لدي مهمة، هل هناك شيء لرجالي يمكن أن يقوموا به؟»، فأجاب بلابر «كم رجلا لديك؟ «، فرد فوتل «فوج كامل»، فقال بلابر «نعم، نستطيع استخدامهم».

ارتبط دايلي بسرعة بالكتيبة الأولى لفرقة العمل الخضراء، فيما انهمكت الرينجرز في عمل مكثف كثيرا منه ينطوي على الاستيلاء على أماكن الهبوط الصحراوية والمطارات العسكرية.

في مساء يوم 24 من آذار استولت الكتيبة الثالثة من الرينجرز سي على الهدف «رود رنر»، وهو شريط هبوط صحراوي بالقرب من منطقة القائم على الحدود السورية بإنزال جوي بالمظلات، وأمنت قوة الرينجر الشريط، فيما قام عناصر قليلون من قوة الدلتا بتقدم الدعم بزوجين من طائرات الهليكوبتر من طراز MH ـ 6s وAH ـ 6s كانت تعمل هناك والقيام بقطع خطوط الاتصالات».

فرقة المهام البنية بدورها كانت قد أنهت مهمتها في تدمير مراكز المراقبة البصرية منذ العشرين من آذار، فيما كانت قوة السرب الأسود مستمرة حتى الثالث والعشرين من آذار وتتقدم قليلا في العمق العراقي في كل ليلة، ومنذ ذلك الحين ركزت قوة المهام البنية على دعم القوات البرية التابعة لفرقة المهام 20.

فرقة المهام الخضراء شنت غارات على مطاري H ـ 2 و H ـ 3 في الأنبار غرب العراق، واستولت كتيبة الرينجرز الأولى على مطارين عسكريين آخرين أطلق عليهما تسمية سايد وندر جنوب وسايد وندر شمال.

المهمة التالية بدأت ليلة 23 آذار حينما عبرت كتيبة عناصر من القيادات نحو العراق في عربات التنقل الميدانية من طراز همفي ليقودوا سياراتهم لمدة 12 ساعة في الصحراء للوصول إلى شريط الهبوط الصحراوي يُدعَى بهدف الذئب، وكانت قوات الرينجرز محظوظة بأنها وصلت مع ضوء النهار لأن الهدف كانت تتناثر فيه القذائف غير المنفجرة، لذا فإن قوة الكتيبة وقيادتها كانا عميقين جدا في التخطيط للهجوم على سايد وندر الجنوب، والذي شمل قرية النخيب وحامية عسكرية صغيرة هناك فضلا عن مطار عسكري، لكن عاصفة رملية كبيرة هبت في الرابع والعشرين من آذار أبطأت عملية الغزو بأكملها، ولم تفعل قوة الرينجرز سوى القليل عند هدف الذئب عدا السعي للحصول على مأوى لمدة يومين إلى انحسار العاصفة يوم 26 آذار، لقد اندفعت قوة الرينجرز 35 ميلا في العمق العراقي نحو الهدف الذي تمكنوا من إزالته خلال 12 ساعة ولم يواجهوا سوى مقاومة قليلة.

الكتيبة الثانية من فريق المهام البني والفريق السادس من المجموعة الذهبية تلقت إستقبالا أكثر حرارة حينما هاجمت مركز

القادسية للبحوث المعروف باسم «اوبجكتف بيفر» ليلة السادس والعشرين من آذار عام 2003 والذي يقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة صناعية شمال سد حديثة، وكان مركز البحوث هذا مرفقا مشتبها به للأسلحة البيولوجية والكيميائية، وكان الهجوم قطعة كلاسيكية من عمليات قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وقد هبطت الكتيبة الثانية من قوات الرينجرز بصحبة أربعة طائرات بلاك هوك من طراز MH_60K، وأسست أربعة مواقع إعاقة لعزل المركز، فيما كانت طائرتا هليكوبتر من طراز شينوك تقوم بإنزال الفريق الذهبي بجانب المبنى المستهدف، فضلا عن زوجين من طائرتَي هليكوبتر من طراز DAP وAH 6 تقومان بتقديم الدعم الناري.

لقد كانت هناك طائرتان تستخدمان منصات القنص للفريق الذهبي، بينما كان زوج طائرات الشينوك قريبة منها وعلى استعداد لتضخيم ردة الفعل بشكل قوي وفوري وبعد تزودها بالوقود والتقاطها لأربعة قناصين من الفريق الذهبي، فيما تم إطلاق طائرتين من طراز ليتل بيرد من موقع رود رنر والتي كانت على بعد 35 ميلا فقط من موقع القادسية، وقد حلقت الطائرات الكبيرة للفريق البني من منطقة عرعر وتم تزويدها بالوقود جوا قبل أن تنقسم إلى فريقين.

طائرات الشينوك والبلاك هوك حلقت عبر وابل الرصاص للتغطية على الهدف، فيما هاجمت طائرات DAP محطة توليد كهرباء المدينة على بعد ميلين ونصف من الهدف، وخلال العملية

اشتعل الزيت في المحولات الكهربائية، فيما قال طيار لطائرة هليكوبتر MH ـ 6 «بدا الأمر كما لو أن قنبلة نووية انفجرت «وقد وُوجه الهجوم بمقاومة شرسة بما فيها ضربات خارقة للدروع، وقد رد مدفعيو أبواب طائرات بلاك هوك وشينوك بنيران مدمرة، فيما قام طيار الهليكوبتر من طراز MH ـ 6 جون ميهان بإطلاق صاروخ باتجاه الباب الأمامي للمبنى الحكومي الذي كان ينبعث منه الكثير من إطلاق النيران، وتم قمع التهديد على الفور.

طيار الرينجرز عقد حاجزا إلى حين هبوط الطائرة الرابعة من طراز بلاك هوك المخصصة لغلق الموقع، لكن رصاصة طائرة ضربت المقصورة وضربت طيار الرينجرز في ظهره ومرت في صدره قبل أن تتوقف في الدرع الذي يرتديه، وقد صارع قائد الطاقم والفريق الذهبي القتالي من أجل إبقاء الطيار حيا، لذا أقلع الطيارون بالعودة مباشرة إلى موقع رود رنر حيث كانت هناك طائرة من طراز سي 130 مجهزة بفريق للعمليات محمول جوا وفيها فريق جراحي كان ينتظر.

في الوقت الذي هبطت فيه طائرتا شينوك وهما تحملان القوة الهجومية الرئيسة بدأ إطلاق النار عليهما، وأصيب قائد الطاقم فوق فكه، فانحدرت الطائرتان وألقتا بطاقمهما الهجومي، فيما اقلع الطياران بسرعة وهما يحملان جنديين يعملان بخوف على معالجة جروحهما، وفي منتصف الرحلة توقف قائد الطاقم عن التنفس مما احتاج إلى خمس دقائق قبل أن يتعافى مجددا.

هبطت طائرة الهليكوبتر إلى جانب قاعدة العمليات الجوية في طريق رود رنر وانضم قائد الطاقم إلى جندي الرينجرز في الجراحة، وقد نجا كلا العسكريين بفضل الهدوء ومهارات إنقاذ حياة زملائهم.

بالعودة إلى قاعدة القادسية قام المهاجمون بتمشيط المكان لمدة 45 دقيقة وهم يبحثون دون جدوى عن أسلحة الدمار الشامل، وكانت طائرات ليتل بيرد ودي أي بي تحوم فوق الرؤوس، فيما كان قناصو طائرات الأباتشي من طراز MH6 يحاولون التقاط الأهداف الفردية، وبقية الطائرات استخدمت الأسلحة الرشاشة والصواريخ لتدمير العربات العراقية المتحركة، وبعد أقل من ساعة لمعالجة الهدف انقسم فريقا الرينجر والقوة المهاجمة بين طائرات شينوك وبلاك هوك عائدين إلى منطقة عرعر بعد توقفهم في طريق رود رنر لغرض التزود بالوقود.

في الليلة التالية يوم 27 آذار قامت قوات الرينجر والقوة المصاحبة لها بعملية إنزال جوي بالمظلات، وكان الهدف هذه المرة المطار العسكري H1 والذي يُسمَّى لدى قوة الرينجر باسم «الهدف الثعبان»، فقد هبطت ثلاث طائرات هليكوبتر من طراز C17 وألقت بمقاتليها من الرينجرز، وعلى عكس النيران المضادة التي جوبه بها الفريق وأجبرت الطيارين على الإقلاع والمناورة، لم يواجه الرينجرز أي مقاومة، لكنهم على أية حال واجهوا عشرات

الإصابات بجروح بسبب هبوطهم على أرض صخرية، لقد أصبح المطار الآن متوفرا للقيام بمهمات أخرى غرب العراق.

لقد وضع بلابر أمرا في اعتباره، فهذا القائد البديل لقوات الدلتا قد أخبره المحللون العسكريون للقوات أن الدفاع العراقي حول بغداد يتركز في أربعة محاور حاسمة، فطبقا لخرائط الاستخبارات الأمريكية فقد ركّز صدام قواته في المنطقة المحيطة بمسقط رأسه في تكريت على بعد 95 ميلا شمال غرب بغداد، ومدينة بيجي على بعد ثلاثين ميلا عن الطريق السريع، والرمادي على بعد 60 ميلا غرب بغداد، ومدخل بغداد الجنوبي، وقد ربط بين القوات الأربعة بوظيفة السياج، فيما قال بلابر إن «انهيار أحدها سيتسبب في انهياره»، معتقدا أن موقع السور الشمالي الغربي بالقرب من سد حديثة هو الأكثر عرضة للهجوم من قبل قواته، فقد كان معزولا وتحيط به منطقة مسطحة من التضاريس وفارغة، فاذا تمكنت فرقة العمل الخضراء من تمزيق هذا الموقع فإنه يعتقد أن العراقيين سيؤمنون بأنهم محاصرون وسوف تنهار الأسوار الأخرى، ولذا أخبر قائد فرقة العمل 20 فرانك كيرني بالقول «دعوني أقُمْ بتدمير موقع هذا السياج، فإذا تمكنت من تدمير هذه الزاوية فإن كل الأشياء ستنهار»، وقد وافق كيرني على كلامه.

لكن وقبل أن تتمكن فرقة العمل 20 من التركيز على حديثة، كانت لديها مهمة إنقاذ عالية المستوى يجب أن تقوم بها، فقد

تمكنت القوات العراقية من أسر ستة جنود أمريكان في كمين لمجموعة الصيانة 507 وهي قافلة صغيرة مضطربة بالقرب من مدينة الناصرية يوم 23 آذار، وقُتِل في الكمين أحد عشر جنديا أمريكيا أثناء القتال»، وكان من ضمن الجنود بالدرجة الأولى المجندة جيسكا لينش البالغة من العمر 19 من ولاية فرجينيا الغربية وكان العراقيون يحتجزونها بشكل منفصل عن الآخرين.

في أواخر شهر آذار أخبر محامٍ عراقي عناصر من قوات البحرية الأمريكية وفريقا من القوات الخاصة في مدينة الناصرية أن جيسكا لينش محتجزة في المستشفى الرئيس لمدينة الناصرية حيث كانت زوجته تعمل هناك ممرضة، وبمجرد أن جلب المحامي صورا تثبت ذلك بدأت فرقة العمل 20 بإعداد خطة إنقاذ، وقد تمّ إنشاء فرقة عمل مشتركة في قاعدة تاليل الجوية على بعد 12 ميلا جنوب غرب الناصرية.

لقد توقعت فرقة المهمات اندلاع قتال عنيف مع مليشيات فدائيي صدام، وهي مليشيات محلية من الموالين لصدام والذين كانوا يتخذون من الطابق السفلي للمستشفى مقرا لهم، وطوال يومين عمل الفريق على مدار الساعة لوضع خطة تضم قوات الرينجرز وفرقة المهام البنية وفريق الدلتا السادس وجيش شمال فرجينيا وقد بلغ عدد قوات الإنقاذ 488 عنصرا، وكان اثنان من القادة برتبة كولونيل يديرون العرض وهما فرانك كيرني وضابط من قيادة

العمليات الخاصة المشتركة والذي كان مسؤولا عن تخطيط عملية الإنقاذ، فيما كان قائد الفوج جو فوتيل يقود المهمة.

فريق الدلتا الذهبي السادس كان يلعب الدور القيادي، فيما أقنعت فرقة المهام المحامي العراقي بالعودة إلى المستشفى وتصوير الباب الأمامي الرئيس إلى الدرج المؤدي إلى غرفة جيسيكا لينش بشكل سري، وقد سلم الفيلم المصور إلى قوة المارينز الذي سلمه بدوره إلى فرقة المهام 20، لقد خططت قوة السيل الذهاب مباشرة إلى غرفة جيسكا لينش ودرسوا الفيديو باهتمام حتى عرفوا كل خطوة سيقومون بها للدخول إلى داخل المستشفى.

في الساعة الواحدة ليلا في يوم الأول من نيسان بدأت المرحلة الأولى من عملية الإنقاذ مع إطلاق المارينز لهجوم تحريري جنوب الفرات الذي يقسم مدينة الناصرية، وكان المستشفى يقع على الجانب الشمالي للنهر حيث قام المارينز بقطع الكهرباء عن المدينة، وسرعات ما اشتغلت المولدات الكهربائية الاحتياطية مما جعل بناية المستشفى واضحة للرؤية في الظلام المحيط بها، ثم حلقت القوة الهجومية حيث انطلقت أربع طائرات هليكوبتر من طراز ليتل بيرد، ولم تواجه أي مقاومة عراقية، لكن كانت هناك الكثير من النيران الصديقة من قوات المارينز، بعد ذلك قام زوج من طائرات أباتشي من طراز MH6 مع ثلاث مجاميع من الفريق الذهبي السادس بالهجوم عن طريق إنزالهم من ثلاث جهات داخل مجمع

المستشفى، وبدأ الفريق الأول بالهجوم من الباب الرئيس باقتحام المستشفى بفكرة واحدة هي الوصول إلى غرفة المجندة جيسكا لينش قبل أن تصاب بأيّ ضرر، فيما قامت طائرة بلاك هوك بإنزال فريق القناصين الذهبي على سطح المستشفى، فيما أنزل الفريق الثالث بصحبة فريق طبي.

لم تكن هناك طائرات هليكوبتر كافية لدى الفريق البني لجميع المهمات، لذلك كانت تحلق مروحيات البحرية الأمريكية من طراز CH ـ 46 وهي تحمل قوة الرينجرز، فيما كانت الكتيبة الثانية مع مصاحبة لهم من الكتيبة الأولى يقومان بعزل وتأمين الهدف، كان المارينز قد أبعدت قوة الرينجرز لبعض المسافة عن المستشفى، مما اضطرهم للسير على الأقدام نحو مواضعهم، وهي الحركة التي أطلق عليها تسمية «مقديشو ميل» في إشارة إلى العملية المشتركة بين الرينجرز وقوة الدلتا التي قاموا بها نهاية عام 1993 في معركة الصومال.

لم تتحقق المقاومة المتوقعة، لأن الفدائيين كانوا قد أخلوا مواقعهم قبل وقت قصير من الغارة، دون أن يعلموا بذلك، ولم يحصل الفريق السادس من المشغلين على أية فرصة، وحينما اندفع الفريق المهاجم باتجاه غرفة لينش صرخت من الخوف لأن فريق السيل قام بتفجير أقفال الأبواب الأخرى في الممر بإطلاق النيران من بنادقهم للتأكد من عدم وجود فدائيين يختبئون وراءها، وقال

أحد عناصر الفريق السادس «لقد خرجت جيسكا لينش عن طورها لأنها كانت تعتقد أننا هناك لقتلها، ومن أجل تهدئتها قام قائد الفريق بإزالة علامة العلم الأمريكي من كتفه وحركه امامها ثم أعطاه لها قائلا «نحن أمريكان، ونحن هنا من أجل إعادتك إلى الوطن».

حينما نادى المهاجمون بجهاز الراديو بشفرة تعني أنهم وجدو جيسكا وهي بأمان ارتفعت أصوات الحبور في مقر قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وقام المشغلون بعد ذلك بنقل جيسكا فورا بطائرة بلاك هوك التي كانت تنتظر والتي طارت مباشرة إلى قاعدة تاليل، ومن ثم تمّ نقلها إلى الكويت.

بالعودة إلى المستشفى قاد العاملون هناك المشغلين إلى المشرحة حيث وجدو جثث اثنين من زملاء جيسكا لينش الأقل حظا، فيما قال السكان المحليون إن المزيد من الامريكان قد دفنوا في قبور سطحية في ملعب لكرة القدم مجاور للمستشفى، وحققت قوة الرينجرز في الأمر ووجدت أن ذلك الأمر صحيح، فيما قال مخطط في قوة المهام 20 «في الأساس لقد تمّ إلقاء الوحل عليهم بشكل مستعجل، وكانت أطرافهم خارجة من الأرض، وبسبب عدم وجود مجارف قام عناصر الرينجرز بالحفر وإخراج الجثث بأيديهم، وهو ما أطال المهمة لوقت أطول مما توقعه المخططون، بحلول ضوء النهار كان عدد الجثث التي الكشف عنها قد بلغت تسعة جثث جميعهم من ضحايا كمين الرتل 507 حيث وضع

الرينجرز الجثث في مركبات وعادوا إلى قاعدة تاليل، وكانت هذه العملية هي الأصعب بالنسبة لهم.

في الوقت الذي كان فيه فريق المهمات 20 يصارع لإنقاذ جيسكا لينش، كان فريق العمل الأخضر في قاعدة H1 يتهيأ للهجوم على سد حديثة الذي يبعد حوالي 55 ميلا إلى الشمال الشرقي من القاعدة، وكان النهج التكتيكي بمثابة تكرار من الخطة التي استخدمها فريق جوليت في عملية الاناكوندا في أفغانستان وهي حركة ليلية بمركبات على جميع التضاريس.

لقد كانت القوة صغيرة للغاية نسبة إلى حجم قوة العدو التي تحرس الهدف، فهي مكونة من تسع مركبات لا تحمل أكثر من مشغلين اثنين فقط في كل واحدة، وكان يدافع عن السد أربعة مدرعات عراقية مصحوبة بـ44 دبابة من طراز تي 55 وناقلة جنود مدرعة من طراز بي أم بي وقوة تضم حوالي 120 جنديا عراقيا وأربعة عشر مدفع هاوتزر جنوب أفريقي عيار 155 ملم والعديد من مدافع الهاون وقاذفات صواريخ الدفاع الجوي من طراز رولاند، فيما يتمركز ما لا يقل عن 6000 جندي عراقي بمسافة لا تبعد سوى أقل من 20 ميلا.

لقد كان الهدف بشكل مباشر خارج سيناريو التدريبات المشتركة، ماعدا أنه في التدريبات الاستعدادية المشتركة كان نصف قيادة العمليات الخاصة المشتركة قد قامت بالتدريب

بالهجوم على الهدف، لقد أرسل كولترب أقل من عشرين مشغل، لكن حجم القوة الصغيرة أثبتت أهميتها، كما فعلت مركباتATV الفائقة الهدوء وسائقوها المزودون بالنظارات الليلية الباحثة والتي مكنت مشغلي الدلتا من اختراق خطوط الدفاع العراقية دون أن تُشاهَد أو تُسمَع، وفي الوقت الذي كان فيه بلابر يراقب التقدم المحرز مستخدما متتبع «القوة الزرقاء» وهو نظام يستخدم إشارات جي بي أس المرسلة من مركبات ATV لإنشاء رمز لكل مركبة على شاشة جهاز الكمبيوتر الذي لديه، وقد استخدم المشغلون أجهزة الليزر المصممة لتحديد الأهداف للطائرات الهجومية المحلقة كما هو على غرار أفغانستان.

إن استخدام المشغلين في العمليات الخاصة لأجهزة الليزر لتحديد الأهداف لطائرات القوة الجوية الأمريكية أثبت قوته في الاشتباك، وقد دمّر مزيج القنابل الموجهة بالليزر وقنابل الذخيرة المباشرة المشتركة والموجهة بالقمر الصناعي عشرين مركبة عراقية مدرعة و17 مدفعا للدفاع الجوي عيار 23 ملم فضلا عن مجموعة من الشاحنات وبعض البنايات، وقد انسحب المشغلون بهدوء كما جاؤوا ثم عادوا بالأداء نفسه في الليلة التالية.

مع نجاحه المماثل لنجاح الفريق الأخضر بدأ بلابر بالتفكير بشكل أكبر، وقد أدرك ضباط الدلتا أن قوة المهام الصغيرة تفتقر إلى القوة البشرية التي تستطيع الاستيلاء والسيطرة على السد، لذا

طلب كتيبة من الرينجر لتولي السيطرة على سد حديثة، لكنه كان أيضا يطمح بالأكثر من ذلك بكثير فقد كان يتصور أن القوة فضلا عن غلقها لطريق الهرب إلى سوريا والأردن بإمكانها السيطرة على الطريق الدولي رقم واحد شمال بغداد، وهو ما يقنع العراقيين أن قوة مدرعة كبيرة كانت تقترب من الجزء الشمالي الغربي للعاصمة العراقية، فيما اقترح بلابر أيضا أن يتم البدء في بناء شبكة استخبارية بشرية في العراق، اعترافا بأن الصورة الاستخبارية للائتلاف كانت تعاني من فقر شديد، لقد كان يعرف أن مجموعته الصغيرة من المطاردين تحتاج إلى النمو من أجل أن تتحقق رؤيته، ولذا فإنه فضلا عن كتيبة الرينجرز طالب بسرب آخر من قوة الدلتا لنشره مع مركبات البينزغاورس وضمها لفرقة العمل الخضراء ثم أضاف مجموعة الكيكرز وبمصاحبة الدبابات أيضا.

لقد كان طلبا غير تقليدي تماما، لم يستخدم منذ غزو بنما عام 1989، فمنذ الحرب العالمية الثانية كان يندر عمل المشغلين الخاصين بشكل وثيق مع القوات المدرعة، لقد كان كيريني ودايلي مديرا العمليات مؤيدين له، حتى إن دايلي كان موافقا جزئيا طبقا لأحد الأطراف في المناقشات، لأنه تحت الضغط لإظهار بعض القيمة لقوة المهام ذات الموارد العالية وقد لعب بلابر اثنتين من أوراقه من المواهب المقنعة من أصحابه الموثوق بهم من عملية الاناكوندا، وهما جيم ريس الذي كان ضابط الارتباط في المقر

الرئيس للجيش الأمريكي في الكويت، والثاني هو الجنرال ديفيد ماكنيرنان قائد القوة البرية التقليدية، يضاف الى ذلك الاحترام العالي الذي يكنه الجنرال تومي فرانكس قائد العمليات العسكرية في العراق لبلابر منذ مشاركته معه في عملية الاناكوندا في افغانستان.

لقد كان دايلي ضد ذلك، والجميع ضد ذلك، لكن جيمي حصل على ماكنيران، وماكنيران كان لديه شيء واحد يقوله للجنرال تومي فرانكس وهو إن كل شيء تحت السيطرة بحسب مصدر من قوات الدلتا.

لقد كان منزعجا من قادته التقليدين والذين توقف هجومهم بشكل مؤقت، لكن قادة القيادة المركزية للعمليات متلهفون للحصول على المبادرة ومتحمسون للهجوم الذي قامت به فرقة العمل الخضراء على سد حديثة، وبالتأكيد فقد حصل بلابر على كل ما طلبه، كان سرب من قوات الدلتا B في معسكر فورت براغ، وفي غضون ساعات كانت طائرتان من طراز سي 17 تشقّ طريقها مباشرة للهبوط الصحراوي في العراق، وفي الوقت ذاته وفي يوم 31 آذار تلقى الكابتن شين سيلين قائد الكتيبة الثانية من الفوج المدرع 70 أمرا غير متوقع بأن عليه مغادرة فصيله مع كتيبة مشاة فرقة العمل التي التحق بها وتحميل ما تبقى من دباباته على الناقلات والانتقال بشكل عاجل وسريع إلى قاعدة تاليل الجوية حيث ستحمل طائرات سي 17 دباباته شمالا إلى معسكر H1 ليرتبط مع قوة المهام الخضراء.

حينما فشل الناقلون بالإيفاء بوعدهم أمر سيلين مرافقيه الخروج

بقوتهم الخاصة، وبعد خمس ساعات وصلوا إلى قاعدة تاليل، ومن هناك طار سيلين باتجاه H1 أولا ليوجز للمشغلين الخاصين بشأن قدرات قوته المصاحبة ومتطلباته، ولأن طائرات سي 17 لا تستطيع سوى نقل دبابة واحدة من طراز أبرامز فقد استغرق الأمر 15 طلعة جوية على مدى ثلاثة أيام لتسليم عشر دبابات إلى سيلين، وثلاث ناقلات مدرعة للأشخاص من طراز M113 وخمس شاحنات، واحدة من طراز همفي وواحدة لدعم النيران إلى قاعدة H1.

لقد اكتسبت المجموعة اسما جديدا وهو فريق الدبابات، وفي خلال ساعتين كانوا على الطريق مرة أخرى في طريقهم لدعم مهمة موقع غريزلي، وهو المكان المؤقت بين حديثة وتكريت، حيث يتم تجميع فرقة عمل بلابر الموسعة، لقد بدأ سيلين انتظارا غير مثمر لناقلي الدبابات، وكان هناك 140 رجلا، ورتل مكون من 17 مركبة منظمة حول الكتيبة الثالثة لقوة الرينجر الذي يقترب من مجمع سد حديثة البالغ ارتفاعه سبعة امتار وحوالي ستة أميال طولا.

في الأول من نيسان وقبل الفجر كانت مهمة قوة الرينجرز تأمين السد لضمان عدم قيام النظام العراقي بتدميره أو خلق فيضان كبير في النهر، وقد تمّ إطلاق النار على حفنة من الحراس الذين فشلوا في الاستسلام فورا، وكانت المقاومة الأولية الوحيدة، وبدأت قوة الرينجرز بتطهير البناية الإدارية في النهاية الغربية للسد، وفيما عدا اكتشاف 25وجود عاملا مدنيا كان هذا الأمر غير مريح.

يبدو أن شجاعة الجنود العراقيين ترتفع مع الشمس، فقد بدأ العراقيون على الجانب الغربي من النهر إطلاق قاذفات آر بي جي، وقام قناص قوة الرينجر على السد بوضع منظاره المقرب في بندقيته ليشاهد ثلاثة رجال اختاروا بشكل غير حكيم خزان البروبان كغطاء لهم، وحينما ظهر أول رجل بشكل واضح يحمل قاذفة الـآر بي جي من أمام الخزان وعلى مدى 900 متر قام عريف الرينجرز بسحب الزناد وإطلاق النار من القناص الذي اخترقت طلقته المهاجم واستمرت نحو خزان البروبان مما تسبب بإشعاله وقتل الاثنين الآخرين المختبئين خلفه على الفور.

بعد ذلك جاءت شاحنة مليئة بالرجال المسلحين تتأرجح على الطريق باتجاه قوة الرينجر في الطريق الذي يؤدي إلى أعلى السد، وقامت مركبة جي أم في بإطلاق النار عليهم من المدفع الرشاش بعدة من مئات الاطلاقات باتجاه سيارة المسلحين فأوقفتها وقتل خمسة أشخاص من راكبيها، فيما انتشر الآخرون ودخلوا في معركة نارية مع قوة الرينجر لمدة ساعة انتهت بمقتل ثلاثة عراقيين واستسلم خمسة آخرون، وثلاثة أصيبوا بجروح خطيرة قفزوا إلى جانب السد ليسقطوا على عمق 100 متر أسفل الجسر الحاد.

في المشهد كان قائد الكتيبة الثالثة رئيس العرفاء غريغ بيرج الملقب بـ«الرأس الحديدي» والذي كان قائد سرب الأوامر في قوة الدلتا في تورا بورا في أفغانستان، لقد كان هو والرقيب الأول

جيفري دنكان من القوة المصاحبة (B) في الفصيل الثاني يعرفان أن الجنود العراقيين الجرحى سيموتون إن لم يتم إنقاذهم من قبل قوة الرينجرز.

لقد كان بيرج يرتدي دعامة على كل ساق بعد أن كسرت كاحله اليسرى وكسرت ساقه اليمنى قبل ستة أسابيع في قفزة أثناء التدريب في معسكر فورت براغ، لكن ذلك لم يمنعه وهو ودنكان من النزول بسرعة لمسافة 100 متر في المنحدر للوصول إلى العراقيين المنكوبين في الوقت الذي كانت فيه هناك نار ثقيلة من مضاد للطائرات إلى الجنوب، وحينما وصل الاثنان إلى العراقيين وجدوا أن اثنين منهم قد ماتا وبعد تقديم الإسعافات الأولية للعراقي الباقي على قيد الحياة، فقام العسكريان من قوة الرينجر بنقله من على المنحدر تحت الضغط وفي وضع حرج، لكن على الرغم من كل الجهود التي بذلها الرينجرز توفي العراقي الثالث نتيجة الجروح بعد وقت قصير، ومع ذلك حصل كل من بيرج ودنكان بعد ذلك على وسام النجمة الفضية لتلك الجهود.

وشهد الفصيلان الآخران أيضا حركة خلال الساعات الأولى من فجر الأول من نيسان، فقد قام 27 رجلا من القوة المصاحبة سي من الفصيل الثالث بأخذ هدفهم وهو محطة الطاقة الكهرومائية على السد على الجهة الجنوبية، وبعد معركة قصيرة كانت الإصابة الوحيدة فيها للرينجرز هي لميكانيكي السيارات بجرح إطلاق نار

في أصابع قدميه، بينما كان الفصيل الأول هو الأخير في ترتيب أوامر الحركة، وكانت مهمته إنشاء موقف عازل على قمة التل على المدخل الجنوبي الغربي للسد.

لقد فوجئ جنود الفصيل بالعثور على منشأة عسكرية بأكملها لم تكن موجودة على خرائطهم العسكرية، وتتألف من دزينة من المباني، وقد بدت وكأنها مركز رئيس للتدريب على مقاومة الطائرات، وإذا حكمنا على البيض نصف المطبوخ الذي عثر عليه في الموقد يتبين لدينا أن الجنود قد تركوا المكان مع أول إطلاق للنار، لكن الفصيل الأول لم يكن لديه الوقت الكافي للتحقيق، فقد سقطت قذيفة هاون معادية على قمة التل حيث خرج عشرات المقاتلين من قرية حديثة إلى الجنوب واحتلوا مواقع جاهزة ليبدؤوا إطلاق النار على قوة الرينجرز، وردا على ذلك قام الفصيل الأول باستخدام المركبات الأرضية للتحرك واستخدام المدافع الرشاشة الثقيلة وقاذفات القنابل من طراز مارك عيار 40 ملم لإبقاء رؤوس المقاتلين العراقيين منخفضة، فيما تم استدعاء الدعم الجوي من طائرتين من طراز AH ـ 6 حيث أمطرت طائرتا ليتل بيرد العراقيين بالمدفع الرشاش والصواريخ وتم تدمير موقع الهاون وقتل عدد غير معروف من المقاتلين العراقيين وإشعال خط أنابيب الغاز الطبيعي الذي استمر بالاشتعال لعدة أيام.

وكما حصل في المهمة الأولى «أفغانستان» اشتبك طيارو

طائرات الليتل بيرد مع العدو من قمرة القيادة ببنادقهم من طرازM4 فبعد نصف ساعة من اشتباك قاتل تمكنت طائرات AHـ 6 ونيران الرينجرز من كسر الهجوم العراقي المضاد مع ارتفاع الشمس.

مع الاعتقاد بأن طائرات الـ«ليتل بيرد» قد تَولت العناية بمواقع الهاون فوجئ الفصيل الأول مرة أخرى بقذائف هاون تطلق عليهم مجددا بعد قليل حيث لاحظوا نفث الدخان الأبيض من جزيرة صغيرة تبعد حوالي 2000 متر في البحيرة الضخمة شمال السد، وقد أنهى صاروخ واحد مضاد للدبابات ذلك التهديد.

في تلك الليلة أنهت قوة الرينجر تطهير جناح المكاتب على الجانب الشرقي للسد، لكن في فجر يوم الثاني من نيسان اضطروا لصدّ هجوم قامت به مجموعات تتكون من دزينة من الرجال في كل منها، واستأنفت الهاونات العراقية مضايقتها لقوات الرينجرز إلى جانب أول 350 طلقة مدفعية ثقيلة ستتحملها قوات الرينجرز خلال الأيام التي ستلي ذلك.

في وقت لاحق من تلك الليلة استخدمت القوات العراقية المساحة الميتة وقذائف آر بي جي لتثبيت الفصيل الثاني قبل أن تأتي طائرة هجومية من طراز A10 مرة أخرى لمساعدة الرينجرز مع اثنين من القنابل زنة 1000 رطل لكل منها، وبلغت نيران المدفعية الثقيلة العراقية ذروتها يوم 3 نيسان، حيث أصيب بوابل النيران أحد متخصصي الرينجرز والذي تم إخلاؤه إلى قاعدة H1 بطائرة شينوك

تابعة لفريق المهام البني والتي هبطت على السد لأخذه في خضم القصف، وقد كان واحد من أربعة عناصر من الرينجرز أصيبوا اثناء المعركة، لكن الفترة الأسوأ من القتال على سد حديثة قد انتهت.

لقد وصل فريق الدبابات يوم 6 نيسان لتحقيق النصر مما مكّن قوة الرينجرز من تحويل انتباهها للتأكد من استمرار السد في العمل، ولم يقتل أيٌّ من أفراد الرينجرز في معركة السد، لكنْ زملاؤهم المصاحبون كانوا أقل حظا، فقد كانوا يسيطرون على نقطة تفتيش على بعد 11 ميلا إلى الجنوب الغربي، وفي يوم 3 نيسان قاد رجل سيارته إلى حاجز نقطة التفتيش، وخرجت امرأة حامل من السيارة صارخة إنها بحاجة إلى المساعدة، لكن الأمر كان خدعة، فحينما تقدم عدد من قوات الرينجرز نحو السيارة انفجرت عليهم مما أسفر عن مقتل الكابتن روس ربيتو وضابط الدعم الناري والرقيب نينو لينفوس قائد المجموعة والمتخصص رايان لونغ وأصيب اثنان آخران بجروح خطيرة، وتوفيت المرأة والسائق مما جعل الهجوم من أول التفجيرات الانتحارية في حرب العراق.

في تلك الأثناء وبعد أسبوع منذ إلغاء مهمة مطار بغداد، كان دايلي يسعى جاهدا بحثا عن مهام جديدة لفرقة عمله وقد احتفظ باهتمامه بالمهمات التكتيكية والتي كان يعتقد أن لها تأثيرا عرضيا على إرادة العدو للقتال.

لكن وكما هو الحال في المراحل الأولى من الحرب الأفغانية،

فقد أدّى ذلك إلى أن يأمر بالهجوم على أهداف فارغة، لكي يمكن تصوير تلك الغارات لأغراض دعائية، وكانت مهمة كهذي قد خطط لها ليل الثاني من نيسان عندما نوى دايلي إطلاق هجوم الفريق الذهبي الجوي ضد قصر غير مأهول يعود لصدام حسين، لكن هذه المرة ظهرت أولوياته في مثل هذه المهمات في أسوأ ضوء ممكن.

في الوقت الذي كانت فيه فرقة العمل الخضراء تقوم بالمناورة شمال حديثة فقد جذبت انتباه حوالي 100 عنصر من الفدائيين الذين تصرفوا كفريق رد سريع لقوات النظام في مناطق تكريت وبيجي، ففي الثاني من نيسان وحينما هبط الفريق الأخضر للقوات في موقع مخبأ محاط بكثبان الرمل هاجمهم الفدائيون، وكانوا يقودون باتجاه قوة كولتروب الصغيرة بسيارات ذات دفع رباعي وشاحنات صغيرة تدعمها قذائف الهاون، وقد تمكن مشغلو الدلتا من تدمير أول سيارتين بصواريخ جوفيلان «الرمح»، ثم قاموا بالاحتماء وراء التلال، بينما استدعى الفدائيون التعزيزات وحدثت معركة شرسة أسفرت عن إصابة اثنين من مشغلي قوة الدلتا، أحدهم أصيب برصاصة كسرت فكه، بينما أصيب الثاني وهو العريف اندي فرنانديز الذي كان قد انضم حديثا إلى قوة الدلتا في تشرين الثاني بإصابة تحت درعه.

لقد أصيب فرناديز بإصابات خطيرة ونزف بشدة مما دعا كولتروب إلى استدعاء طائرة الإسعاف من عرعر بشكل عاجل.

مرة أخرى وفي مركز قيادة العمليات المشتركة المليئة بأجهزة الاتصال وشاشات البلازما كان بلابر وقائد قوة الدلتا المقدم ايغي بالديراس على اتصال مستمر مع قائد السرب سي، وكانت فرقة العمل البنية تمتلك طائرة هليكوبتر من طراز شينوك في حالة إنذار والاستعداد للطيران في مهمة.

لقد طلب بالديراس منهم إجراء الطيران، ولم يكن حقا قد طلب منهم المساعدة، فيما قال مصدر في الدلتا إن «الطيارين كانوا يتوسلون للطيران، فقد كانوا يعرفون أن شخصا ما سيموت، لكن لوائح الطاقم 160 الصارمة تعني أنه إذا طارت طائرة الشينوك فيعني أنها سوف لن تكون متوفرة في الغارة الليلية، لذا لم يسمح لهم دايلي بالطيران لمساعدة العريف الجريح فرنانديز.

بدلا عن ذلك ونتيجة للإحباط الشديد لرجال الدلتا عملت الطواقم الأخرى بعد ذلك على الاستيقاظ بعد مدة ثلاث ساعات نوم فقط وتم تهيئة طائرات الهليكوبتر الأخرى للمهمة.

كثيرا ما يصف الجيش الأمريكي أول 60 دقيقة بعد إصابة الجندي بجروح خطيرة بالساعة الذهبية، بمعنى أنه إذا تمكن الجيش من رعاية الجندي من الصدمة خلال تلك الفترة فإن فرصته في البقاء على قيد الحياة تتحسن كثيرا، وقد استغرق الأمر من طاقم الطائرة الاحتياطي 45 دقيقة قبل أن يقلع أخيرا من عرعر وشملت عملية الإقلاع اثنتين من طائرات الهليكوبتر من طراز بلاك هوك لمهمة العناية الطبية

وطائرتين اثنتين بشكل مباشر لحمايتها، ودفع الطيارون بطائرتهم نحو السرعة القصوى، وقد كانت معظم رحلتهم التي استغرقت 90 دقيقة على ارتفاع 50 قدما فوق الصحراء، وعندما وصلوا إلى موقع فرقة العمل الخضراء فوجئ الطيارون برؤية مشغلي الدلتا بوضع دفاعي يتحصنون خلف التلال، وقضى الطيارون الخمس وخمسين دقيقة التالية بقصف الفدائيين بأسلحتهم وصواريخهم.

بعد وقت قصير من قدوم المروحيات شوهدت طائرتا A10 على الميدان وأطلقت إحداهن قنبلة من زنة 500 رطل على مجموعة من الفدائيين في الوادي، وبحلول الوقت الذي بدأت فيه كميات الوقود تقل في طائرات الهليكوبتر غادرت المكان بعد أن تم قتل جميع الفدائيين تقريبا.

لقد هبطت الطائرات بالقرب من مشغلي الدلتا قدر الإمكان، لكن كولترب طلب منهم تغيير موقع طائراتهم في موضع هبوط أكثر أمانا، وحالما قاموا بذلك بدأ المشغلون بإخلاء خسائرهم، وتم إخلاء عنصر الدلتا المصاب في وجهه في طائرة هليكوبتر، لكن الطواقم شعرت بالجزع لرؤية المشغلين يحملون نقالة أخرى عليها جثة مغطاة بالعلم الأمريكي، فقد نزف العنصر فرنانديز حتى الموت، وكان أول مشغل من الدلتا يقتل منذ أحداث مقديشو.

في تلك الليلة قامت طائرات الهليكوبتر من طراز بلاك هوك والتي احتفظ بها دايلي في عرعر القيام بغارة لأغراض التصوير على

قصر فارغ لصدام، وتم نقل الشريط إلى وحدة العمليات النفسية في الكويت ولم يتم استخدامه مطلقا.

في مدى عدة أيام في الأسبوع الأول من نيسان، وسع بلابر فرقة العمل المكتملة في منطقة غريزلي وهو مكان مثالي لمجموعة من المتسللين العاملين خلف خطوط العدو، والمكان كان مجموعة من المباني الحديثة في قاعدة من الوادي العميق وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار من الطريق السريع الذي يربط بين حديثة وبيجي، وكانت منشأة لاختبار مجموعة من الأسلحة السرية للنظام العراقي قبل الغزو، وقد قام المشغلون بواجباتهم وعرفوا من الاتصالات العراقية بأن الموقع يعتبر منطقة محظورة، وهو ما جعله مثاليا بالنسبة لهم، فيما قال أحد مصادر الدلتا إن «العراقيين عادة لا يذهبون إلى ذلك المكان».

القوات التي تجمعت في غريزلي ضمت أسراب بي وسي من الدلتا والكتيبة الأولى من الرينجرز وفريق الدبابات وزوج من طائرات الهليكوبتر AH ـ 6 وطائرات MH ـ 6 ليتل بيرد، وبمجرد خروج بلابر من طائرة سرب ايكو التي هبطت على الطريق في منتصف الليل تسلم المسؤولية الشخصية عن الفوج ومنحه اسما جديدا مستعارا من اسم عصابة من المراهقين قاتلت ضد الجيش السوفيتي الغازي في فيلم ريد داون وهو فرقة العمل ولفيرين.

كانت فرقة ولفيرين تستريح خلال النهار وتقوم ليلا بطلعات

الاستطلاع والمضايقة والتدمير ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حينما وصل بلابر، لكنهم تعرضوا لحدثين حزينين خلال هجوم ناجح على مطار كي 2 الضخم بالقرب من بيجي في ليلة 8 ـ 9 من نيسان، ففي منتصف الهجوم انفصلت مركبة همفي استطلاعية لقوات الرينجر لتصبح أمام دبابة دون سابق إنذار، وقد أخطأ طاقم الدبابة تحت النيران ظنا أن عربة الهمفي عدوة، فدمرها بطلقة مدفعية من عيار 120 ملم، مما أسفر عن مقتل الوحدة القتالية في العربة، وكان من ضمنهم العريف سكوت ساثر وهو أول رجل من القوة الجوية يقتل في حرب العراق.

بعد ذلك بوقت قصير كان سيلين قائد فريق الدبابات يناور في حقل من القمح لدعم الهجوم، لكن دبابته سقطت في حفرة عمقها40 قدما، حيث انقلبت أثناء سقوطها لتهبط على برجها، وقد أصيب الطاقم المكون من أربعة افراد وفقد معبئ القذائف يده وبقي الطاقم في محنة، حيث أغلقت الأرض الرملية كل طريق للخروج من الدبابة، وبينما كان سيلين والرامي يقدمان الإسعافات الأولية للمعبئ كان كريستوفر بيك يقوم بحفر الأرض بيده لفتح طريق عبر الرمال وظهر في نهاية المطاف للعلاج نحو فريق الجنود التابع للدبابات والذين وصلوا لحماية الموقع، وقد مرر سيلين والرامي المعبئ الجريح عبر النفق الذي حفره كريستوفر ثم استخدماه للخروج من الدبابة التي تم عدها من الخسائر.

أسبوع من الغزو الناجح شمال بغداد أعطى بلابر وكولتروب الثقة بأنهم يستطيعون إظهار قوة المهمة في ضواحي تكريت مُسقط رأس صدام حسين والمخلصين له وفي مساء الحادي عشر من نيسان جمع بلابر نحو 100 رجل في معسكر غريزلي حيث سيخرجون في تلك الليلة، وذكرهم أن مهمتهم ليست في الاستيلاء على الأراضي أو تدمير أهداف خاصة، بل إن الهدف هو خداع القوات العراقية في تكريت لكي يصدقوا أن تشكيلا من قوة مدرعة أمريكية تحيط بهم، ولم يكن لدى بلابر نية أن يجرّ إلى معركة في المدينة نفسها قائلا لهم «نريد الاقتراب من العدو إلى درجة يمكنهم فيها أن يرونا، لكننا لا نريد الاشتراك بشكل حاسم»، وفي كتابه المعنون «المهمة... الرجال وأنا» أضاف بالقول «اجعلوا ظهركم إلى الصحراء دائما».

لقد برزت قوة ولفرين من مخبأهم في ليلة باردة مظلمة دون قمر وهم يقودون مركباتهم عبر الصحراء حيث كانت عشرات السيارات من طراز(بينزغاروس) و(أس يو في)، وقد اقتربت من الخط السريع ذي الممرات الثمانية الذي يفصل تكريت عن الصحراء، وتسللت تحت الغطاء الضخم للتقاطع، وبعد إعطاء كلمة الرمز تحركت خمس دبابات أبرامز M1A1 من الفريق، والتي مازالت في العمل بعد عشرة أيام شاقة من الحرب في الصحراء، لتتقدم وتأخذ مواضعها على التقاطع الثماني الشكل الذي يطل على المدينة.

على مرأى من الدبابات كانت تكريت تنفجر بحياة غاضبة،

وكانت فوهات البنادق من كل العيارات تومض لتضيء الليل، وقد ردت قوة ولفرين، كان السلاح الرئيس للدبابات أقوى واكثر دقة من أي شيء يمكن أن يلقيه عليهم العراقيون، لكن كان هناك الكثير من الموالين لصدام في تكريت أكثر من قوة ولفرين المتروكة في العراق وحدها في التقاطع.

كانت قوة النيران العراقية تزداد بثبات، والتفّ أحد الاسلاك على إحدى دبابات سيلين، مما منعها من الحركة، وخرج خمسة عناصر من قوات الدلتا من مخبأهم واتجه كل واحد منهم إلى دبابة مختلفة للمساعدة في اختيار الأهداف، لقد كانت أعصاب الطاقم ثابتة وفي ما يتعلق بقضية الدبابة العالقة حاولوا فك الاسلاك.

من خلال رصد المعركة من معسكر غريزلي وجه بلابر قوة المهام البنية التي تبعد حوالي 100 ميلا بالتحرك إلى موقع كولترب، فيما أرسل قائد سرب C تقريرا يفيد بوجود حوالي 500 مسلح محملين بالأسلحة الثقيلة وقذائف آر بي جي، وذكر أنه يمكنه رؤية المخابئ من السطح والمواضع المحفورة للقتال في الشوارع المغلقة بالمتاريس، وبدا كما لو أن التكريتيين كانوا يتحدّون أن تجرؤ قوة ولفرين على القدوم ومقاتلهم على أرضهم.

لقد عرف كولتروب المخضرم من معارك مقديشو في الصومال ما الذي يمكن أن يحصل لقوات قيادة العمليات الخاصة المشتركة وانقطاعها في المناطق الحضرية، لذا أوصى بالانسحاب حالما

يمكن تخليص الدبابة العالقة بالأسلاك بحيث يمكن أن تتحرك، وقد وافق بلابر وطلب منه الانسحاب إلى معسكر غريزلي في أسرع وقت ممكن، لكن الجنرال دان دايلي قائد العمليات ظهر فجأة على الراديو، كان لايزال في عرعر، لكنه كان يراقب حركة الراديو لقوة ولفرين، مناديا «سلبي، سلبي، سلبي»، وكان النداء يسمعه كل فرد من قوة ولفرين بما فيهم أولئك الذين يقاتلون من أجل إنقاذ حياتهم في تلك اللحظات، مضيفا «لا يمكنكم الانسحاب من تلك المدينة، أريد منكم مواصلة التقدم نحو المدينة وتدمير العدو».

لقد تكهن بلابر لاحقا أن «دايلي أراد من قواته الاشتراك في «عملية الرعد» عبر تكريت مشابهة لتلك التي قام بها اللواء الثاني من فرقة المشاة الثالثة في بغداد قبل بضعة أيام.

بعد تذكير قائد قوات العمليات الخاصة المشتركة بأن قوة ولفرين كانت في مهمة «استعراض للقوة» وتكرار خطورة الوضع التي هي فيه بالفعل قال بلابر لدايلي إنه أمر بالفعل كولتروب بالانسحاب إلى الصحراء، لقد ظل بلابر قائد العمليات الخاصة صامتا بعد هذا النداء لكن بعد لحظات رنّ الهاتف المؤمّن عبر الأقمار الصناعية وكان الطرف الآخر جوزيف فوتل قائد فوج الرينجر ومساعد دايلي في القيادة في عرعر محاولا إقناع بلابر لتغيير رأيه، لكن بلابر كرر الحجج نفسها التي قدمها إلى دايلي وأغلق الهاتف.

وعاود فوتل الاتصال مرة أخرى، لكن هذه المرة مع تحذير يستند

بوضوح على معرفته بتفكير دايلي قائلا «إذا لم تقوموا بالتحرك عبر تلك المدينة فإن مستقبلك كقائد سيتأثر بذلك»، ولم يتحرك ممثل قوة الدلتا فقد قال لكولتروب «انسحب إلى الصحراء بحسب الأمر «لكن دايلي نادى بلابر مرة أخرى عبر الراديو غاضبا «ماذا قلت؟ يجب أن تستمع إليّ، لقد أخبرتك أنه... «عند هذه النقطة قطع بلابر اتصال دايلي وقام بفصل السماعة عن رأسه وقذف بها نحو الأرض ليخرج من قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

بعد تحرير الدبابة العالقة بالأسلاك أطاعت قوة ولفرين التي تخلصت أوامر بلابر وانحسبت إلى معسكر غريزلي دون أية إصابات.

قضت قوة ولفرين الأيام العشرة التالية في أجراء مجموعة متنوعة من المهام مثل البحث دون جدوى عن جثة سكوت سبايكر وهو طيار من البحرية الأمريكية أسقطت طائرته خلال حرب الخليج الثانية عام 1991 والتحقق من منشأة يشتبه في احتوائها على أسلحة الدمار الشامل والتي اتضح فيما بعد أنها حفرة لحرق النفايات، والقيام بسلسلة غارات حول بيجي، كما تمكنت فرقة العمل أيضا من القبض على خمسة عناصر من حراس صدام وعدد من وزراء الحكومة العراقية ورئيس أركان القوة الجوية العراقية بينما لم تفوّت الفرصة بنشر القصة الكاذبة بأنهم الحراس المتقدمون لهجوم متعدد المحاور من الغرب، وقد غدا انشغال دايلي بأسلحة الدمار

الشامل عاملا أينما مزت قوة ولفرين أو عناصر من قوة المهام 20 عبر المناطق الضخمة لتخزين الأسلحة التي تقع غالبا بالقرب من المطارات العسكرية العراقية.

ففي مطار H ـ 2 على سبيل المثال عثر على 88 مستودعا للطائرات مُلئت كل منها بصناديق الذخيرة من الأرض إلى السقف، وقال دايلي لقوة ولفرين «أحتاج فحصا دقيقا لكل مستودع منها للتأكد من عدم وجود أسلحة الدمار الشامل فيها»، وحينما تم سؤال دايلي «ماذا تعني بكلمة دقيق؟» أجاب «أريد فحص كل صندوق»، أجابه بلابر وهو يهز رأسه بامتعاض «حسنا، لك ذلك، فقد انتهينا منها للتو في الواقع».

وقال مصدر في قوات الدلتا إن «أولئك الجنرالات يستهلكون كلمة دقيق كما لو أن أسلحة الدمار الشامل ترقد بجوارنا، إن المنطق يقول إن ذلك خارج عقولكم السخيفة، فليس هناك من يخزن حاجاته المرغوبة ومجوهرات أسرته في مكان لا يستطيع السيطرة عليه».

إحدى المهمات التي لم يكن يبدي بها دايلي أي اهتمام هي تكليف شخص ما بحراسة تلك المستودعات، وحينما تحرك المشغلون تركوا خلفهم طائرة مسيرة للبقاء ومراقبة فيما إذا كان العدو يستخدم الموقع كمخبأ، لكن ما أظهرته الطائرة المسيرة بدلا عن ذلك هو إن العراقيين كانوا ينهبون المستودعات، فيما قال أحد

مصادر الدلتا «لقد بدا الأمر كما لو أن نملا يقوم بنزهة في سلة»، وحينما أخبر بلابر دايلي بذلك الأمر مع اقتراح أن تقوم فرقة المهام 20 باستعارة جنود من الفرقة المجوقلة 82 لحراس مواقع تخزين الأسلحة والذخيرة رفض الجنرال دايلي المقترح قائلا «هذا عمل يقوم به الجيش التقليدي وليس قوة المهام»، فرد بلابر «لكنهم ليسوا هنا ونحن الوحيدون المتواجدون هنا»، كان ذلك الكلام دون جدوى وقد تركت فرقة المهام 20 مستودعات الأسلحة مفتوحة على مصراعيها، وهو قرار عرض حياة آلاف الجنود الأمريكان إلى الخطر فيما بعد، فيما قال مصدر من قوة الدلتا إن «كل قذائف المدفعية التي تركت هناك انتهى بها المطاف أن تتحول إلى عبوات ناسفة» مشيرا إلى أن «القنابل المحلية الصنع التي استخدمها المتمردون في وقت لاحق لقتل وتشويه الجنود الأمريكان» كان مصدرها من ذلك المكان»، لقد كان تهديدا سيصبح مألوفا فيما بعد لقيادة العمليات الخاصة المشتركة.



الفصل الثاني

مجموعة أوراق اللعب

كان الوقت ليلا من يوم 18 حزيران عام 2003 وثلاث طائرات هليكوبتر تحلق بسرعة وعلى ارتفاع منخفض عبر الصحراء الغربية للعراق، وبعيدا عن الأنظار إلى الأمام كانت قافلة صغيرة من سيارات الدفع الرباعي تقود بسرعة فائقة في اتجاه الحدود السورية بالقرب من منطقة القائم الحدودية.

في مركز العمليات التابع لفرقة العمل20 في ضواحي بغداد كانت كل العيون تشاهد على الشاشة لقطات للقافلة والتي تبثها في الوقت الحقيقي طائرة بدون طيار تحلق هناك، وقد عرفت فرقة العمل أرقام هواتف شاغلي السيارات وأدت أنماط الاتصالات الهاتفية التي كانت تجريها السيارات إلى أن يعتقد نصف أفراد محللي الاستخبارات في فرقة العمل 20 أن صدام حسين يتواجد في إحدى تلك السيارات، وسرعان ما اتخذت تلك المعلومات طريقها إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الذي كان على خط هاتف آمن ومباشر مع قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

لقد كانت توجيهات رامسفيلد واضحة «أنتم سوف لن تسمحوا لصدام حسين أن يعبر الحدود السورية»، وعلى الرغم من أن فرقة العمل كانت تتبع قافلة السيارات عبر العراق، إلا أنها تأخرت في إطلاق المروحيات من مدينة الموصل الشمالية، في ذلك الوقت كانت طائرتان مروحيتان من طراز بلاك هوك وطائرة شينوك مليئة بمشغلي قوات الدلتا والرينجرز في مطاردة ساخنة في مكان ما أمامهم، فالرجل المطلوب الأول في العراق ربما يحاول الهروب، وكان في طائرة الشينوك الرائد كلايتون هيتماتشر قائد المهمة الجوية فضلا عن ضابط في الدلتا كان اسمه بريكتوب قائد القوة البرية، وكان طيارو فرقة المهمات البنية يندفعون بالمروحيات بأسرع ما يمكن، لكن هدفهم كان متقدما جدا عليهم وعبر الحدود السورية قبل أن تتمكن فرقة العمل من اعتقالهم.

أعطى رامسفيلد الأوامر لفرقة العمل باعتراض رتل السيارات في سوريا وفي مركز العمليات المشتركة، قام اللفتانت كولونيل جون كرستيان قائد فرقة العمل الجديدة بنقل أحداث موقع لقافلة السيارات إلى هيتماتشرو بريكتوب وتم الاتصال بهم.

على الرغم من أن الكثير من الموالين لصدام قد فروا إلى سوريا حيث يفترض المسؤولون الأمريكان أنهم يقومون بسحب التمرد السني في العراق بشكل مؤقت إلى سوريا، إلا أن رامسفيلد لم يفرض حتى ذلك الحين مهمة على سوريا جيث يمكن أن يكون شن غارة أمريكية على سوريا حادثا دوليا كبيرا.

حينما سال هيتماتشر وبركتوب اللفتانت كولونيل كريستان، هل تعرف هذه الشبكة في سوريا، أجاب «نعم أعرفها، وأنتم مخولون»، ومع بقاء رامسفيلد على الخط عبرت طائرات الهليكوبتر الثلاثة الحدود السورية.

بعد إسقاط نظام صدام حسين، وكان صدام نفسه لايزال طليقا، كانت غريزة دايلي تخبره أن يعود بقواته إلى الوطن بأسرع ما يمكن، ووصف أحد كبار موظفي قيادة العمليات المشتركة ما كان يدور في عقل القيادة العليا هكذا «نحن لسنا بحاجة الآن إلى البقاء بعد الآن، والهدف الرئيس هو العودة للوطن ومواصلة التدريب، فالحرب قد انتهت ولم يكن هناك أيٌّ من أسلحة الدمار الشامل موجودا، لكن كان لدى قيادة العمليات الخاصة المشتركة في البداية بعض الأعمال التي لم يتم الانتهاء منها.

لقد كان هناك الفلسطيني أبو العباس العقل المدبر لعملية خطف اكيلي لاورو عام 1985، لقد نجا من العدالة حينما أطلقت سراحه الحكومة الإيطالية، وقد استقر في نهاية المطاف في بغداد، حيث كان هناك محميا من قبل صدام حسين، وكان من هناك يدير جبهة التحرير الفلسطينية، في حين لايزال عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومع قيام القوات الأمريكية بتطويق بغداد، كان أبو العباس قد قام بعدة محاولات فاشلة للهروب إلى سوريا وبمجرد وصول الفرقة 20 أصبح أبو العباس هدفا ذا أولوية.

في صباح 14 نيسان من عام 2003 قامت الاستخبارات الأمريكية بتتبع أبي العباس إلى مزرعته التي تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة على مشارف جنوب بغداد، ومن حظيرة مطار بغداد قامت فرقة المهام 20 بالتخطيط بسرعة وإطلاق مهمة حركة كلاسيكية مباشرة، وتحركت السرية الثانية من الكتيبة الثانية لقوة الرينجرز في قافلة برية وقامت بعزل المزرعة التي يسكن فيها، وأغلقت جميع الطرق الممكنة للهرب أو التعزيز، فيما كانت طائرتا هليكوبتر من طراز بلاك هوك تقومان بتغطية القوات البرية فضلا عن أربع طائرات ليتل بيرد تحمل الفريق السادس الذهبي من المشغلين الذي قام باقتحام المجمع، لكنهم كانوا متأخرين جدا، لأن أبا العباس كان يقود سيارته الرانج روفر السوداء هاربا قبل بضع دقائق، وقد استجوب الفريق المهاجم الناس بشأن الهدف واستولوا على جواز سفر أحد الإرهابيين وبضعة أسلحة وانتظروا دون جدوى رجوعه قبل أن يعودوا إلى مطار بغداد بعد عدة ساعات، ولم يكن على عناصر فرقة المهام 20 أن تنتظر طويلا فرصة أخرى لإلقاء القبض على أبي العباس.

في نهاية النهار أشارت المعلومات الاستخبارية إلى تواجد أبي العباس في منطقة ساحة الفتح شرق بغداد فتحركت فرقة العمل مجددا، لكنها هذه المرة استعارت 24 عربة قتال برادلي مدرعة وأربعة ناقلات للمشاة من طراز M113 مدرعة من فرقة

المشاة الثالثة لنقل قوات الرينجر إلى موقع العزل وطائرتَي بلاك هوك وخمس طائرات أخرى من طرازM ـ H6 وحملت قوة الهجوم معها أسلاكا شائكة وغيرها من العوائق للوصول في وقت واحد مع الرتل الأرضي، وقامت سرية بي من قوة الرينجر بتطويق الهدف، فيما اجتاح فريق المشغلين السادس البناية ولم يجدو شيئا مثيرا للاهتمام، فيما قامت سرية أخرى من الكتيبة الأولى بإزالة الحواجز من الشارع المقابل واعتقلوا كل شخص وجدوه هناك وأوقف أحد المعتقلين على الفور وهو رجل يبلغ طوله ستة أقدام ووزنه 220 رطل بسبب سلوكه الخاص غير النظامي، وحينما رجع الفريق معه إلى شقته المريحة لتفتيشها عثروا على عدة جوازات سفر ومبلغ 35 ألف دولار نقدا، فتم التعرف عليه وعثرت قوة المهام على رجلها المطلوب.

على الرغم من أن دايلي كان يتمنى إعادة فرقة المهام إلى البلاد، لكن سلطة القيادة العليا كان لها رأي آخر، فبغض النظر عن ثمار العمليات البرية، بدأ الغزو يخلق جذورا للتمرد الإسلامي، ذلك إن إدارة بوش ركزت اهتمامها على تدمير بقايا حزب البعث التابع لصدام، وتم إلقاء القبض على أو قتل الشخصيات البارزة في نظامه التي مازالت طليقة، وهكذا أعلن بول بريمر الحاكم المدني للعراق ورئيس سلطة التحالف المؤقتة في يوم 16 أيار حل الجيش العراقي بقراره المرقم 2، وبينما كان العراق على حافة الفوضى كانت مهمة

قيادة العمليات الخاصة المشتركة تتركز على ملاحقة الشخصيات الـ55 ضمن أوراق اللعب والذين يمثلون أكبر 55 عضوا في النظام والتي تم توزيعها على القوات الأمريكية قبل الغزو.

ضمن تلك الأوراق كان التركيز الأساسي لفرقة المهام على ورقة الآس البستوني التي توجد عليها صورة صدام حسين نفسه، وقد أنشأت فرقة المهام 20 مركزها المشترك في قاعدة سابقة للحرس الجمهوري في مطار العاصمة الرئيس والذي يُدعَى الآن بمطار بغداد الدولي ويرمز له «باي اب»، وكان المجمع بحاجة جدا للتنظيف قبل أن تتحرك اليه فرقة المهام والذي حصلت بموجبه على لقبها.

كان دايلي واقفا مع بعض منتسبي قيادة العمليات الخاصة المشتركة في محطة المطار وهو يكرر مرارا تعبير «تلك المنطقة العسكرية المقرفة»، وهو التعبير الذي لقي فيما بعد انتشارا واسعا لدى فرقة المهام، وهكذا ولد معسكر ناما.

على الرغم من أنه لاتزال هناك مهمة إلقاء القبض على شخصيات أوراق اللعب، لكن دايلي مازال يسحب 80 بالمئة من قوة المهام خارج العراق، فقد رحلت إلى الوطن قوتَي سرب دلتا B وسرب C، وأخذ سرب آخر مكانهما فضلا عن العناصر الأساسية وهم معظم كتيبة الرينجر الثانية ومجموعة صغيرة من فرقة المهام البنية وموظفي قيادة العمليات المشتركة.

أبقت قوة الدلتا قوة الهجوم المركزية لفرقة المهام 20، لكن مع تحول في القيادة وعودة بلابر إلى الولايات المتحدة حل محله جون كرستيان الذي كان يقوم بقيادة فرقة الدعم القتالية التي تضم المقتحمين وبقية اختصاصي مكافحة الأسلحة النووية.

لقد كان كرستيان طويلا مع صوت عميق ومزدهر وذا شعر فضي، وهو ما منحه لقبه في قوة الدلتا وهو «عازف القيثارة»، وكان دوره إدارة قيادة فرقة العمليات الخاصة المشتركة على أساس يومي من معسكر ناما، لكن السرب A لم يكن مقره في المطار والذي كان بعيدا جدا عن مركز بغداد بل في فيلا كبيرة لحزب البعث في المنطقة الخضراء وهي جزء من وسط بغداد المجاور لنهر دجلة والذي اتخذ كمكان آمن لقوات التحالف والقادة العراقيين.

كان للسرب أيضا جنود في الموصل ومعسكر (باي اب) وعناصر قليلة في تكريت، لكن في مرحلة مبكرة من الاحتلال كانت قاعدة الدلتا الرئيسة في الفيلا وتم تسميتها باسم الإصابة الوحيدة لها منذ أحداث الحادي عشر من أيلول، وسميت البناية باسم موقع مهمة الدعم فرنانديز، وكانت تحتوي على بركة وصالة ألعاب رياضية ومساحة كافية بحيث إن كل فريق ينتشر في غرف النوم، فيما أبقت فرقة العمل البنية طائراتها وطواقمها على امتداد الإسفلت المحاذي لظهر البناية وانتقلت فرقة المهام الخاصة البريطانية «SAS» والتي كانت تعرف باسم فرقة المهام 14 إلى الفيلا المجاورة.

أدرك مشغلو فرقة المهام بسرعة أنهم يفتقدون شيئا حيويا لأي مطاردة وهي المعلومات الاستخبارية القابلة للتنفيذ من النوع الذي يمكن استخدامه لإطلاق مهمة على الفور، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية غير مستعدة للتمرد الناشئ والتي لايزال مسؤولون كبار في إدارة بوش ينسبونها إلى نظام صدام حسين.

يستذكر أحد مشغلي الدلتا بالقول «لم يكن هناك مركز للمعلومات حينما وصل السرب، وقد أصبح وظيفة خلية الدلتا في «باي اب» والتي يتم فرزها عبر اتصالات الوكالة وتحويلها إلى أهداف مقسمة بين فرقة العمل 20 وفريق القوات الخاصة البيضاء والجيش التقليدي»، مضيفا أن «جميع ضباط الأركان في قيادة العمليات الخاصة المشتركة يقولون إن المعلومات هي من تدفع العمليات، لكن ما حصل كان العكس، فلم يكن لدينا معلومات، لذا كانت العمليات هي التي تدفع المعلومات لأن ما كنا نجده عند الأهداف كنا نلتقطه ونستغله ونسحب تلك السلسلة وأحيانا نسحب السلسلة وليس هناك من شيء، وأحيانا يكشف عن شيء ومع مرور ذلك الوقت بدأت صورة المعلومات تتطور».

مع بدء قوات الدلتا تطوير شبكتها الخاصة من المصادر نما الاحتكاك بين المشغلين وضباط الوكالة، فطبقا لمشغلي الدلتا «كانوا أكثر راحة بكثير من نظرائهم في وكالة المخابرات المركزية مع انخفاض المخاطر المصاحبة للمهمات في بيئة عالية التهديد».

لقد استحوذت الدلتا على أسطول من السيارات المحلية لحملهم بشكل غير مثير للانتباه للقاء المصادر، أما وكالة الاستخبارات المركزية فكانت تذهب لالتقاط مصدر كنا نعمل عليه منذ فترة في ثلاث سيارات شيفرولية سوبر بان رباعية الدفع، فيما قال أحد المشغلين في الدلتا إن «المصدر كان ميتا في اليوم التالي، ولو لم تكن تلك السيارات الثلاث السوداء لم يكونوا ليفعلوا ذلك».

في الحادي عشر من حزيران استغلت قوة الرينجر ما كان بالنسبة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة فرصة نادرة، وهي خطة معركة ضد قوة كبيرة ومطمئنة لدى العدو، وقد حذرت وكالة المخابرات قوة المهام من وجود معسكر كبير لتدريب الإرهابيين بالقرب من منطقة راوه في محافظة الأنبار وعلى بعد ثلاثين ميلا من الحدود السورية.

كانت الفرقة المحمولة جوا 101 تستعد للهجوم على الموقع، بيد أن الاستخبارات أشارت إلى أن الإرهابيين كانوا يستعدون للقيام بهجوم كبير على قوات التحالف، وكانت الفرقة المحمولة جوا 101 بحاجة إلى المزيد من الوقت للتخطيط، لذا تم تسليم المهمة لفرقة المهام 20، وفي أقل من 24 ساعة كانت كتيبة الرينجر الثانية والفصيل B وفرقة المهام البنية بأسلحة طائرات الليتل بيرد أطلقت تحت جنح الظلام في فصيلين هجوما جويا على معسكر تدريب الإرهابيين، وكان الهدف يقع في الوادي العميق في الانبار،

في حين قادت قوة أخرى مسافة 175 ميلا من معسكر «باي اب» مركبات التنقل البري مع كتيبة صاروخية للوصول في وقت واحد مع الهجوم الجوي.

أطلقت الطائرات ستة قنابل جوية هجومية مشتركة من الذخيرة على الموقع، لكنّ المسلحين كان لديهم الكثير ليقاتلوا، كانت معركة شرسة استخدمت فيها القنابل اليدوية والأسلحة الأوتوماتيكية، وقامت طائرات AC ـ 130 وAH ـ 6 المهلكة بتقديم الدعم الناري لقوة الرينجر، فيما انجلى غبار المعركة عن مقتل 84 عنصرا من العدو، ولم يُقتل أيٌّ جندي أمريكي باستثناء جندي واحد فقد ساقه نتيجة قنبلة يدوية، كما أسقط المسلحون طائرة هليكوبتر أباتشي واحدة من طراز AH ـ 64، وقد وصلت قوة إغاثة من الفرقة 101 وأنقذت قوة الرينجر وطاقمها.

إلى جانب 2000 قاذفة آر بي جي و50 بندقية رشاشة من طراز آر بي كي وجدت قوة الرينجر 87 صاروخا من طراز SA ـ 7 سيرفستو للدفاع الجوي في الموقع، وكان الانتصار الذي حققته فرقة المهام البنية والخسائر الكبيرة التي تكبدها العدو شهادة على التدريب المثالي الذي كانت تقوم به قوة الرينجر وفرقة المهام البنية بشكل روتيني.

بعد أسبوع وجدت فرقة العمل نفسها في سباق إلى الحدود السورية ضد قافلة من السيارات يُعتقَد أنها تضم صدام حسين،

وقد فازت القافلة في ذلك السباق ودخلت الحدود السورية، لكن مع إعطاء رامسفيلد الموافقة عبرت طائرات الهليكوبتر الحدود وطاردتها لعدة أميال داخل الأراضي السورية، وفي ظل الحالة المربكة قام جنود الهيل بورن من قيادة العمليات الخاصة المشتركة تدعمهم طائرة حربية من طراز AC ـ 130 باعتراض المركبات، لكنهم دخلوا أيضا في معركة نارية مع حرس الحدود السوريين حيث أصيب عدد من الحراس بجروح.

لم يكن صدام حسين موجودا في القافلة بل بعض أقاربه، فيما قال مصدر كان يعقب المعركة في فرقة العمل 20 «أعتقد أنهم كانوا من أبناء عمومته»، كما قامت فرقة المهام أيضا بتنفيذ ضربة جوية على مجموعة من البيوت الزراعية على الجانب العراقي من الحدود مما أسفر عن مقتل شخص واحد وكانت امرأة حامل، وأصيبت شاحنة مما أدى إلى مقتل شخصين طبقا للمصور الصحفي باتريك اندرادي الذي كان مع الفوج المدرع الثالث والذي تم استدعاؤه للتعامل مع ما تركته فرقة المهام 20 من آثار بعد المعركة.

وقدر مصدر في قوة الدلتا أن عدد الإصابات بين السوريين يتراوح بين عشرة إلى 20 شخصا، فيما قال مصدر في قوة الدلتا «مع دخولنا الحدود السورية كان الجميع يدرك أننا في حركة للاتصال وبدأنا بإطلاق النار على أي شيء يتحرك».

تقارير أخرى غير مؤكدة قالت إن ما يصل إلى ثمانين سوريا

ماتوا فيما، قامت قوة المهام بنقل الجرحى السوريين إلى منشأة طبية أمريكية في العراق، حيث تم معالجتهم قبل إعادتهم إلى وطنهم.

في اليوم التالي قام الجنرال تومي فرانكس قائد القوات الأمريكية في العراق آنذاك بزيارة إلى بغداد وتفاعل مع الشجاعة النموذجية لفرقة المهام 20 بعد أن أطلعه المسؤولون على الحادث قائلا إنه «يمكن للسوريين عقد صفقة كبيرة على ذلك أو صفقة صغيرة وإذا أنجزوا صفقة كبيرة فسنريهم ما هي الصفقة الكبيرة»، وقد تمّ تقييد الاحتجاجات السورية من منظور قوة المهام، فيما قال مصدر في الدلتا «لقد تحرك الجميع، ولم يكن هناك أي شيء تقريبا».

أمضت قوة الدلتا ما تبقى من دورهم في مطاردة صدام حسين ولم يعثروا عليه، لكن في يوم 22 تموز حصلوا على فرصة القبض على ولديه عدي وقصي اللذين كان هاربين، فبعد عودتهما من سوريا وجدا ملجأ مؤقتا في الموصل في منزل أحد مؤيدي والدهما، لكن خوفه من وجود ثاني وثالث أكبر المطلوبين في العراق أو ربما أغرته المكافأة التي تبلغ 30 مليون دولار المقدمة من التحالف للإبلاغ عنهما، دعت مضيفهما إلى إبلاغ قوات التحالف أن الأخوين موجودان في منزله إلى جانب ابن قصي البالغ من العمر 14 عاما وأحد الحراس الشخصيين لهم، وقد أجّلت قوات الدلتا المهمة حتى اليوم التالي لتجميع المشغلين ومنعت القوات من الفرقة 101 في محاولة لتأكيد الأهداف بصريا.

في يوم 23 تموز 2003 ومع محاصرة المبنى في وضح النهار من كل الجهات أطلق قناص السرب والذي يلقب بـ«المعكرونة» النار على قصي من النافذة فقتله على الفور، ثم اقتحم فريق من ستة عسكريين من جنود فصيل A2 بصحبة الكلب الذي يعمل مع الجيش ويدعى إيفان المكان عبر المرآب في محاولة للهجوم عبر الدرج، لكن الحارس الشخصي المدرب جيدا للأخوين وهو على الأرجح من أفراد الحرس الجمهوري الخاص والذي كان يقوده قصي دفع المشغلين للتراجع من خلال قيامه بإطلاق النار من بندقية كلاشنكوف وإلقائه برمانة يدوية أدّت إلى جرح اثنين من المشغلين على الأقل وقتل الكلب الذي توقف لمهاجمة جثة قصي.

بعد انسحاب المشغلين أطلق الحارس الشخصي لعدي وقصي النار وجرح جنديا من الفرقة 101 من سرية المشاركة وكان يقف إلى جانب عربة الهمفي بشكل عرضي خارج المنزل، ومع ممانعة القيام بهجوم آخر طلب المشغلون بدلا عن ذلك من جنود الفرقة 101 بوضع المبنى تحت النيران بالأسلحة الثقيلة، فقامت طائرات الهليكوبتر OH ـ 58D الحربية من السرب الثاني للفرقة وفوج الفرسان 17 بإطلاق الصواريخ على المبنى، بينما كانت القوات البرية تهيئ عشرة صواريخ من طراز تاو وقد نجح وابل النيران، فحينما عندما عاد المشغلون من جنود A2 وجدوا عديا والحارس الشخصي لهما ميتين، وكان ابن قصي ما يزال حيا يحمل بندقية حتى أطلق المشغل النار عليه فأرداه قتيلا.

في أعقاب العملية أفادت التقارير أن قوات فرقة المهام أظهرت احتراما لجثة الكلب إيفان أكثر مما فعلت لجثتَي عدي وقصي، ونتيجة لفخرهم في زوال الأخوين قام مشغلو A2 بأخذ صورة جماعية كان فيها المصدر يحمل شيكا مزيفا بتوقيع جورج دبليو بوش، وقام رقيب السرب رئيس العرفاء غرينش بصنع قبعات لرجاله مطرزة بالقلوب والآسات، فقد كان عدي وقصي في موقع عالٍ في تسلسل بطاقات اللعب.

بعد أقل من شهر وفي يوم 17 آب ألقت قوة المهام القبض على علي حسن المجيد التكريتي المعروف باسم «علي الكيمياوي» وهو ابن عم صدام والمسؤول عن ضرب الأكراد بالسلاح الكيمياوي الذي انتفضوا في أعقاب حرب 1991، وكان تسلسله الملك السباتي في بطاقات اللعب وخامس أكبر مطلوب في العراق.

قال مصدر في قوة الدلتا «لقد كنا نتتبع صديقة علي كيمياوي، وكان لدينا إشارات استخبارية من خلال مصدر معلوماتي، ووجدنا أنها تقوم بتجميع جوازات سفر مزورة لعلي كيمياوي وبقية عائلته من أجل الذهاب إلى سوريا، لذلك قمنا بالقبض عليها أخيرا في إحدى الليالي وقلنا لها تقريبا «يا أنت، إما أن تخبرينا أين مكانه أو ترحلين إلى الأبد»، وقد أفصحت المرأة بسرعة عن مكان التكريتي، وكان في بناية طويلة من الشقق في مجمع سكني يبعد عدة عمارات عن سرب الدلتا في وسط بغداد، وقد انتظر المشغلون حتى الصباح

الباكر، ثم قاموا بكسر بابه ودخلوا الشقة بشكل صامت ووجدوا علي الكيمياوي نائما في السرير.

وأضاف «باستخدام فوهة بندقيته الهجومية من طراز M4 قام أحد المشغلين بإيقاظه فتح علي الكيمياوي عينيه ليرى الوهج الأخضر المنبعث من عدة مشغلين كانوا يلبسون النظارات الليلية وهم يحدقون في وجهه... من شدة خوفه «تبول علي كيماوي في ملابسه الداخلية على فراشه فوق السرير هناك».

مع عمل فرقة المهام التي كانت تشق طريقها نحو قائمة الـ55 المطلوبين من عناصر النظام السابق كان هناك عدو مختلف يؤجج حريق المعارك بعد أن تواصل مع السكان العراقيين السنة الذين كانوا يشعرون أنه تم إذلالهم من قبل الاحتلال الأجنبي وهو الإرهابي الأردني أبو مصعب الزرقاوي، فبعد يومين من إلقاء القبض على علي الكيمياوي قام انتحاري يقود سيارة مفخخة بمهاجمة فندق القناة في بغداد الذي يضم مقر عمل الأمم المتحدة في العراق، وأدّى الهجوم إلى مقتل ممثل الأمم المتحدة في العراق سيرجيو فييرا دي ميللو وما لا يقل عن 21 شخصا آخرين، فيما سبب هجوم آخر على الفندق في 22 أيلول انسحاب بعثة الأمم المتحدة كليا من البلاد.

الانتحاريان تم إرسالهما من قبل مشارك جديد في الصراع المسلح وهو الإرهابي الإسلامي الأردني أبو مصعب الزرقاوي،

ومع الفوضى المتنامية تم تعيين قائد جديد لقيادة العمليات الخاصة المشتركة، ففي السادس من تشرين الأول عام 2003 سلّم الجنرال ديل دايلي قيادة العمليات الخاصة المشتركة إلى الجنرال ستانلي ماكرستل في حفل لطيف في منشأة المظليين في مجمع قيادة العمليات الخاصة في قاعدة بوب الجوية.

في ضوء أحداث السنوات القليلة المقبلة فإن من المثير للاهتمام معرفة أن قيادة العمليات الخاصة المشتركة لم تكن الرغبة الأولى لدى الجنرال ماكرستل في تلك المرحلة من حياته المهنية، فقد كان يأمل في قيادة الفرقة المجوقلة 82 وكان يتساءل بصوت عالٍ عما إذا كان اختياره لقيادة العمليات الخاصة خيارا صحيحا، لكن ماكرستل وهو في سن الأربعين كان قد بنى سيرة مثيرة للإعجاب جعلته في وقت لاحق المرشح المثالي لقيادة ورئاسة المنظمة، فجولاته المتعددة في قوات الرينجر والتي بلغت ذروتها في عامين حينما تولى قيادة الفوج بين أعوام 1997 إلى 1999 مصحوبة بثلاث سنوات من العمل كموظف في مديرية العمليات الخاصة والتي تضمنت عمله خلال حرب الخليج عام 1991 علمته كيف تعمل قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

إن آخر تكليف له كنائب مدير العمليات الخاصة قد منحه رؤية ثاقبة في طرق العمل الداخلية على أعلى المستويات في وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)، لكن مع أن ماكرستل كان على دراية

واسعة فأن أحد العناصر المفقودة في سيرته الذاتية كما يعترف بذلك في مذكراته إنه» مهما كان طول الوقت الذي يقضى في وحدات العمليات الخاصة، فإن الكثير من أعضائها يرون دائما أن مقر قيادة العمليات كان يشكل عائقا ومساعدة على القدر نفسه».

بعد عدة أيام من تولي ماكرستل القيادة طار إلى معسكر تامبا في ولاية فلوريدا للقاء الجنرال جون أبي زيد الذي حلّ محل الجنرال تومي فرانكس كقائد للقيادة المركزية الأمريكية والجنرال دوغ براون الذي حلّ محل الجنرال هولاند في قيادة العمليات الخاصة المركزية.

الاجتماع مع أبي زيد انتج اتفاقيتين طلبهما ماكرستل ووافق عليها أبو زيد، الأولى هي أن يتعامل أبو زيد مع ماكرستل شخصيا في أيّ قضية تتعلق بقيادة العمليات الخاصة المشركة في منطقة القيادة المركزية حتى لو كان المساعد بدلا عن ماكرستل يدير العرض في العراق أو أفغانستان في ذلك الوقت، والأمر الثاني هو اتفاق ماكرستل مع أبي زيد على القيام بعملية كبيرة شرق أفغانستان، حيث أوردت القيادة المركزية تقارير تتحدث عن وجود كبار قيادي تنظيم القاعدة هناك.

في غضون ثلاثة أسابيع من تولي القيادة غادر ماكرستل في جولة للشرق لتوجيه عناصر قيادة العمليات الخاصة المشتركة في أفغانستان، وكانت القوات التي زارها هناك ضعيفة بسبب كثرة الالتزامات المستمرة من الحرب على الإرهاب.

حينما بدأت حملة الزرقاوي الإرهابية في العراق نهاية الصيف وجّه البنتاغون قوات الدلتا بضرورة الاستعداد للاضطلاع بدور أمني في السفارة الأمريكية في بغداد وهو ما حمّل الوحدة عبئا ثقيلا كما حدث تماما بتوفير حراس شخصيين لحامد كرزاي والذي أعاق وحدة Team 6 في أفغانستان، لذا دافعت قوة الدلتا بقوة عن موقفها، وقالت لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد إن عليه الاختيار بين أولوية قوته الخاصة في مكافحة الإرهاب التي تحمي السفارة وبين محاربة الإرهابيين في العراق، وسرعان ما توقفت المهمة، لكن الالتزام المستمر في العراق كان يجهد قيادة العمليات الخاصة المشتركة التي لديها فرق عمل بشرية في أفغانستان والعراق ومقر قوة تحت الطلب في الولايات المتحدة جاهزة للرد في مكافحة الإرهاب أو عمليات مكافحة الانتشار، فيما قال أحد ضباط العمليات الخاصة المتقاعدين حاليا «لقد تم استغلالنا»، مضيفا أنه «كان يتعين على قيادة العمليات الخاصة المشتركة أن تطلب المساعدة من خدمة مكونات العمليات الخاصة ومن قيادة القوة الجوية الخاصة وقيادة العمليات الخاصة في الجيش وقيادة عمليات البحرية الخاصة لسد احتياجاتها من القوى البشرية العاملة».

لقد تفاجأ ماكرستل بسبب عدم الحسم على أعلى المستويات في القيادة الأمريكية في العراق، ولذا ركّز على المشاكل المتعلقة في حدود صلاحياته من أجل إصلاح الأوضاع، فبعد زيارته إلى

الفريق المكوّن من 16 عنصرا في الموصل وخلية مماثلة له في تكريت أدرك ماكرستل أن فريقه المكون من 250 عنصر في العراق قد قسم إلى عناصر معزولة مع اتصالات قليلة فيما بينهم، ولم تكن هناك عمليات فعالة لتحويل الوثائق القيمة والأجهزة الرقمية التي تم الاستيلاء عليها في المهمات إلى معلومات استخبارية ليتم تدويرها مرة أخرى إلى عناصر الضربات لقوات الدلتا وفصائل الرينجر للقيام بمزيد من الغارات.

وكما لو كان هناك تأكيد على التهديد المتزايد على القوات الأمريكية فقد أُسقطت في 25 تشرين الأول عام 2003 طائرة هليكوبتر بواسطة سلاح آر بي جي للمتمردين خلال جولة لطائرتين من طراز بلاك هوك خلال عودة ماكرستل من الموصل إلى بغداد، وكان الجنرال قد ترك معظم قواته في بغداد، فيما كانت الطائرة التي أُسقطت فارغة إلا من طاقمها الذين نجوا كلهم.

خلال الأشهر الأولى بعد سقوط بغداد كانت قيادة العمليات الخاصة لديها دخول لطائرة مسيرة واحدة من طراز المفترس وحتى تلك الطائرة كان يقودها طيارون عادوا إلى الولايات المتحدة، لكن كبار ضباط الدلتا في البلاد بلابر أولا وكرستيان ثانيا، قد ادركا أن لديهما على الأقل حلا جزئيا لعدم وجود الاستخبارات الجوية من المراقبة والاستطلاع، وكان في متناول أيديهم، فطائرات من السرب((Eانت مجهزة بنظام كرة ويسكام الاستطلاعي، حيث

يستذكر أحد مصادر الدلتا بالقول «دعونا نحصل على كرات ويسكام هنا»، وفي العراق كان هذا يعتبر تقدما كبيرا، وقد حولت طائرات السرب(E) جهدها الرئيس في العراق ونشرت طائراتها الصغيرة الثابتة الجناحين، وهي طائرات من طراز بلاك هوك القياسية للجيش وطائرة واحدة على الأقل من طراز Mi 17 تم تثبيت نظام كرة ويسكام عليها كلها وغيرها من أجهزة الاستشعار المتطورة السرية، طائرة بلاك هوك من دون مسبار جو ـ جو للتزود بالوقود هي طائرة من طراز فريد، وقد وفرت نوعا من الغطاء الجوي في العراق، حيث كانت وحدات الطيران في الجيش تستعمل الكثير منها»، وقد أصبحت هذه الطائرة النموذج لسرب E مع علامة النداء «Birdseye» لكي تحلق لمدة ثمانِ ساعات في كل ليلة لتوفير الدعم لمهمات فرقة العمل.

لم توفر المروحيات المهمات النهارية، لأن المخاطرة برؤيتها وفضح المهمات كان كبيرا، لكنها كانت تطير حوالي الساعة الثامنة ليلا وعلى ارتفاع 10 آلاف قدم مما يجعلها غير مرئية ليلا، فيما قال طيار في العمليات الخاصة «كانوا شبه غائبين فأنت لا تستطيع حتى سماعهم».

لقد كان طيارو «Birdseye» يروون ما كانوا يشاهدون على أشرطة الفيديو الخاصة بهم والتي ينقلونها في الوقت نفسه لمركبات فرقة المهام على الأرض ومن ثمّ العودة إلى قيادة العمليات المشتركة،

وقد وقعت هذه المهمات على سرب E لسبب بسيط هو إن طواقمها هم الأشخاص الوحيدون الموثوق بهم من قبل مشغلي المهمات لأنهم يعرفون ما هي المعلومات التكتيكية التي يحتاجونها.

في خريف عام 2003 التصق فريق المهمات بجهدهم في مهمتهم المعينة في صيد عناصر النظام السابق، وكان العراق حولهم ينحدر نحو اضطرابات دموية.

بالنسبة لقوات الدلتا كان التركيز الرئيس على صدام حسين وبحلول شهر كانون الأول كان السرب بقيادة مارك ايروين احسوا أنهم قريبون من طريدتهم، فيما قال أحد المشغلين «لقد تلقينا الكثير من المعلومات الاستخبارية، وكنا نبحث في مهماتنا عن أي شخص حتى لو كان قريبا لصدام من بعيد، الأشخاص الذين كان يحبهم، زوجاتهم، دائرته المقربة وحتى طهاته، مضيفا «لقد كنا نمرّ عبر كل أولئك الأشخاص ونحن نعرف أننا على وشك الاقتراب أكثر».

في تشرين الثاني من عام 2003 انتقل ماكرستل إلى قاعدة باغرام في أفغانستان للإشراف على عملية «ضربة الشتاء»، وهي العملية التي وعد بها الجنرال جون أبي زيد، كانت ضربة الشتاء في بعض من جوانبها آخر عملية تم القيام بها تحت تأثير دايلي حيث قال أحد ضباط قوة الدلتا «لقد ذهبنا إلى هناك وأنشأنا تاج محل»، كما أن قوة المهام الأفغانية التي تقلصت إلى 200 عنصر فقط قد تم زيادتها

إلى عشرة أضعاف لكن العملية الضخمة قد منيت بالفشل فقوات ماكرستل من الرينجر وteam 6 قد اجتاحت محافظات نورستأن وكونار دون الإيقاع بأيٍّ من قادة العدو الكبار.

سرعان ما أدرك القائد الجديد لقيادة العمليات الخاصة المشتركة أن مثل هذه العمليات الكبيرة المخطط لها بدقة لم تكن الطريق إلى النصر، لذا بعد عودة ماكرستل إلى قاعدة بوب وبعد تسعة أيام من استبدال سرب كولتروب بسرب العراق تنفست فرقة المهام الصعداء حينما تمكنت من القبض على محمد إبراهيم عمر المسلط، وهو أحد المقربين من صدام حسين في بغداد.

في يوم الثاني من كانون الثاني وتحت الاستجواب المكثف، اعترف المسلط بمعلومات تفيد أن الديكتاتور المخلوع كان في مدينة الدور عبر نهر دجلة بالقرب من مسقط رأسه في تكريت، وفي اليوم التالي تحرك السرب C إلى شمال تكريت جالبين المسلط معهم وبحلول هذه المرحلة من الحرب وسعت قيادة العمليات الخاصة المشتركة لاستيعاب فريقين بدوام كامل مع نائب القائد وضباط من رتبة ثلاثة نجوم، حيث استطاعت قيادة العمليات المشتركة بالاحتفاظ بكل واحد منهم في أفغانستان والعراق وقاعدة بوب، وكان الأميرال بيل مكرفن هو نائب القائد الذي يدير العمليات المشتركة في العراق حيث اتصل بماكرستل من مركز العمليات في (باي اب) وأخبره أن فرقة المهام حصلت على معلومات استخبارية عن مكان وجود صدام.

في تلك الليلة ومع المعلومات الإضافية التي قدمها المسلط على مضض، قامت فرقة المهام بمهاجمة الهدف الذي يتكوّن من مزرعتين على الضفة الشرقية للنهر، وكان ماكرستل يشاهد العملية مع موظفي قيادة العمليات الخاصة المشتركة في وقتها الحقيقي عبر تغذية طائرة المفترس المسيرة على شاشة كبيرة في مقر قيادة العمليات المشتركة.

بعد اعتقال شقيقين هناك كان أحدهما الطاهي الشخصي لصدام، عرف المشغلون أنهم على وشك القبض على صدام، وفي إطار استجواب صارم في الموقع نفسه أشار المسلط إلى حصيرة ملقاة على الأرض خارج إحدى المزرعتين وبعد إزاحتها كشف مكان اختباء صدام، حيث كشفت القوات عن حفرة عنكبوتية يبلغ طولها ستة أقدام ظهر منها الديكتاتور بشعر أشعث ولحية طويلة وهو ينظر إلى المشغلين، وقد سأله احد المشغلين عبر المترجم عن هويته فأجاب «أنا صدام حسين، الرئيس المنتخب للعراق، وأنا على استعداد للتفاوض»، فرد عليه مشغل الدلتا أن «الرئيس بوش يرسل تحياته».

لم يتم إجراء أية مفاوضات، وقام جنود الفرقة بسحبه من الحفرة وفحصوا جسده بحثا عن الوشم الذي يؤكد شخصيته دون أن يبدي أية مقاومة من جانبه، حيث تم تقييده ووضعه في طائرة ليتل بيرد ليتم نقله إلى مجمع التحالف في تكريت، وبذا تكون ورقة آس البستوني قد تمّ وضعها في الحقيبة».

بالنسبة لمشغلي الدلتا تبع إلقاء القبض على صدام فترة من الهدوء النسبي، فيما قال أحد أعضاء الوحدة «لقد كنا في فترة ركود حرفيا في بغداد، نذهب إلى العشاء ونتناول الشاي في المقهى خارجا لمدة ستة أسابيع تقريبا»، لكن على المستويات العليا في مقر فرقة المهام وقيادة العمليات الخاصة المشتركة كانت هناك بالفعل شكوك لدينا في أن القاء القبض على صدام، باعتباره هدفا مهما لأسباب سياسية، لم يكن مفتاحا لإنهاء العنف في العراق.

في وقت مبكر من شهر تشرين الأول عام 2003 خلص سكوتي ميلر الذي يشغل حاليا نائب قائد الدلتا إلى أن العنف الجاري لا يمثل سكرات موت النظام السابق، لكنه تمرد جديد عنيف، وسرعان ما أصبح واضحا أنه بينما كان يتجذر العنف لدى السكان المدنيين السنة الذين يشعرون بالتهميش فإنه يتم تغذيته من الخارج أيضا، حيث لاحظ أفراد فرقة المهام أن هناك زيادة في أعداد المعتقلين الذين تم اعتقالهم باعتبارهم أهدافا، لم يكونوا من العراقيين بل مقاتلون إسلاميون أجانب كانوا يتدفقون إلى العراق عبر الحدود السورية.

في نهاية عام 2003 أنشأت قيادة العمليات الخاصة المشتركة لقواتها المتقدمة قاعدة في غرب العراق في جهود لتتبع هذا التدفق، وقام محللو فرقة المهام بتحليل المعلومات الاستخبارية بحسب

ما توفر لديهم من بيانات، ليبرز لهم على غير ما هو متوقع اسم أبي مصعب الزرقاوي القادم من عالم الإرهاب الإسلامي، وكان الزرقاوي البالغ من العمر 37 عاما يدير معسكرا لتدريب المسلحين في أفغانستان.

وهو يسعى لصنع اسم له في العراق ويدير جماعة إرهابية تدعى «جماعة التوحيد والجهاد».

في خريف عام 2003 عرف الرائد واين باريفوت، ضابط الاستخبارات في قوات الدلتا الزرقاوي باعتباره العدو الرئيس، وقبل نهاية العام أبلغ ماكرستل تقييمه بأنه لم يكن الزرقاوي فقط في العراق بل أن الأردن كان يبني شبكة إرهابية متمردة في العراق.

قام ماكرستل بجلب باريفوت معه إلى بغداد من الرياض في المملكة العربية السعودية لكي يوجز ما وجده لمدير المخابرات المركزية الأمريكية جورج تينت، وفي وقت لاحق تم إدراك أن التمرد الإسلامي قد تجذر في العراق، قد بدا وكأنه أمر مفروغ منه، لكن وفي الوقت الذي لم يتخلل كل هذا جميع مستويات قيادة العمليات الخاصة المشتركة في وقت واحد كما هو الحال مع باقي الجيش الأمريكي فإن الكثير من أعضاء فرقة المهام كانوا خاطئين منذ البداية بأن الحرب قد تمّ إشعالها من قبل التمرد الصدامي البعثي، وليس من قبل مجموعة الزرقاوي والتي

ستعرف قريبا باسم تنظيم القاعدة في العراق، حيث اعترف مصدر في قوة الذلتا بهذا قائلا «لقد اتضح حقا أنها القاعدة في العراق، وقد أخذ الأمر قليلا من الوقت لكي نعرف ذلك، لكن مع إدراكنا له بعد ذلك، كان قد بدأ».

الفصل الثالث

بناء الشبكة

كان الوقت ما يزال ليلا عندما سمع العريف دون هولنبو صوت الأذان يتردد من على منارة على بعد 300 متر شمالا، الصوت أقلق مشغل الدلتا فقال للرقيب دان بريغز ممرض الدلتا البالغ من العمر 28 عاما والذي كان راكعا بجانبه على زاوية الشارع شمال غرب الفلوجة «لن يكون هذا اليوم جيدا، فقد يصبح سيئا بسرعة».

في الساعة الرابعة صباحا في صباح ذلك اليوم، كان ستة من جنود الدلتا وحوالي أربعون عنصرا من مشاة البحرية من سرية E من الكتيبة الثانية في الفوج البحري الأول يتقدمون بهدوء سيرا على الأقدام مسافة 300 متر أمام خطوط التحالف.

شملت فرقة الدلتا هولنبو ورئيس العرفاء لاري بويفين الذي يقدم الدعم القتالي لعمليات القوات وكبير عمليات الاقتحام، يليه ثلاثة من سرب القناصة فضلا عن بريغز، فيما احتل قناص رابع بناية من الخلف كي يتمكن من خلالها مراقبة الدوريات ويحذر من أي تحرك في المستقبل.

كان هولنبو وبويفين هناك بناء على طلب من المارينز لتوفير قوة نيران إضافية من نوع معين وهي الصواريخ الحرارية من طراز AT4 المتوفرة في كل مكان لدى الجيش الأمريكي وتشكيلات مشاة البحرية، لكن الصواريخ الحرارية لدى قوة الدلتا ليست كتلك التي لدى الجيش، ولذا كانت مصدر حسد من قبل المارينز.

صواريخ AT4 التي تطلق من الكتف من القاذفة التي تستخدم لمرة واحدة تقوم بسرعة برفع الحرارة والضغط في أي مساحة مغلقة تطلق النار فيها، ولذا فإن استخدامها بشكل صحيح يجعلها مدمرة بشكل كبير.

قوات الدلتا كانت قد دربت قوات المارينز بالفعل على السلاح وزودتهم بسلسلة منها، لكن مشاة البحرية لم يكونوا يشعرون بالارتياح بعد في استخدام الصواريخ الحرارية لذا طلبوا من هولنبو وبويفين مرافقة الدورية في الفلوجة لتجربة إطلاق النار بأنفسهم، كان هولنبوا يقول «لم نشعر أن التدريب كافٍ ونظرا لمقدار فتك تلك الأسلحة أعتقد أن ذلك كان دعوة جيدة بالنسبة لنا».

بعد احتلالهم لمواقع ثابتة على حافة المدينة لعدة أيام، شعرت القوات الأمريكية بالقلق من أن يكون المتمردون قد اطّلعوا على «نقاطهم العمياء»، وهي المواقع التي يشنّ منها المسلحون هجماتهم دون أن تراهم خطوط التحالف.

ويستذكر هولنبو «كانت دورية الصباح الباكر جهدا لمزج ساحة

المعركة حتى يتمكن القناصة من تغيير ممراتهم، واذا لزم الأمر يمكننا وضع تلك الأسلحة الحرارية للاستخدام».

بينما كان هولنبو ينحني ويهمس لبريغز كان المارينز يقومون بتطهير واحتلال عدد من المنازل شمال وجنوب التقاطع، فقد دخلت قوات الدلتا إلى الجنوب واتخذت مواقعها على سطح شقة والتي يبلغ قياسها 10 في 15 مترا، وقد قام المارينز بالشيء نفسه في الجانب الشمالي وعلى بقية أسطح المنازل الأخرى.

كانت الجدران المنخفضة تحيط بالأسطح، وباستخدام المطارق الثقيلة أمضى الأمريكان ساعة قبل الفجر بحفر ثقوب في الحيطان لإنشاء مواقعهم القتالية، المارينز كانوا يتوقعون القتال ولم يخِب أملهم مع الضياء الأول، فقد ضربت قنبلة صاروخية البيت الجنوبي، وبعد دقائق قليلة انفتحت نيران الرشاشات عليهم وبينما كان هولنبو ينظر من خارج موقعه القتالي ضربت قذيفة ار بي جي على بعد بضعة أقدام في الأسفل، كانت الضربة قريبة بما فيه الكفاية، فقد شعر بالحرارة ورذاذ الحصى على وجهه.

يستذكر هولنبو «لحسن الحظ كان لديّ سدادة أذن واحدة وكنت مرتديا واقية العينين»، أسرع هولنبو بارتداء سدادة الأذن الثانية قائلا لبويفين «هيه، قم بمراقبة قطاعي وأنا سأنزل إلى الطابق السفلي لأرى من أين جاءنا ذلك الشيء»، ثم برز إلى الخارج زاحفا نحو الجدار لفحص البقعة التي خلفتها ضربة قاذفة آر بي جي على

المنزل، المشغل الخبير يمكن أن يعرف دخول الصاروخ من خلال الأثر الذي يتركه بمعنى المسافة التي انطلق منها وقد تتبع هولنبو عقليا الزاوية التي انطلق منها بقدر ما يستطيع أن يرى، ثم ركض عائدا إلى السطح للحصول على نظرة أبعد ليكتشف حفرة سوداء في بعض الأنقاض على بعد 300 متر معتبراً أنها الموضع الذي أُطلق منه قذيفة آر بي جي، ثم قام بإطلاق عدة قذائف M4 على الحفرة وأخبر المارينز المتقدم أن يلاحظ وأن يؤشر الحفرة باعتبارها هدفا محتملا للقذائف.

للساعة التالية أو نحو ذلك قام المتمردون باستطلاع المواقع الأمريكية وتبادلوا إطلاق النار أحيانا مع الأمريكان، لذا قرر قائد فريقَي قناصي الدلتا «جي أن» سحب رجاله إلى مواقع قنص أخرى حيث يمكنهم الاستفادة بشكل أفضل من مدى بنادقهم، وبعد التحدث مع هولنبو أرسل قائد السرية E الكابتن دوغ سيمبك عنصرين من المارينز إلى السطح لاستبدال القناصة وبين نفسه وبريغز وبويفين والعنصرين من المارينز حسب هولنبو إن هناك ما يكفي من الرجال على السطح لتغطية كل قطاعات إطلاق النيران وخاصة بوجود المارينز في المنزل الشمالي وقناصة الدلتا في الخلف.

في غضون دقيقتين بعد وصول عنصرَي مشاة البحرية إلى السطح، ازداد حجم نيران المتمردين بشكل مفاجئ مع انتشار كلمة مواقع

الأمريكان، حيث وصل أكثر من 300 مسلح في شاحنات للانضمام إلى المعركة، وتمّ إطلاق آلاف الإطلاقات وعشرات قذائف آر بي جي على جدران كلا المنزلين حيث «كان المتمردون يعتقدون أن هذا هو الغزو الكامل للفلوجة» كما يستذكر هولنبو، مضيفا «لقد كانوا يطلقون كل ما لديهم باتجاهنا، ومن خلال استخدامهم للأزقة والمواضع في البيوت المجاورة توغل المتمردون بما فيه الكفاية ليرموا بقنبلة يدوية على سطح البيت الشمالي مما أدّى إلى إصابة عدد من مشاة البحرية بجروح».

وتابع «لقد سمع بريغز صراخهم، ترك موضعه وقام بمصاحبة المراقب المتقدم بعبور الأرض الحرام بين بنايتين للمساعدة في علاج وإخلاء الجرحى معرّضا نفسه لنيران الأعداء ست مرات على الأقل».

لقد كان الموقف محفوفا بالمخاطر بالنسبة للأمريكان، فقد أصبح عدد المتمردين عشرة مقابل واحد، وكانوا يتحركون على طول جدران المبنيين في محاولة لتطويقهم، وكان ضجيجهم يتعالى بحيث يمكن سماعه.

الجنود الأمريكان بدؤوا بإطلاق النيران ورمي القنابل اليدوية على مهاجميهم، وعلى السطح الجنوبي كان هولنبوا وبويفين وعنصرا المارينز يقاتلون بشدة لوقف المتمردين - كانت مهمة صعبة - لأربعة رجال فقط، ثم سقطت قنبلة يدوية على السطح

وانفجرت مما أدّى إلى إصابة عنصرَي المارينز بجروح خطيرة، وقام أحد المارينز المصابين بالوقوف ووضع يده على وجهه، بينما كان الدم يسيل من أصابعه، «لقد كان يوما سيئا» كما يستذكر هولنبو، وخوفا على عنصر المارينز من تعريض نفسه لنيران العدو أسرع عنصر الدلتا بسحبه إلى فتحة الدرج قبل أن يعود إلى عنصر المارينز الثاني الجريح وهو ضابط صفّ لا يتذكر اسمه، كان ملقى على وجهه، وأشار بيده اليمنى في اتجاه ما كان يعتقد أن عددا من المارينز الصغار كانوا يسقطون «خذه أولا، خذه أولا»، قال لهولنبو الذي تعجب من شجاعة المارينز الخالية من الأنانية.

يستذكر هولنبو «لقد زحف ذلك الشاب تاركا خلفه خيطا من الدم، لذا عرفت أنه مصاب بشدة». فقلت له «لقد سحبته بالفعل» ثم قمت بفكّ حزامي وربطته بقدميه لأقوم بسحبه إلى مدخل الدرج».

مع بقاء بويفين الذي لايزال يغطي قطاعه كان هولنبوا يتنقل بين موضعه القتالي وموضع المارينز الجرحى الذي بقي شاغرا وهو يقوم بإطلاق صواريخ M4 ورمي القنابل اليدوية.

انفجرت قنبلة يدوية أخرى على السطح وأصابت شظاياها بويفين خلف أذنه وفي الجزء الخلفي من ذراعه، فصرح قائلا لهولنبو «دون، لقد أُصبت»، وكان يجلس في فتحة الدرج المفتوحة والمحاطة بثلاثة جدران من الاتجاهات الثلاثة فقام هولنبو بمعالجة بويفين بسرعة، حيث وصل إلى حقيبة زُوِّدت بها قوات الدلتا وتحتوي

على رمانات يدوية وقطع من اللاصق الطبي وبعض اللوازم وبعض الضمادات والشاش والقطع الخضراء، ووضع الشاش على جرحه خلف الأذن وطلب من بويفين أن يستدير باتجاهه قائلا «أنت تبدو حقا بحالة جيدة»، لقد كان يختبر رجل الاقتحام.

على الرغم من أن جرح بويفين كان سيئا، لكن هولنبو وصف في وقت لاحق بويفين بأنه كان حقا «شخصية قوية»، وقد كان الاثنان على وشك العودة للمعركة حينما لاحظا شيئا يشبه فأرة خضراء تتدحرج تحت بطانية كان يستخدمها المارينز لحماية أنفسهم من أشعة الشمس، فنظر كل واحد منها بوجه صاحبه وكأنهما عرفا ماهيتها صارخين بوقت واحد «قنبلة يدوية!!».

مع إلقاء القبض على صدام وانتهاء عملية «ضربة الشتاء»، عقد الجنرال جون أبي زيد في كانون الثاني مؤتمرا في قاعدة تامبا دعا فيه ممثلي المؤسسات الرئيسة التي تشترك في الحرب على القاعدة والتي تعمل عبر القيادة المركزية في العالم، وشمل الحضور الجنرال ماكرستل وقائد القيادة المركزية للعمليات الخاصة المركزية دوغ بروان ومساعده الأدميرال أريك اولسن ومدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت فضلا عن ممثلي الأمن القومي والقيادات المشتركة.

أعرب أبو زيد خلال الاجتماع عن اعتقاده بأن الولايات المتحدة فشلت في التركيز على بعض الأهداف في حملتها ضد

القاعدة، بالخصوص، في مطاردة قادة التنظيم الإرهابي، والتزم المسؤولون الذين يجلسون حول الطاولة بالعمل معا عن كثب وبأكبر قدر من الخيال.

لقد قرر ماكرستل أنه بالنسبة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة ولكي تتمكن من الوصول إلى كامل إمكانياتها فهي بحاجة إلى الاستفادة من نقاط القوة لدى المؤسسات الحكومية الأخرى، وخصوصا تلك التي تعمل في المجال الاستخباري، وقبل نهاية المؤتمر أعلن ماكرستل عزمه على إنشاء فرقة مشتركة بين الوكالات تدعى (JIATF) تضم ممثلين من أكبر عدد من وكالات الاستخبارات حيث يستطيع إقناع الموظفين لملئها، لقد كانت فكرة الفرقة المشتركة تعود إلى ماكرفن، لكن ماكرستل كان يرى إمكاناتها، وقد رأى بشكل صحيح أن يترك المحللون مقصوراتهم في ضواحي العاصمة واشنطن ووضعهم في الخيمة نفسها مع القوات القتالية على الجانب الآخر من العالم لتحويل البيانات الخام إلى معلومات استخبارية متحركة وهو أمر أسرع بكثير، وتخفف الروابط الضيقة التي غالبا ما تعرقل التعاون الحقيقي بين الكيانات الحكومية داخل الولايات المتحدة.

في غضون أسابيع أنشأ ماكرستل الفرقة المشتركة (JIATF) في الشرق ضمن مجمع قيادة العمليات الخاصة المشتركة في قاعدة باغرام بقيادة قائد سرب الدلتا السابق المقدم جون الكسندر، وكان

الغرض من الفريق هو النظر إلى ما وراء حدود أفغانستان في محاولة لرسم صورة دقيقة لشبكات العدو وحركة الأفراد المستهدفين داخل تلك الشبكات مع إيلاء اهتمام خاص لـبن لادن وأيمن الظواهري.

لم يكن كل شيء يسير بشكل جيد في البداية وخاصة فيما يتعلق بإقناع موظفي وكالة الاستخبارات المركزية بالانتشار، وفي الأيام الأولى في قاعدة باغرام فصل البوليس محللي الوكالة بشريط عن نظرائهم العسكريين، فيما لم يسمح المحللون العسكريون بتمرير الشريط، وبدأت قيادة الفرقة المشتركة بتخطيط شبكات الجهاديين عبر وسط آسيا والشرق الأوسط.

لقد أصبح من الواضح في العراق أن الحملة التي استهدفت عناصر النظام السابق قد أخذت مجراها، وقد ظهر عدو جديد أشدّ قدرة وخطورة من أيٍّ من أتباع صدام حسين وهو الأردني أبو مصعب الزرقاوي، وقد كتب ماكرستل في كانون الثاني من عام 2003 أن «الزرقاوي أصبح محور تركيزنا الرئيس».

كانت جماعة الزرقاوي قد رسخت نفسها في الفلوجة، وهي مدينة محافظة دينيا يبلغ عدد سكانها 285 ألف نسمة في قلب محافظة الأنبار السنية على بعد حوالي 30 ميلا غرب بغداد، وكانت المدينة من ضمن منطقة عمليات الفرقة 82 المحمولة جوا حتى آذار من عام 2004 حينما قامت فرقة المارينز الأولى بدعمها كقوة تقليدية مسؤولة عن المدينة، لكن الوحدة لم يكن لديها القوة العاملة للتغطية

على نشاط المتمردين في الفلوجة التي أصبحت منطقة معزولة عن قوات الولايات المتحدة.

كان السكان يلقون بالصخور على طائرات ليتل بيرد المروحية التي تحلق على علو منخفض في المهمات النهارية في منتصف شهر كانون الثاني، وفي شهر شباط كانت تستهدف المروحيات مقذوفات أكثر خطورة، وفي السادس والعشرين من شباط انطلق صاروخ أرض جو محمول على الكتف، وكاد يصيب طائرة ليتل بيرد جنوب الفلوجة، وبعد أيام قليلة وفي المنطقة نفسها أصاب صاروخ يعتقد أنه من طراز SA ـ 14 طائرة ليتل بيرد AH ـ 6 مما أدى إلى سقوطها وتدمير المروحية وإصابة الطيارين بجروح.

في ظل تنامي مرجل المشاعر المعادية للتحالف بدأت قوة المهام تركيز انتباهها منذ ربيع عام 2004، لقد كانت قوة المهام محظوظة في واحدة من أقدم المهمات في الفلوجة، ففي شباط كان ماكرستل بصحبة القوة الضاربة للدلتا في غارة ليلية على بيت يشتبه في أنه مكان آمن للزرقاوي في منطقة الحي العسكري الذي تسكنه الطبقة المتوسطة شمال شرق المدينة (وكانت لدى قائد العمليات الخاصة المشتركة عادة أن يذهب مع هذا النوع من الغارات، معتقدا أنها تعطيه شعورا أفضل بالحرب وتسمح له ببناء العلاقات والثقة المتبادلة مع قواته)، لكن الزرقاوي تملّص منهم قافزا إلى زقاق

مظلم من نافذة في الطابق الثاني في الوقت الذي كان فيه المشغلون يطبقون على المنزل.

لقد كان تاريخ قيادة العمليات المشتركة وهذه الوحدة سيختلف جدا لو أنهم استطاعوا القبض على الزرقاوي تلك الليلة في الفلوجة وقبل أن يحقق الإرهابي الأردني هدفه في إشعال حرب أهلية سنية- شيعية في العراق وجرها نحو الصدام لكن تم التخلي عن ذلك كما حصل في قرار عدم المضي في مهمة القاء القبض على ابن لادن عام 1999.

وكما كان الحال استمر المشغلون في شن غارات متكررة في الفلوجة والرمادي خلال شهر آذار في مطاردة للزرقاوي وقادته، وفي ليلة 24 آذار واجهوا مشكلة حينما نصب المتمردون كمينا لدورية الدلتا خارج المدينة وهو ما اضطر المشغلين إلى الاختباء وراء سياراتهم، وتبع ذلك اندلاع قتال، وكانت شراسته يمكن الحكم عليه بحقيقة أن المحاصرين تمكنوا من الفرار وأصيب جنديان قبل أن يتمكن المشغلون من الانسحاب.

بعد أقل من أسبوع جاء الحدث الذي حجّر كلمة «الفلوجة» في الوجدان الأمريكي، عندما أقدم المتمردون على نصب كمين لأربعة من موظفي شركة بلاك ووتر الأمنية حينما كانوا يقودون سيارتهم عبر المدينة، مما أسفر عن مقتل الموظفين الأربعة وتعليق جثث اثنين منهم على جسر عبر نهر الفرات.

لقد استدعت هذه الحادثة ما حدث في معركة مقديشو عام 1993 حينما قام الجنود الصوماليون بسحل جثث جنود فرقة المهام الساقطين في المعركة عبر الشوارع، وقد أدّت تداعيات هذه القصة إلى منع قائد قوات الدلتا الكولونيل بينيت ساكوليك من حضور مؤتمر القادة الذي استضافه ماكرستل في قاعدة باغرام في الأسبوع الأول من نيسان.

لقد حضر المؤتمر القادة ونوابهم وكبار مستشاري وحدات العمليات الخاصة المجندون فضلاً عن كبار ضباط الأركان وماكرستل، ومع كل قواته المنتشرة عبر أنحاء العالم كان ماكرستل يعقد هذه الاجتماعات بانتظام لكي يتفهم أولئك القادة المباشرون نياته، ولم يترك قائد العمليات المشتركة الخاصة أيّ شك في أنه غير راضٍ بمستوى معرفة قوة المهام بأعدائها قائلا «نحن في الأساس لا نفهم ما يجري خارج السلك».

كان ماكرستل يتنقل بين قواعد باغرام وبوب وبغداد في تلك الفترة، وقد طار مع فريقه إلى العاصمة العراقية في الخامس من نيسان، وقد وصل مع بدء قوات المارينز هجومها على الفلوجة لتخليصها من المتمردين، وقد أوصى الجنرال جيمس ماتيس (الذي يشغل حاليا منصب وزير الدفاع) والذي كان قائد الفرقة الأولى للمارينز في ذلك الوقت بالصبر بعد حادثة بلاك ووتر، لكن الغضب والرغبة في الانتقام تسري في الجسد السياسي

الأمريكي وهو ما دفع قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال ريكاردو سانشيز إلي أن يصدر أوامره إلى ماتيس بأن يبدأ الهجوم بناء على طلب من قائد فريق الدلتا في الفلوجة، ودخلت وحدة أو اثنتان من المشغلين مع فصائل البحرية إلى المدينة، وكان الهدف هو إضافة المزيد من الدهاء والفتك في القتال لعناصر البحرية، لكن مع تمتع عناصر المشغلين بتفوق في الاتصالات فيما بين بعضهم وقوة المهام التابعة للعمليات الخاصة المشتركة فقد كانوا قادرين على تقديم وعي ظرفي عالٍ لمقرهم الرئيس للأحداث في المعركة وبرؤيته الخاصة أصبح ماكرستل مولعا بهذا النوع من التقارير على مستوى الأحداث على الأرض لبقية الفترة التي قضاها في الحرب».

بدأت أربع كتائب من المارينز اجتياح الفلوجة، لكن القوى السياسية نفسها التي أمرت ماتيس بالهجوم على المدينة قبل أن يستعد لها تغيرت فجأة بعد أن ذكرت وسائل الإعلام العربية أن المراحل الأولى من الهجوم أدّت إلى مقتل المئات من المدنيين، وبناء على نصيحة رئيس سلطة التحالف المؤقتة آنذاك بول بريمر أمر الرئيس بوش بوقف الهجوم وأمر الجنرال أبا زيد بتسليمه إلى الجنرال ماتيس الذي تفاجأ من أمر التوقف وأدرك ماكرستل أنه لم يؤسس لارتباط كافٍ مع مقر ماتيس وسعى إلى تصحيح ذلك الإشراف عن طريق وضع ضباط ارتباط ليس فقط مع المارينز التي

يقودها ماتيس فحسب، بل مع العديد من مقرات الوحدات التقليدية بقدر ما يمكن.

الكثير من الوحدات النظامية كانت مترددة في قبول ممثلي العمليات الخاصة المشتركة، وقد استغرقت العملية ما يقرب من عام، فقد كان منهج ماكرستل في الدخول يعكس استراتيجيته مع الوكالات الحكومية الأخرى، فقد وضع 75 ضابط اتصال في واشنطن و100 آخرين في مكان آخر، بما فيهم رئيس اللجنة المشتركة مايرز ومدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينت وفي مقر القيادة المركزية أبا زيد وسفراء الولايات المتحدة في أفغانستان وباكستان، وقد اقتصرت الاتصالات على جولات استمرت لأربعة أشهر لمنعهم من فقدان الاتصال مع ساحة المعركة.

لقد توصل ماكرستل إلى استنتاجين، الأول إن قيادة العمليات الخاصة المشتركة كانت تواجه شبكات من الأعداء بأسماء مختلفة ليس فقط في العراق بل في العالم، لكنها ذات قيم وأهداف واتصالات شخصية مشتركة وفي كثير من الأحيان أناسا مشتركين بين الشبكات.

الاستنتاج الثاني إن ماكرستل قد أدرك أن الحصول على أية فرصة ضدّ شبكة القاعدة الإسلامية السنية يجب أن تواجه بتكوين شبكة خاصة بقيادة العمليات الخاصة المشتركة بالاستفادة من المعرفة والقوى العاملة، وأحيانا من السلطات القانونية المقيمة في أجزاء

أخرى من الجيش والحكومة الأمريكية، وقد غدت كلمة ماكرستل أن «الشبكة هي التي تهزم الشبكة» محور تركيزه.

لقد أدّى توقف المارينز في الفلوجة إلى انسحاب إلى ضواحي المدينة في نهاية شهر نيسان، وعلى الرغم من أن قوات الأمن المحلية التي أطلق عليها «لواء الفلوجة» قد حلت محلها، إلا أن الحقيقة أن جماعة الزرقاوي يسيطرون على المدينة.

❊❊❊

في السادس والعشرين من نيسان وقبل أيام قليلة من الانسحاب وجد هولنبو وبريغز وبوفين والمارينز المصاحبين لهم أنفسهم في معركة يائسة لتجنب اجتياحهم.

كانت مراقبة القنبلة اليدوية وهي تتدحرج تحت الغطاء، وقد انحدر بوفين الجريح تحت الدرج وانفجرت على زيمبك ومشغل الراديو، بينما كان لدى هولنبو ما يكفي من الوقت كي يختبئ خلف الدرج قبل انفجار القنبلة دون أن تتسبب بأذى له، لكنه لاحظ أنها ألقيت من المنطقة نفسها كما حدث مع الرمانتين السابقتين، لذا سحب رمانته اليدوية من الدرع الذي كان يرتديه ومشى باتجاه الجانب من السطح الذي أُلقيت من جهته القنبلة، ثم سحب مسمار الأمان منها وألقاها قائلا وهو يتذكر «لم أر قنبلة تأتي بعد ذلك من الاتجاه نفسه، لكنك لن تعرف إن كانت أصابت هدفا أم لا».

بعد ذلك قام بدورة على السطح وهو ينتقل من موضع إلى موضع

ليطلق إطلاقات مفردة ومتعددة من بندقيته M4 حينما لمح هدفا أو ما يشتبه بكونه موضعا للمتمردين، ثم عاد للتحقق من بوفين الذي كان يجلس على الدرج واضعا رأسه بين يديه فناداه هولنبو «لاري هل أنت بخير؟» فأجاب بوفين «نعم يا دون»، لكنه كان شاحبا، فقد خلع ملابسه الأصلية وكان ينزف بشدة، فقام هولنبو بتغطية الجرح بضماد كيرلكس جديد واعتنى به أكثر هذه المرة وشده بقوة حتى إن بوفين كان يشك أنه ربما سيؤدي إلى كسر جمجمته.

نزل بوفين إلى فناء مفتوح في الطابق الثاني، وبدأ يقاتل إلى جانب المارينز، وقد بقي هولنبو يقاتل وحده من على السطح ويتحول من موضع إلى موضع ويبقى في كل موضع وقتا كافيا ليضغط ويرمي واحدة من رماناته اليدوية الست عشرة التي كانت معه، وكانت معه أيضا 12 من القنابل من طراز M67 ذات الشظايا المنتظمة، بينما الأربع المتبقية هي قنابل حرارية من النوع التي ترمى في مكان مغلق للحصول على أفضل تأثير.

مع وجود المتمردين في المنازل المجاورة قام بوفين برمي القنابل الحرارية من نوافذهم وقال إن «زوج منهما أصابت أهدافها»، وقد تفادى الرصاص وقذائف آر بي جي، فقد كان المشغل الخبير بحاجة إلى كل الحِيَل لكي يبقي المتمردين على مسافة، وحينما وصلت عربة الهمفي لإخلاء الجرحى أطلق المتمردون باتجاهها النار من مدفع رشاش من نافذة منزل في الطابق العلوي على الجهة

الجنوبية وقد حدد هولنبو المكان من خلال الغازات المنبعثة منه فأطلق النار على الجدار بزاوية يمكن أن تصيب الشظايا الارتدادية منها النافذة فهدأ الرمي من السلاح».

ثم حول هولنبو انتباهه إلى منزل للمتمردين في الجهة الشمالية الشرقية وبدأ الرمي على البناية متخطيا الرصاص على الأسطح والجدران، بعد ساعة كان لدى هولنبو آخر مخزن للإطلاقات وآخر قنبلة حرارية، كانت أذناه ترنّان من الانفجارات المتعددة حوله، وامتلأ حلقه وخياشيمه بدخان بارود آر بي جي ومادة سي 4 المتفجرة، وجزمته تتخطى دماء زملائه عبر السطح المترب.

انفتحت النار من المدفع الرشاش ثانية، وكان هولنبو على وشك أن يسحب آخر قنبلة حرارية لديه حينما سمع صوت زيمبك كابتن المارينز وهو يناديه على السطح «هيه دون، لقد حان الوقت لنذهب»، فرد مشغل الدلتا «دعني أرمِ هذه أولا»، وهو يحمل القنبلة الحرارية وركع خلفه في منطقة قريبة جدا من الانفجار الخلفي لقاذفة هولنبو الذي تحرك قدما إلى الأمام، ثم أطلق النار فطار الصاروخ ليدخل من الحافة الداخلية لنافذة المدفع الرشاش وانفجر هناك «ليسكت المدفع بعدها»، كما قال هولنبو فيما بعد، لينسحب راضيا يتبع زيمبك ويدرك أن الجميع كان قد انسحب منذ فترة طويلة (أحد عشر جنديا من المارينز غادروا على نقالة)، لقد كان شخصا واحدا فقط يمثل فريق المشاة هو من منع المتمردين

من اقتحام المنزل الجنوبي قائلا «لم يكن يدور في خلدي أنني كنت أقاتل وحدي، وإنني سعيد أن أحدا ما كان يواجه كل ذلك».

لقد توفي في تلك المعركة عريف المارينز ارون اوستن البالغ من العمر 19 عاما، ومن أجل الدور الذي لعبه كلٌّ من هولنبو وبريغز تلقى الاثنان وسام الصليب المتميز في الخدمة، بينما حصل بويفن على نجمة فضية.

لقد أدى انسحاب المارينز والانهيار المتوقع لـ(لواء الفلوجة) المحلي إلى أن يعطي الزرقاوي إدارة المدينة من جديد بعد فترة وجيزة، وفي اجتماع عقد في أواخر شهر أيار في معسكر الفلوجة على حافة المدينة سمح الجنرال أبو زيد المنزعج لماكرستل أن يعرف بأنه يتوقع أن تقوم فرقة العمليات الخاصة التابعة له بأخذ زمام المبادرة بإعادة الضربة، فقال لماكرستل وهو يضرب الطاولة بقبضة يده «نحن بحاجة إلى ضرب بعض الأهداف»، لكن مع عدم وجود قوات للتحالف في الفلوجة اعتمدت قيادة العمليات الخاصة المشتركة على طائرات المفترس المسيرة لتتبع تحركات المتمردين، وحتى الآن كانت قوات العمليات الخاصة تتناوب عبر العراق كل 90 يوما.

من نيسان إلى حزيران عام 2004 كان سرب مارك اروين على نقطة كانت فيها فرقة المهام الخضراء بحاجة للمزيد من التغطية من قبل الطائرات المسيرة دون طيار، وقد اشترك قادة السرب في

التفكير فيما بينهم وخرجوا بنظام جديد، فقد وضعوا المشغلين من ذوي الخبرة إلى جانب محللي الاستخبارات لمراقبة تغدية الفيديو في الطائرات المَسيرة في وقتها الفعلي على مدار الساعة، فإذا ما تمكنت إحدى الطائرات من التقاط منظر مشتبه به يقوم المشغل بالاتصال بالطيار في الولايات المتحدة من أجل تتبع الهدف بلا توقف والاحتفاظ بملاحظات عن تحركاته، فيما قال مصدر في الدلتا «يجب علينا متابعة هؤلاء الرجال دائما، ذهبوا بصحبة رجلين إلى هذا المنزل، دخلوا في تلك السيارة، قاموا بتغيير السيارة في هذا الموقع ورسم كل ذلك على الخريطة، وفي نهاية وقت عمله يقوم المشغل بتسليم سجل الملاحظات إلى الذي يليه، كي تتمكن فرقة المهام من بناء صورة مفصلة عن نمط حياة المشتبه بهم.

طبقا للجنرال ماكرستل فإن هذا النظام الجديد من العمليات تعني أن المشغلين والمحللين يشعرون كما لو أنهم يملكون المهمة والتي بالمقابل تزيد من الفعالية على الأرض من خلال نقل قرار الاستهداف إلى المستويات الدنيا».

لم يكن هذا النظام يعمل بشكل مثالي بعد، فلم يكن هناك ما يكفي من الطائرات المسيرة لتتبع كل هدف، لكنها كانت البداية لما أطلقت عليه قيادة العمليات الخاصة المشتركة فيما بعد تسمية «العين التي لا ترمش»، وقد تم تنفيذ تلك التقنية الجديدة على الفور.

في منتصف حزيران وحينما كان المحلل الاستخباري لقوات

الدلتا يدرس تسجيلات الطائرة المسيرة لاحظ وجود شاحنة تغلق شارعا في الفلوجة، مما دفعة إلى أن يأمر الطائرة بالعودة إلى تلك البقعة، وقد شاهد رجالا يقومون بنقل أسلحة من أحد المنازل إلى شاحنتين، وقد انطلقت إحداها باتجاه الشرق فتتبعتها الطائرة المسيرة وقد اعترضها فريق المهام الأخضر بالقرب من بغداد وعثروا فيها على ما يكفي من بنادق كلاشنكوف وذخائر مرزومه وأجزاء قنابل يدوية وصواريخ وسترات من الذخيرة ومعدات طبية وإمدادات تكفي لمئات من المقاتلين، وقد اعتقل المشغلون رجلين كانا يقودان السيارة وصبيا يبلغ من العمر 13 عاما كان في الشاحنة، وتمّ جلبهم إلى موقع دعم المهمة فرنانديز وتمّ استجوابهما.

الصبي اعترف أنهم تناولوا الشاي مع الزرقاوي قبل فترة قريبة جدا، وأخبر المشغلين بالمكان، في الوقت ذاته عادت الطائرة المسيرة إلى المكان الأصلي للشارع المغلق، ومن المكان الذي بدأت فيه بمتابعة السيارات والشاحنات إلى المنزل في جنوب غرب الفلوجة حيث أخبر سائقو الشاحنة فريق المهام الأخضر، حيث تم نقل بقية مخبأ الأسلحة الذي تحركوا منه، وكان بعض المشغلين متأكدين من أن الزرقاوي كان هناك في واحدة من إحدى بنايتين كانوا يقومون بمراقبتها.

وقد قررت فرقة المهام أن تقصف المنزل الهدف «بيغ بن» في ليلة 18 حزيران، ومن ثم اقتحامه للحصول على أي معلومات

استخبارية من الحطام، وكان مشغلو الدلتا على وشك إطلاق النار حينما اتصل الجنرال جيم كوني قائد قوة المشاة البحرية الأولى ليخبر ماكرستل بشأن إمكانية حدوث إصابات بين المدنيين وهو ما يعني أنه لا يريد لقيادة العمليات الخاصة المشتركة أن تقوم بقصف المنزل ولا يريد لقوات الدلتا أن تقود مركبات بنادروس في المدينة، بعد المحادثة مع ماكرستل ألغى اروين المهمة، فهم غير مستعدين للمخاطرة بحشود من المتمردين ضد الرتل دون حماية المركبات المدرعة والقوة النارية.

بعد ذلك حصل ماكرستل على الإذن ربما من سانشيز أو أبي زيد لضرب الهدف «بيغ بن» بضربة جوية دقيقة، وبعد كل ذلك وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي دمرت الضربة الجوية البناية، ومن أجل ارتياح ماكرستل والذي كانت مصداقية فرقة المهام على المحكّ وبعد بضع ثوانٍ متوترة بدأ مخبأ الأسلحة بالانفجار وحقق صحة الهدف، فيما أسفر القصف عن مقتل ما يقرب من عشرين شخصا معظمهم من الإرهابيين التونسيين لكن الزرقاوي لم يكن بينهم.

كانت هناك نتيجة أخرى لم تنعكس بشكل جيد على فرقة المهام، فبعد يومين من العملية العسكرية وصل أحد سائقي الشاحنة الذين ألقي القبض عليهم من قبل فريق المهام الأخضر إلى معسكر ناما في معسكر الاعتقال، ووجد الفحص الطبي الروتيني

اشتباها بحصول حروق له، وكشَف التحقيق السريع أن أربعة من المشغلين وفي ذروة اندفاعهم لجعل أحد السائقين يتكلم قاموا بصعقه بجهاز تاسر، وقامت سلسلة القيادة في العمليات الخاصة بمعاقبة المشغلين الأربعة، حيث تم إبعاد اثنين منهم من قوات الدلتا لمدة عام، وقد غدا القرار فيما بعد بطرد أحدهم من القوات بشكل دائمي، بينما تلقى الاثنان الباقيان كتب توبيخ من ساكوليك، لكنهم بقوا في وحدة الدلتا حتى العام 2013.

في سيرته الذاتية كتب ماكرستل عن تلك الحادثة بأنها «كانت تصرفا فرديا وأنه لا هو ولا قادته أمروا بإساءة معاملة المعتقلين أبدا أو التسامح مع الذين قاموا بذلك الفعل»، غير أن آخرين في فرقة المهام وما حولها قالوا إن هذا التفسير كان يتصنع السذاجة وإن المشكلة كانت أكبر بكثير مما أشار إليها ماكرستل وإن المشغلين المعاقبين كانوا مجرد كبش فداء.

كانت الكثير من القصص الإخبارية والوثائق الصادرة بموجب قانون حرية المعلومات تقدم مصداقية للرأي الآنف الذكر، وقد ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في تقرير صدر في آذار من عام 2006 أن معاملة قوات الدلتا للمعتقلين كانت سيئة بما فيه الكفاية، ففي آب من عام 2006 منعت وكالة الاستخبارات المركزية موظفيها من معسكر ناما، وفي كانون الأول من عام 2003 أبرز العقيد المتقاعد في الجيش الأمريكي ستو هيرنغتون تجاوزات فرقة المهام التابعة

لقيادة العمليات الخاصة المشتركة التي دعيت فيما بعد بـ«فرقة المهام 121» في تقرير قدمه للجنرال باربارا فاست كبيرة ضباط الاستخبارات العسكرية في الجيش الأمريكي في العراق.

من أجل إعادة البحث في التقرير قام هرينغتون ومسؤولان آخران في الاستخبارات بجولة في مراكز الاعتقال الأمريكية في العراق لمدة أسبوع في أوائل شهر كانون الأول من عام 2003، وقال هرينغتون في تقريره إن «المعتقلين الذين ألقي عليهم القبض من قبل فرقة المهام 121 قد أظهروا جروحا سببت الحاجة إلى فحصهم طبيا بشكل شخصي، مع ملاحظة أن المعتقلين قد تعرضوا للضرب».

وخلص هرينغتون إلى أن يقول «يبدو أنه من الواضح أن فرقة المهام 121 بحاجة إلى توجيه فيما يتعلق بمعاملة المعتقلين»، وحينما سأل هرينغتون أثناء الاستجواب ضابطا مسؤولا في منشأة اعتقال عالية القيمة إن كان قد أخطر قادته بمخاوفه من أن يكون معتقلو فرقة المهام قد تعرضوا للضرب؟ «، ردّ الضابط ببساطة أن «الجميع كانوا على علم بذلك».

لقد كان جزءا من المشكلة قبل أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001 أن أفراد قيادة العمليات الخاصة قد تدربوا لفترة قصيرة بشكل نموذجي على العمليات ولم يكن الأفراد فيها متعودين أن يكون لهم سجناء، ناهيك عن مسؤوليتهم عن الضغط على المعلومات الاستخبارية منهم، وما زاد من تعقيد تلك الحالة حقيقة

أن قيادة العمليات الخاصة كانت مثل بقية الحكومة الأمريكية لديها القليل جدا من المحققين المدربين، ولا يوجد تقريبا أيٌّ منهم من يجيد اللغة العربية بطلاقة.

لقد استخدمت قيادة العمليات الخاصة شرنقتها السرية لحماية نفسها من سلسلة من التحقيقات المتعلقة بالسلوك العسكري الأمريكي العام فيما يتعلق بمعاملة المعتقلين، ومنع المحققون مرارا وتكرار الذين يسعون للوصول إلى معسكر ناما وغيرها من مرافق العمل التابعة لقيادة العمليات الخاصة، لكن بناء على طلب الجنرال ماكرستل قام مساعد قائد القوة الجوية لفرقة المهام العميد ديفيد سكوت بإجراء مراجعة سرية للإجراءات المتخذة في معسكر ناما أدّت نتيجتها إلى فرض عقوبات إدارية على 40 من افراد قوة المهام وإنهاء مهام العقيد المسؤول عن معسكر ناما في ذلك الوقت.

لقد ركزت وسائل الإعلام على معسكر ناما، لكن إساءة معاملة المعتقلين كانت أيضا تحدث في المرافق الصغيرة التابعة للمعسكر حيث يقوم أفراد العمليات الخاصة باحتجاز المعتقلين بضعة أيام قبل إرسالهم إلى المعسكر الرئيس، وكما حصل في حادثة استخدام جهاز تاسر، كان في الواقع يحدث هذا الأمر أيضا في موقع فرنانديز لدعم المهمة في المنطقة الخضراء.

لقد كانت وظيفة موقع فرنانديز كمركز للعمليات والمقر الرئيس للمعيشة لأيّ سرب من قوات الدلتا التي يتم نشرها في العراق،

وكان يتكون من طابقين، كان الطابق العلوي يضم مركز العمليات وغرف النوم حيث إن كل فريق هجومي يتكون ما بين 6 إلى 8 أفراد ينامون في غرفة واحدة، أما الطابق السفلي فكان المشغلون يطلقون عليه تسمية المغاسل، فكان مقسما إلى غرف استجواب، وغرف تم تحويلها إلى معتقلات وقد بنيت خلال فترة وجود أول سرب في بغداد، فيما قال مصدر في قوة الدلتا إن «قياس كل غرفة كان 12 قدما في 12 قدما، وعلى طول الجدران قام المهندسون ببناء حوالي عشرين موقفا احتياطيا تمنع السجين من الاسترخاء الجسدي حتى إن الرجل لا يمكنه أن يجلس القرفصاء ولا يستطيع النوم وكل ما يستطيع هو الوقوف.

وقال مصدر آخر في الدلتا هذا الوصف إنه «وتحت ضغط سلسلة قياداتهم من أجل الحصول على المعلومات بشكل فوري من المعتقلين في المغاسل في الطابق السفلي، لجأ مشغلو الدلتا بشكل روتيني إلى الإساءة إليهم»، وطبقا لما قال المصدر الأول في الدلتا فإن «من النادر أن يكون قد تدرب المحققون وأفراد الاستخبارات، فنحن نتحدث إلى رجل الاستخبارات، ومن ثم يقدم لنا عشرين سؤالا لديه، لنذهب إلى الأسفل من أجل الحصول على الإجابات عليها من المعتقلين»، أما المصدر الثاني في الدلتا فقال إن «الفشل في الدفع باتجاه تدريب المحققين إلى أدنى المستويات كانت عاملا رئيسا وراء إساءة المعاملة»، مشددا على

أن «الدرس المستفاد من كل هذا هو أنه كان يتعين علينا أن يكون الرجالَ المناسبون هم من يفعلون ذلك وليس مشغلي الدلتا، لكننا بدلا عن ذلك تركنا المشغلين يفعلون ذلك، وبالتالي ترى رئيس عرفاء الكوماندوز وهو يقول احصل على هذا القرف السخيف الآن، وكان هناك الكثير من الذعر في السرب نتيجة لذلك»، مضيفا «لقد كان بإمكانهم أن يقولوا إن ذلك أمر غير قانوني ولا نستطيع القيام به وهو قول أسهل مما تمّ القيام به».

لقد دافع المصدر الأول في الدلتا عن الطرق الوحشية التي كانت قوات الدلتا تقوم بها والتي قال عنها إنها «شر لابد منه، وإنها لم تكن فقط حتمية كنتيجة للعواطف التي تنتجها المعركة في تلك الأماكن الضيقة بل كانت أيضا فعالة»، مضيفا أنه «لا يمكنك الخروج والقبض على أولئك الرجال الذين يطلقون النار على رفاقك وتتوقع منا أن نقوم بتقديم الشاي والكعك لهم»، مشددا على أن «القبض على صدام لم يتم بتقديم الكعك والشاي، بل ألقي القبض على صدام بجلد المؤخرة».

المحققون المدربون مثل هارينغتون كانوا حاسمين تجاه التصور الذي يقول إن التعسف ضد المعتقلين ينتج معلومات استخبارية أفضل من تلك التي يتم انتاجها من إعطاء المزيد من الصبر وبناء علاقة مع السجناء، ذلك إن الضغط لإحداث نتائج فورية يعني أنه لا يوجد هناك وقت لمثل هذه الأفكار.

يقول أحد مشغلي الدلتا «حينما يكون لديك عمل من أجل أن تخترق ذهن أحد ما فإن التكنيكك هو الأفضل، لكن حينما يكون لديك دقائق فقط من أجل إنقاذ حياة الأمريكيين فإن مثل هذه السخافات الكريهة لا تعمل هنا».

لقد كان المشغل مذعورا بشكل خاص بشأن ما يراه جهود سلسلة قياداته لإلقاء اللوم على التعسف تجاه المعتقلين على عدد قليل من الموظفين «المارقين» قائلا «هل تعرف كم كمية التدقيق التي تقع تحتها كمشغل في قوة الدلتا؟ أنت تعتقد أنك تستطيع بسهولة أن تغدو «مارقا»؟ هل تعتقد أنك يمكنك أن تقوم بعمل ما دون أمر؟ لقد كان التعسف تجاه المعتقلين يحدث في الطابق السفلي اللعين في المنزل الذي كنا نعيش فيه جميعا، لقد كان يحدث أسفل الدرج وتحت غرفة نوم القائد.. كل من كان هناك يعرف ماذا كان يجري بالضبط، وفي الواقع كان سكان الطابق العلوي يسمعون أحيانا صرخات تأتي من الطابق الأسفل».

وأضاف «أحيانا كنت أنزل الى الطابق السفلي وأقول للناس هناك، مهلا، ابقوا الأصوات اللعينة منخفضة، انا أحاول الاسترخاء فوق هناك».

مشغلو الدلتا الآخرين كانوا أخذوا القضية بقوة حينما لمحوا إلى أن ذلك السلوك كان موازيا لمسار الأحداث في الوحدة، حيث قال أحد المشغلين من ذوي الخبرة من قوات الدلتا في المراحل الأولى

من حرب العراق «أنت لم تفكر يوما أنك ستقوم يوما ما بضرب شخص ما أو القيام بتعذيبه جسديا، فلم يكن في أدبيات الوحدة شيء من هذا القبيل من قبل»، مشيرا إلى قضية أحد المشغلين الذي أجبر على الخروج من قوة الدلتا لأنه قام بركل أحد المشتبهين بهم بالقيام بجرائم حرب في البلقان بعد أن ألقى المشغلون عليه القبض وقاموا بسحبه من سيارته.

وقال مشغل آخر تم نشره بشكل متكرر في العراق بين أعوام 2003 إلى 2004 إن «عددا قليلا جدا من أفراد الوحدة أساؤوا معاملة المعتقلين، وقد قاموا بفعل ذلك دون أي إذن سواء كان ضمنيا أم غير ذلك من قبل الجهات العليا»، مضيفا «لم يكن أيٌّ من القادة الذين أعرفهم ولا أيٌّ واحد منهم، كما أعتقد، كان يسمح بذلك، فقد كان من قاموا بذلك عدد قليل، وأولئك الذين تمت معاقبتهم كانوا يستحقون ذلك».

لكن الوثائق والتقارير الصحفية والمقابلات مع أفراد العمليات الخاصة لا تدع مجالا للشك في أن أفراد قيادة العمليات الخاصة المشتركة كانوا متورطين في ارتكاب انتهاكات واسعة النطاق ضد المعتقلين خلال الـ13 شهرا الأولى من الاحتلال الأمريكي للعراق.

لقد كانت هذه الممارسات تحت الفحص الدقيق بسبب تحذيرات هارينغتون ووكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي وآخرين، وكانت في أيامها الأخيرة في ربيع

عام 2004 على أية حال، لكن في أواخر نيسان من العام نفسه احتلت إساءة الجنود التقليديين للمعتقلين المحتجزين في سجن أبي غريب العناوين الرئيسة مما نتج عنه تدقيق أكثر صرامة في معاملة كل القوات الأمريكية للسجناء، وكما وصفها مشغلو الدلتا فقد تغير موقف سلسلة قيادتهم على الفور، وشبّه أحد ضباط العمليات الخاصة ما حدث بـ«لعبة الكراسي الموسيقية» قائلا إن «المشغلين الذين عوقبوا بسبب حادثة جهاز تاسر للصعقة الكهربائية هم أولئك الذين بقوا واقفين حينما توقفت الموسيقى».

في منتصف صيف عام 2004 قام الجنرال ماكرستل بتغييرات ذهبت إلى حدّ ما نحو حل مشكلة معسكر ناما التابع له، فقد قام بنقل مقره الرئيس بأكمله إلى قاعدة بلد الجوية المترامية الأطراف على بعد ما يقرب من خمسين ميلا شمال بغداد وقام ببناء منشأة جديدة «نظيفة ومعقمة» للمعتقلين وقد وصفها بوضوح بأنها «أهم بناية تم إنشاؤها خلال هذه الخطوة»، لكن تلك المنشأة كانت محرمة على اللجنة الدولية للصليب الأحمر، فقد جعلها ماكرستل «شفافية داخلية «ضمن شبكته النامية من خلال السماح بزيارات مسيطر عليها بدقة من قبل الوكالات الشريكة، وفي بعض الأحيان ممثلو التحالف.

وسواء أكان التحرك نحو قاعدة بلد قد أحدث الفرق أو زاد من الحساسية إزاء التداعيات السياسية المحتملة الناجمة عن حوادث

إساءة معاملة المعتقلين، فإن التقارير عن تلك الانتهاكات قد انخفضت انخفاضا حادا بعد ن انتقلت فرقة المهام إلى الشمال.

لقد كانت هناك أسباب عملية ونفسية في نقل قيادة العمليات الخاصة المشتركة إلى بلد، فالحكومة العراقية كانت تسيطر على مطار بغداد، وبعد عشرة أشهر في قيادة العمليات تبلوز لدى ماكرستل مفهوم كيفية عمل قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وأراد أن يبدأ من سجل نظيف حينما يتم تحويل تلك الرؤية إلى واقع.

الفصل الرابع

تنشيط قيادة العمليات الخاصة المشتركة

في الوقت الذي كانت فيه عملية الانتقال إلى قاعدة بلد جارية، عقد الجنرال ماكرستل مؤتمرا للقادة في قاعدة فورت براغ في نهاية شهر تموز حضره ضباط الأركان في قيادة العمليات الخاصة المشتركة وقادة مكونات الوحدات، وكان المؤتمر فرصة بالنسبة لماكرستل لوضع الخطوط العريضة للاتجاه الذي ينوي قيادته، وكان ذلك الاتجاه يمضي بعيدا عن عمليات التخطيط الواسع بعناية والتي هيمنت لفترة طويلة على تفكير قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

بدلا عن ذلك كان ماكرستل يريد توسيع القابلية على الجانب الأيسر من سلسلة عمليات الاستعداد الواسعة النطاق على غرار عمليات أسلوب التمارين ذات النهاية الصحيحة، والقيام بمهمات سرية صغيرة بشكل تام على الجانب الآخر، فيما قال مصدر مطّلع على الاجتماع إن «ماكرستل أراد أن يعمل بشكل سري وسريع وأصغر حجما»، وقد عبر ماكرستل عن

تفضيله لمجاميع أصغر لمثل هذه المهمات ونماذج تمارين الاستعدادات المشتركة والتي يقوم فيها عناصر قيادة العمليات الخاصة المشتركة بالتدريب معا على مهام محددة، لكن دون مظلة ممارسة الاستعداد الجماعي الضخم.

وفي هذا السياق أعلن عن نيته في إعادة النظر في الدور الداخلي لجميع مستويات وحدات العمليات الخاصة، كما وضع قائد العمليات الخاصة المشتركة المرؤوسين في غير ما شكّ بشأن أين يقفون في الحرب الطويلة الجارية الآن قائلا إن «هذا هو التصور للجهد الرئيس في الحرب على الإرهاب».

لقد بنى ماكرستل في زاوية قاعدة بلد الجوية التجسيد المادي لإصراره على الشبكة وبنية القيادة المتشابكة والتي تتشارك فيها المنظمات المعلومات مع بعضها بدلا من اكتنازها في قنواتها الخاصة بها التي تكمن تحت ستار صلب على شكل حظيرة تعود إلى عهد صدام.

لقد كان مركز العمليات لديه نقطة مراقبة الدخول في إحدى نهاياته وضباط لماكرستل وكبار الشخصيات من الجانب الآخر، وبين هذا وذلك يفصل جدار خشبي من الرقائق حيث توجد غرفتان تمثلان المراكز العصبية لفرقة المهام في العراق ولقيادة العمليات الخاصة المشتركة في العالم، ولكل منهما طاولة على شكل حدوة الحصان تواجه جدارا من شاشات الفيديو المسطحة مع صفوف

من محطات العمل خلفها إلى جانب القادة وكبار ضباط الأركان الذين يحتلون حدوة الحصان.

في مقر فرقة العمل العراقية، كان قادة فرقة العمل عادة هم قادة الدلتا وموظفوها يجلسون على حدوة الحصان، وفي الصفوف خلفهم كان يجلس حوالي 60 عنصرا من ضباط العمليات ومحللي الاستخبارات وضباط الاتصال من قيادات أخرى.

لقد كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة تبدو في عصر الفضاء بتقنياتها العالية تستدعي روايات الخيال العلمي، فيما قال ضابط قضى عدة جولات في العراق في قيادة فرقة العمل «لقد اعتدنا أن نطلق عليها اسم حرب غالاكتيكا الفضائية»، بينما دعاها آخر باسم «نجمة الموت»، وقدّر أحد الضباط أن هناك حوالي ثلاثين إلى خمسين محطة فردية في قيادة العمليات الخاصة، وكلها تواجه تسعة شاشات تلفاز ضخمة ربما يقدر حجمها بستين بوصة مرتبة في مربع الشبكة.

تم تشغيل تغذية منفصلة لكل شاشة ويمكن للمرء أن يكون منها قائمة من مهام اليوم وهناك تغذيات أخرى تأتي من ترددات طائرات «عين الطائر» المحلقة فوق الهجمات الجارية، الفيديو الثالث يتسلم تغذية من أصول استخبارية أخرى، وهكذا فيما قال ضابط «فجأة سيبدأ شيء يحدث على الهدف، والناس سوف تركز على تلك الشاشة».

كان الموظفون يدعونه «تلفاز القتل»، وفي الباب المجاور في مركز عمليات ماكرستل العالمي والذي يدعى بغرفة معرفة الوضع، كان قائد العمليات الخاصة المشتركة، وفي حال غيابه كان أحد مساعديه برتبة جنرال من فئة نجمة واحدة يترأس الطاولة مع قيادته ورقيبه الأول ومديري العمليات والاستخبارات على جانب وممثلين عن وكالات أخرى وفرقة عمل العراق على الجانب الآخر.

لقد كان الجنرال جون أبو زيد، والذي شغل منصب آمر لواء ماكرستل قبل عقد من الزمن حينما كان ماكرستل يقود كتيبة 82 المحمولة جوا، مؤيدا بشدة لرغبة قائد العمليات الخاصة المشتركة لتحويل قيادته إلى شبكة، لكن وكما اعترف ماكرستل كان آخرون بحاجة الى تسويق الفكرة اليهم وخاصة في مجتمع الاستخبارات الذين استغرقوا وقتا أطول في الحضور بسبب ممانعة البعض، ولذا كان ماكرستل يضغط باتجاه التقدم إلى أمام بغض النظر عن معارضتهم، آملا أنه حينما تحقق قوة المهام نتائج فإن ذلك سوف يدفع قادة الوكالات الأخرى إلى تعزيز نجاحه والمساعدة في تسريع العملية.

لقد جعل مرفق العمليات الخاصة المشتركة مركز المعلومات الحساسة مجزأ أو ما يطلق عليه تسمية SCIF (سكف)، لذا يمكن للناس من مختلف الوكالات وفرق العمل تبادل البيانات السرية

بسرعة وبشكل مفتوح وهو ما يمثل انعكاسا تاما في العقلية التي تهيمن تقليديا على العمليات الخاصة ووكالات الاستخبارات.

لقد كان ماكرستل أو أحد مساعديه من فئة نجمة واحدة موجودين دائما في العراق، لكن بدأت من خريف عام 2003 قوة الدلتا تصبح مسؤولة يوما بعد يوم عن إدارة قوة المهام العراقية، وحينما قام ماكرستل بتركيز الدلتا في العراق كان يضع أيضا فريق عمل قيادة العمليات الخاصة المشتركة في أفغانستان تحت القيادة المتناوبة بين فريق Team 6 وقوة الرينجر.

بحلول أواخر صيف عام 2004 قسمت فرقة المهام العراقية بين المقر الرئيس في قاعدة بلد والذي يقوده عادة قائد الدلتا أو مساعده وقوة مهام سرب الدلتا التي يقع مقر دعم مهامها في موقع فرنانديز في بغداد فضلا عن فريق صغير من العناصر من قوات الدلتا والرينجرز وTeam 6)) في الموصل وتكريت ومدن أخرى مع فريق المهام البني لطائرات الهليكوبتر لتقديم الدعم.

كانت قوة المهام السوداء البريطانية SAS)) التي يقع مقرها في المنطقة الخضراء إلى جوار سرب الدلتا تريد العمل عن كثب مع قيادة العمليات الخاصة المشتركة، لكن الحكومة البريطانية كانت قلقة من معاملة قيادة العمليات الخاصة للمعتقلين، وهو ما يعني أن (SAS) قد استمرت بالتركيز على مطاردة عناصر نظام صدام السابق لفترة أطول بعد أن أعاد ماكرستل تركيزه على الزرقاوي.

حجم القوات سيزداد خلال السنوات القليلة القادمة، حيث سيغير القادة المواقع ويتغير المخطط التنظيمي مرارا وتكرارا، ولكن كل ذلك كان تمشيا مع مبدأ ماكرستل بأن من المهم بالنسبة لقواته أن لا تغدو متشابكة في بناء تنظيمي معين أو إعداد جغرافي، بدلا عن ذلك كان يريد لقيادته أن تكون قادرة على التكيف بشكل سريع وتحريك القوات والقيادات والعقد من قاعدة إلى قاعدة مع تطور وضع العدو.

لقد كان ماكرستل يقود مؤسسة عالمية، لكنه بعد أن فضل أفغانستان أولا بالوقت والموارد بعملية «ضربة الشتاء» قال إنه قرر إعطاء الأولوية للحملة ضد تنظيم القاعدة في العراق، فيما قال ضابط في هيئة أركان قيادة العمليات الخاصة المشتركة إن «الأمور كانت تسخن في العراق، وقد حولنا الجهد الرئيس في مِواجهته».

وأضاف أنه «وبعد تأسيس مركز دولة القيادة الفني في قاعدة بلد مستفيدا من التحديات التي تواجهه وبعد أخذه مقدار الرجال والنساء الذين يعملون تحت قيادته أدرك ماكرستل في خريف عام 2004 أن كل القطع في أماكنها لتحقيق جدول أعماله الطموح لقيادة العمليات الخاصة المشتركة والحفر لإنشاء شبكته الوليدة ضد شبكة القاعدة في العراق لتغدو قيادة العمليات الخاصة المشتركة في دور النشاط».

لم يكن هناك شخص أكثر من ماكرستل نفسه مسؤولية في

تحويل قيادة العمليات الخاصة إلى عصر المعلومات في ماكنة الحرب على مدى العامين المقبلين من العقيد مايك فلين والذي حلّ محلّ عقيد آخر في الجيش هو بريان كيلر، كمدير لاستخبارات قيادة العمليات الخاصة المشتركة في تموز من عام 2004، فقد كان ذلك الرجل النحيل ذو الشعر الأسود من رود ايلاند مجهزا بذهن حاد كالشفرة ومستعدا لتحدي الحكمة التقليدية.

لقد كان فلين يتمتع حقا بسمعة ومهنة مثيرة للإعجاب كمدير للاستخبارات في الفرقة المحمولة جوا 82 والفيلق 18 المحمول جوا بما في ذلك خدمته في ذلك المنصب في أفغانستان حينما كان ماكرستل رئيسا لأركان الفيلق، لكن المنصب الجديد له سيكون أول مهمة له في العمليات الخاصة، وقد أدرك ماكرستل الأهمية المركزية للاستخبارات في مكافحة الإرهاب وقد وضعه فيما يدعوه الجيش «الطلب بالاسم» أن يصبح مايك فلين رئيس استخباراته.

حينما تولى فلين مسؤولية استخبارات قيادة العمليات الخاصة كانت قدرات قيادة الاستخبارات على اعتاب قفزة نوعية إلى الأمام، وقد كانت هذه الثورة خطوة ضرورية في تحقيق رؤية ماكرستل، ولكي تتمكن فرقة المهام من الدخول في دائرة القرار لدى تنظيم القاعدة في العراق فإنها كانت تحتاج إلى زيادة كبيرة لكلٍّ من استيعابها للبيانات كافة، والسرعة اللازمة لتحويل تلك المعلومات إلى معلومات استخبارية عملية، وكان هذا بدروه يتطلب تحسينات

في الكيفية التي تقوم بها قيادة العمليات الخاصة في الحصول على معالجة الأنواع المختلفة من المعلومات الاستخبارية مثل المعلومات الاستخبارية المصورة والإشارات، لكنها كانت تفتقر إلى الوصول إلى كمية كبيرة في كلٍّ منها في بداية عام 2004.

وحينما أعاد ماكرستل تركيز فرقة المهام على الزرقاوي، كانت قوة الدلتا تعطي الأولوية للمعلومات الاستخبارية البشرية، فيما قال مصدر في قوات الدلتا «لقد قلنا حسنا، نحن على ذلك، لدينا خلايا الدلتا تعمل، واستطلاعنا يعمل، وكل رجل تم تدريبه كضابط قضية وكنا نعرف أننا بحاجة لمصادر معلومات لكي نبدأ المطاردة».

كانت لدى الدلتا ميزات على وكالة الاستخبارات الامريكية في بناء شبكة من المصادر في العراق الذي مزقته الحروب، ليس فقط بسبب أن مشغليها اعتادوا على أن يعملوا في مناطق القتال فحسب، بل قدرتهم أيضا على أن يزرعوا أنفسهم بسهولة في قواعد صغيرة كان الجيش التقليدي يعمل بها في كل أنحاء العراق.

في أوائل عام 2004 وضعت وكالة الاستخبارات المركزية عددا صغيرا من الضباط في القواعد العسكرية، لكن التوترات بدأت تنمو بين الوكالة وقيادة العمليات الخاصة المشتركة بسبب القفزة الكبيرة التي حققتها الأخيرة بشأن متطلبات الاستخبارات وقدراتها.

في وقت لاحق من ذلك العام وفي محاولة لبناء جسور مع الوكالة قام ماكرستل بجعل فلين ضابط الارتباط في محطة وكالة

الاستخبارات المركزية في بغداد والتي أصبحت الآن هي الأكبر في العالم.

لقد كانت قدرة الدلتا على القيام بعمليات لا تثير الانتباه من خلال استخدام أسطولها من السيارات التي تم شراؤها محليا مثيرة للإعجاب، لكن الوحدة كانت تحاول الذهاب باتجاه الأفضل، ففي غياب وجود جهاز استخبارات عراقي فعال بدأت الدلتا بإنشاء جهازها الخاص بها، فقد قامت الوحدة بتجنيد وتدريب عراقيين تم اختيارهم بعناية للقيام بعمليات استخبارية بالنيابة عن فرقة المهام، وربما تم استعارة بعض أسماء وكالة الاستخبارات المركزية من أفغانستان، فقد استخدمت الوكالة أحد فرقها المتخصصة في مكافحة الإرهاب في أفغانستان، وقد أطلقت قوات الدلتا على عملائها من العراقيين تسمية الموهوكس «Mohawks».

لقد استخدمت قوات الدلتا أولئك العراقيين (الشجعان) الذين بلغ عددهم العشرات، ومعظمهم عاشوا في قواعد قوات التحالف للقيام بعمليات الاستطلاع القريب، وبالأساس للتقرب نحو شخص ما أو بناء مصالح لقيادة العمليات الخاصة المشتركة قدر الإمكان، حيث إن إرسال غير العراقيين كان ينطوي على مخاطر عالية جدا.

في مهام كهذي كان (الموهوكس) يستخدمون أحيانا سيارات الدلتا المزودة بالكاميرات، فالسيارات المحلية التي كانت الوحدة

التقنية للدلتا قد نصبت فيها كاميرات مخفية هي بالطريقة نفسها التي كان يخفي فيها مصنعو السيارات الرئيسين بإخفاء الكاميرات الاحتياطية المصممة في مركباتها، فيما قال مصدر في الدلتا إنها «كانت بلون السيارة نفسه لكنها تظل كاميرا».

فضلا عن عمليات الاستطلاع القريب، كان من مهام (الموهوكس) الأساسية هو تجنيذ المصادر، كما كانوا يستفيدون من المعلومات ببساطة من خلال التحدث مع أفراد عائلاتهم ومعارفهم الآخرين عبر الهاتف، وفي بعض الأحيان كانوا يرافقون القوات التقليدية في الدوريات وهو ما يسمح لـ(الموهوكس) بدخول المنازل، والتحدث إلى السكان المحليين، وحتى القيام بتجنيد مصادر دون جذب الانتباه.

الأفراد من غير الدلتا والذين كانوا على دراية ببرنامج (الموهوكس) منحوه درجة عالية، وقد دعا مصدر استخباري في الدلتا البرنامج بأنه «مهم جدا»، ولعله على الأرجح أفضل علاقة بيننا وبين تمكين العراقيين».

وأضاف أنه «لقد كان من الآمن في الواقع جعل (الموهوكس) يعيشون في القواعد العسكرية في العراق، حيث يمكن أن يختبئ العنصر منهم بشكل سهل بين عدد كبير من الموظفين المحليين هناك، بدلا عن اللقاء معه في منزل آمن أو مكان آخر خارج السلك، فهو يعرف المنطقة ويقوم بفحصها»، مشيرا إلى أن «عنصر

الموهوك» يستطيع العمل على تغطية قصته الخاصة بدلا من رؤيته خارجا من منزل في الجوار مرتبط مباشرة بالأمريكان».

لقد عاشت عناصر الموهوكس في موقع دعم المهام فرنانديز في المنطقة الخضراء وفي قاعدة فرقة المهام في الموصل وفي منشآت أخرى في جميع أنحاء العراق، لكن العيش في القواعد لم يخفِّف كثيرا من المخاطر الواضحة والكبيرة كون الشخص يعمل موهوك خلال فترة الحرب المفتوحة بين التحالف والتمرد السني الذي يقوده الزرقاوي، وعلى الرغم من العناية الكبيرة التي قامت بها الدلتا لتعليم (الموهوكس) حرفة التعامل المناسب، لكن بعض العملاء العراقيين أحيانا دفعوا ثمنا باهضا لانحيازهم إلى جانب فرقة المهام، فقد قال أحد ضباط الدلتا «تحصل أحيانا تقارير تتحدث عن اختطاف أحد عناصر الموهوك، وكنت أعرف اثنين منهم قد تم قتلهم».

كان (الموهوكس) يستهدفون المتمردين أحيانا باستخدام مقاهي الانترنت في عمليات كانت تقوم بها اثنتان من وحدات الظل التابعة للدلتا، وجميعهم كانوا يستخدمون القالب نفسه، حيث يدخل عناصر (الموهوكس) على مقاهي الأنترنت دون إثارة الشبهات، ويقومون بتحميل برامج على أجهزة الكومبيوتر وبعض تلك البرامج تقوم بالتعرف على لوحة المفاتيح، فيما تقوم برامج أخرى بتفعيل كاميرا الويب حينما يكون شخص ما جالسا إلى جهاز الكمبيوتر مما يسمح لفرقة المهام تحديد الهدف بشكل إيجابي.

كان المتمردون يظنون أنهم يمارسون أمن اتصالات جيد من خلال مشاركة حساب واحد مع كلمة مرور واحدة ذكية وكتابة رسائل إلى بعضهم وحفظها كمسودات في الحساب دون إرسالها كرسالة بريد الكتروني، لكن برنامج تتبع ضغط لوحة المفاتيح يعني أن أفراد قيادة العمليات الخاصة في الولايات المتحدة كانوا يقرؤون كل كلمة، وكانت فرقة المهام تنتظر إلى أن يؤسس الهدف نمطا خاصا ثم يقومون بالتحرك».

وقال مصدر مطلع على المهام «حينما تكون مستعدا للتعامل مع الهدف وحينما يتم طبع كلمة المرور فستؤدي عملية الكتابة إلى ما يسمى بـ«Shitbag»، أي أن الشخص قد انكشف ويصدر الأمر أنه موجود مثلا في المقهى رقم 6 وجالس على الكومبيوتر رقم 4 اذهبوا وألقوا القبض عليه».

العملاء العراقيون المعينون محليا وفي بعض الأحيان المشغلون الأدنى درجة من الأمريكان يتبعون المتمرد بعيدا عن مقهى الأنترنت للقبض عليه من أجل تقليل فرص الأعداء الآخرين في معرفة كيفية استطاعة الأمريكان القبض على أهدافهم، حيث غالبا ما يقوم المشغلون بتحديد الطريق الأكثر احتمالا للهدف بعيدا عن المقهى وانتظاره عبر نصب كمين له».

وكما هو الحال بالنسبة لمعظم مهام فرقة المهام يقوم المشغلون عادة باختطاف الهدف المطلوب دون قتال، فيما قال

أحد مشغلي الدلتا «بشكل عام يحدث إطلاق النار لسببين، أولا أن يكون من المقاتلين الأجانب الذين يرغبون بالقتال أو نسيان شيء ما أثناء العملية».

وأضاف «لقد اختطفنا اطنانا من الرجال كانوا يحملون أسلحة لديهم، فلماذا لم يتمكنوا من إطلاق النار؟ السبب بسيط لأننا لم نعطهم الوقت لذلك»، مشيرا إلى أن «الدلتا نفذت المئات من المهمات بتلك الطريقة».

لم تكن قوات الدلتا الوحيدة التي استخدمت مثل هذه التكتيكات، بل كانت الريادة في ذلك لفرع من قوات الدلتا يسمى (سرب عمليات شبكة الكمبيوتر)، وكانت الفكرة من بنات أفكار اثنين من جنود الدلتا الموهوبين تكنولوجيا في وحدة المراقبة التقنية والتي تدعى «سكوت وكيث» واللذين كانا في أواخر أعوام التسعينات يقومان بتجريب ما سيطلق عليه في وقت لاحق الغمليات الإلكترونية (السيبرانية)، وقال مصدر في الدلتا «لقد بدأت هذه الوحدة بشخصين فقط هما «سكوت وكيث» في مقر الدلتا الرئيس، وكانا مدربين للحاسوب، ثم نمت الوحدة من هناك»، مضيفا «قبل أن يكون لدي بريد إلكتروني كان الرجلان يعملان على قرصنة البريد الإلكتروني وكانا فعالين بشكل لا يصدق».

لقد كان سكوت رقيبا في سلاح القوات الخاصة، وقد تحول إلى خبير اتصالات الدلتا من كاليفورنيا، وكان عالما تكنولوجيا

مع اهتمام خاص في الرقابة والإشراف والسيطرة والحصول على بيانات (SCADA) الخاصة بأنظمة الكومبيوتر والتي تدير عمليات مختلف المنشآت الصناعية في الوقت ذاته.

لقد اعترف كبار الضباط بالإمكانيات التي وصفها ضابط من العمليات الخاصة بأنها «موهبة لا تصدق»، فيما قال أحد مشغلي الدلتا «لقد كان مجرد رجل يستطيع تهكير بعض الإيميلات، ثم كان الشيء الثاني إنه وضع برنامجه الخاص وشغله ليصبح أسطورة».

في السنوات الأولى بعد هجمات الحادي عشر من أيلول أصبح البرنامج وحدة قائمة بذاتها، وقد بدأت بمجموعة صغيرة من الجنود، لكنها فعالة لتصبح عام 2007 سربا يدعى سرب عمليات شبكة الكمبيوتر، ومقرها في أرلنغتنون في ولاية فرجينيا ومع القوات في فورت ميد ومقر آخر لها في وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، وتقوم بتقديم التقارير بشكل مباشر إلى قائد العمليات الخاصة المشتركة.

وقال أحد ضباط الاستخبارات في الجيش الأمريكي «لقد احتفظ الجيش بسرب عمليات شبكة الكمبيوتر في قيادة العمليات الخاصة لأننا كنا نريده أن يعمل في مناطق ليست بالضرورة مناطق حرب»، مضيفا «لقد أردناه أن يعمل في جميع أنحاء العالم لمتابعة الأهداف الوطنية».

في عام 2006 كانت الوحدة تتحرك، لكنها في ذات الوقت ملتزمة

بشدة بالحروب في العراق وأفغانستان، وطبقا لمصادر مطلعة على الوحدة إنه «وبالنسبة لبعض أخطر العمليات الحركية والإلكترونية في العراق قام السرب بتقديم المعلومات إلى نشاط الدعم المشترك بين الوكالات، وهي وحدة قصيرة العمر أُنشئت في أوائل عام 2006 بعد أن أثبتت أفغانستان الفكرة لمفهوم السنة السابقة، وقد تألفت من (الموهوكس) ووكالة الاستخبارات المركزية فرع الأفراد شبه العسكريين والمتعاقدين على الأرض وجماعة الدلتا وفريق Team 6 وفريق المشغلين البرتقالي فضلا عن عدد قليل من المشغلين البريطانيين والكنديين.

على الرغم من أنه نظريا تم دمج قيادة العمليات الخاصة ووكالة الاستخبارات المركزية لكن الوحدة كانت ترسل تقاريرها إلى رئيس وكالة محطة بغداد، فيما قال مصدر مطّلع على عمل الوحدة «هكذا تم كسر الشبكات المزعجة في العراق وتلك التي لم نتمكن من كسرها من خلال استخبارات الإشارات ولم نتمكن من الحصول عليها من المصادر البشرية والتي تعتبر أكثر انضباطا بشكل أساسي».

لقد استهدف أحد الفرق الفعالة قادة حركات التمرد السني التي تدير تدفق المقاتلين الأجانب من سوريا إلى العراق، بينما استهدف الفريق الثاني قادة الشبكات الشيعية التي تديرها المخابرات الإيرانية.

عاشت فرق النشاط الفعالة في مجموعة من المنازل الآمنة منفصلة عن بعضها وعن قوات التحالف، وحينما تكون هناك مهمة فإن ستة أو نحو ذلك من الأمريكيين يرتدون الزي العراقي ويضعون مكياجا داكنا لتسمير بشرتهم، وكانت مهمات مقاهي الإنترنت الخاصة بهم تتبع أسلوب قوات الدلتا نفسه مع اختلاف واحد وحاسم وهو فريق النشاط والتي لم يكن لديها طبقات النسخ الاحتياطي والتمكين التي عادة ما تدعم عناصر الهجوم لدى قيادة العمليات الخاصة والذين يخططون دائما لقتل أهدافهم.

وقال أحد المصادر كان على اطلاع بالمهمات «أنا لا أعرف أي أحد تم إلقاء القبض عليه منهم، فقد كانوا أكثر سرية من الدلتا، فمن كانوا يعرفون أن هذا الأمر يجري في البلاد لا يتجاوز 45 فردا فقط».

لقد عاشت فرق النشاط حياة قصيرة وعنيفة، فقد حلت وكالة الاستخبارات المركزية الفرق في أيلول من عام 2006، وذلك يعود جزئيا إلى تصاعد مستوى العنف بشكل عام في العراق، وكان النشاط يتسبب في إصابات، كما أن أحد الأسباب هو إن قيادة العمليات الخاصة كانت تقوم بالقضاء على الشبكات السنية إلى درجة لم يعد فيها استهداف مقاهي الإنترنت يحقق أية نتائج، وأيضا إن الولايات المتحدة رأت أن من الأفضل استخدام المصادر العراقية الموهوبة، كما أن حصول الفريق البرتقالي على اثنين من الناطقين بالإسبانية واللذين يتحدثان العربية بشكل ممتاز يمكنهم

التوجه إلى أي مقهى إنترنت وتسويق أنفسهما كطلاب جامعيين أو رجال أعمال من درجة واطئة أو طبقا لضابط في الفريق البرتقالي على اطّلاع بالعمليات، إذا كان الموقع أكثر عالمية في بغداد فإننا نقوم باستهداف تلك المقاهي فيه، أما إذا كان من مناطق الضواحي التي يعرف الجميع فيها الجميع حيث يدخلون ويخرجون من مقاهي الإنترنت فإننا لا نذهب إليها، لكن أحيانا تأتي إلينا وكالة الأمن القومي أو الاستخبارات المركزية ويقولون لنا «حسنا، هذه خريطة، نحن نريد تغطية هذا المكان وهذا المكان وذلك المكان»، فسنقوم بإرسال الرجال خارجا وهم يقومون بذلك وقلبهم يدق».

على الرغم من عمليات مقاهي الإنترنت الرائعة، لكن على أية حال، الاختراقات الأكبر والتي صنعت الفرق لقيادة العمليات الخاصة كانت في مناطق الإشارات الاستخبارية والصورة، ففي كلا الحقلين كانت قوة المهام بحاجة إلى المزيد من الطائرات خصوصا من ذوات تشكيلة الجناح الثابت مما كان لديها في نهاية عام 2003.

لقد عمل ماكرستل وفريقه بجهد على الطائرات التي كانت على استعداد للعمليات الاستخبارية، والقيام بالاستطلاع وإمكانية إعادة تشكيلها.

تحت قيادة ماكرستل أصبح الموظفون أكثر انخراطا مما كان عليه الوضع تحت قيادة دايلي في دعم القوات الضاربة خصوصا ما يتعلق بجعل طائرات الاستطلاع والاستخبارات متوفرة، فيما

قال مصدر في قوة الدلتا إن «ماكرستل قد أدرك عمله باعتباره القائد الأكبر أن يقدم تقييما للقادة الأقل، فقد تحول أسطول الطائرات المحلقة للأغراض الاستطلاعية والاستخبارية التابعة لفرقة المهام من طائرة هليكوبتر من طراز ايكو واحدة منتصف عام 2003 إلى أربعين طائرة ذات خمسة عشر نوعا مختلفا في غضون العامين التاليين، وكان معظم الطائرات جميعا من الايكو لقوة المهام البرتقالية وقوة المهام الفضية (القوة الجوية التي تغطي الوحدات الجوية) والتي كان يطلق عليها جميعا القوات الجوية الكونفدرالية (وربما علامة البرتقالي تشير إلى جيش شمال فرجينيا).

لقد كان تعطش ماكرستل لطائرات الاستخبارات والاستطلاع ـ جنبا إلى جنب مع السيطرة على قيادة العمليات الخاصة التي حصل عليها ـ وقد أكسب الوحدة تسمية فرقة العمل البرتقالية الآن، وكان لها تأثير كبير على وحدة المهام الخاصة في فورت بليفور، وبحلول عام 2004 كان نصف الفريق البرتقالي وأكثر من نصف طائراته ملتزمة بالعمل في العراق.

وقال ضابط صف ميداني على دراية بعمل الفريق البرتقالي «لقد كانت قدراتنا متقدمة، فقد حصلنا على ذلك النوع من المصادر الذي لا يمكن الحصول عليها في مكان آخر، لكن من أجل أن يدخل الفريق البرتقالي الحرب في العراق كان على ماكرستل التغلب على العقبات البيروقراطية القوية، ولاسيما مع وكالة الأمن

القومي والتي كانت تدفع الكثير من قدرات الفريق البرتقالي على أمل أنها ستستخدم قدرات الفريق على المستوى الوطني لوكالة الأمن القومي وليس في معارك المدن والمناطق الحضرية القذرة في العراق»، مضيفا أن «وكالة الأمن القومي (NSA) لم تكن تريد أن تكون لها طائرات في العراق، فقد كانوا يريدون أن يفعلوا بها أشياء أخرى لهم».

لقد كانت معارضة إعادة توجيه الفريق البرتقالي قد جاءت أيضا من المستويات العليا داخل عالم العمليات الخاصة، فيما قال ضابط متقاعد من العمليات الخاصة إن «تلك المنظمة لم تكن مصممة للقيام بالاستخبارات التكتيكية لصالح قيادة العمليات الخاصة المشتركة فقد قرصنوها»، مضيفا أنه «كان يفترض تكون أصولا استراتيجية يمكن أن تقوم بأفعال جادة».

لقد اشترى الفريق البرتقالي ستة محركات توربينية لطائرات تم تفكيكها من الداخل وملئها بأجهزة الاستخبارات الإشارية وقد جربت الوحدة استخدام الحزم على طائرة بلاك هوك، لكنهم وجدوا أنه وعلى الرغم من أن المتحسسات تعمل بشكل جيد لكن طائرة الهليكوبتر لا يمكن أن تحلق أعلى من 3000 قدم فوق سطح الأرض وعلى مسافة لا تبعد سوى ميل أو ميلين عن الهدف، وهي مسافة كافية ليتم اكتشافها من قبل المتمردين المتأهبين.

مع ذلك يمكن للطائرة أن تؤدي المهمة على ارتفاع يصل إلى

15 ألف قدم فوق سطح الأرض وخمسة أميال عن الهدف، فيما قال ضابط الصف «لم يكن لديك فكرة أنني كنت قريبا»، وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الكونفدرالية تقدم التصوير في الوقت الحقيقي للأهداف، كانت طائرات الفريق البرتقالي هناك لتوفير المعلومات الاستخبارية والتي تستهدف في المقام الأول استخدام المتمردين لشبكات الهاتف المحمول التي بدأت تزدهر في العراق، فقبل الغزو الأمريكي لم يكن يوجد تقريبا أي شبكة هاتف محمول مملوكة للقطاع الخاص في العراق، لأنها كانت تعتبر غير قانونية في عهد صدام حسين، لكن إسقاط الديكتاتور أدّى إلى نمو هائل في سوق الهواتف الخلوية، وبحلول أيار من عام 2005 كان حوالي 1.75 مليون عراقي يملكون هواتف خلوية وهو رقم استمر بالتصاعد.

يبدو أن المتمردين العراقيين من الطبقة الوسطى والدنيا، لاسيما أولئك الذين يقاتلون من أجل الزرقاوي لم يكونوا يقاومون سرعة التواصل عن طريق الهاتف الخلوي، ونتيجة لذلك أنفقت شبكة ماكرستل الكثير من الجهود لتطوير واستخدام التكنولوجيا لاستغلال مصدر غني من الإشارات الاستخبارية.

لقد أصبحت شبكات الهاتف النقال الغنية هدفا جماعيا لعدد من الوحدات المختلفة داخل وخارج فرقة المهام من أجل مهاجمتها بما فيها قوات الدلتا (وخاصة سرب الايكو) والفريق البرتقالي ووكالة الأمن القومي (NSA)، وخلال السنوات الثلاث الأولى

أنجزت فرقة المهام عدة اختراقات تكنولوجية مرتبطة بالهواتف النقالة مثلها، وصف ضابط في الفرقة البنية بأنه «مغير اللعبة»، فقد قامت طائرات القوة الجوية الكونفدرالية بحمل الأجهزة عندما تطير بالقرب من برج الهاتف الخلوي وهو ما يسمح لأولئك الذين على متن الطائرة بالدخول بشكل سلبي ورؤية سجل المكالمات في وقتها الحقيقي لكل هاتف يجري مكالمة، فيما يمكن لموظفي الفرقة فيما بعد البحث عن الأرقام المهمة بالنسبة لهم كي تخبرهم قاعدة البيانات إذا كانت تلك الهواتف ماتزال في الخدمة، وإذا كان كذلك كما يقول أحد المشغلين «كنا نقوم بتحديد الموقع ونذهب إلى ضرب الهدف.

لقد كانت معلومات برج الهاتف الخلوي توجه فرقة العمل إلى جزء من المدينة، وعند تلك النقطة يقوم المشغلون باستخدام «عصا التنبؤ الإلكترونية» التي تحمل باليد مثل المتحسس التي يمكن برمجتها لكشف هاتف معين وسوف تصفر بصوت يتعالى كلما اقتربنا من الهدف، كما يمكن لعصا التنبؤ أن تكشف حتى الهاتف الذي تم إطفاؤه حتى وإن لم يكن فيه بطارية وتم إزالة «السيم كارت» منه.

وفي الواقع لم تكن قوة المهام تستطيع فقط إيجاد الهاتف النقال الذي تم إطفاؤه فحسب بل يمكن لهم تشغيله عن بعد بحيث يمكن أن يحولوه إلى سماعة وبثّ كل شيء التقطه إلى فرقة العمل مرة

أخرى، كما يمكنهم أيضا استنساخ الهاتف النقال دون الحاجة إلى الأصلي منه ووضعه في حوزتهم ليسمح لفرقة المهام بإرسال واستقبال الرسائل مثلا، كما لو أنهم مالكو الهاتف.

فضلا عن ذلك استخدمت قوات الدلتا على نطاق واسع قارئ بطاقات «السيم كارت» المحمولة والتي تسمح للمشغلين الذين وجدوا الهاتف الخلوي أثناء تفتيش منزل مشتبه به من إزالة البطاقة بسرعة ونسّخها في الجهاز وإعادتها مرة أخرى للهاتف دون أن يشك المشتبه به أنه تم إزالة بطاقته وتم نسخها.

في بعض الأحيان يدّعي المشغلون أنهم لم يجدوا أي شيء حتى الهاتف كي يخفوا حقيقة أنهم يقومون في الوقت ذاته بتسجيل كل مكالمات مالكه، فقد أبتكر المشغلون برامج تمكنهم من إجراء تحليل عقدي يمكنها بسرعة رسم شبكات المتمردين على أساس حركة هواتف المتمردين لديهم، وقد وضعت وكالة الأمن القومي جميع المعلومات الاستخبارية في إطار بوابة الوقت الحقيقي الإقليمي وهو مركز تبادل المعلومات الاستخبارية التفاعلية حيث يستخدمها أفراد فرقة المهام باستخدام أرقام الهواتف النقالة وأرقام الهواتف التي تم الحصول عليها من الغارات والتي تكون مكافأتها الحصول على خطوط جديدة يقوم النظام بلفظها عليهم.

طبقا للمؤلفين دانا بريست ووليام اركين فإن إطار بوابة الوقت الحقيقي سمحت لأعضاء فرقة المهام بمراقبة الإشارات واعتراضها

في الوقت الذي تحدث فيه وأدّى إلى زيادة مقدارها عشرة أضعاف في السرعة التي يتمكن بها المشغلون من الوصول إلى المعلومات الاستخبارية.

على الرغم من اعتراضات وكالة الأمن القومي على اختيار الفريق البرتقالي من قبل قيادة العمليات الخاصة فإن الوكالة قد أصبحت شريكا حاسما في الجهود المبذولة لكسر شبكات الهاتف الخلوي والتي غدت مصدرا للمعلومات الاستخبارية.

بحلول أواخر عام 2003 كانت مجموعة دعم التشفير التابعة لوكالة الأمن القومي تقوم بجمع معلومات الاتصال الفوقية ـ أي معلومات الاتصال ـ وليس المحتوى لجميع المكالمات التي تمت في العراق، وبعد انتقال ماكرستل إلى مقره في بلد وضعت وكالة الأمن القومي فريقا في مقر القيادة مدركة أنه ربما تكون هواتفهم الخلوية معرضة للخطر، فقد قام المتمردون بتجنيد ما وصفه ضابط في فرقة المهام بـ«مهندسي اتصالات متطورين جدا لحمايتهم من المراقبة، وفي عام 2003 برزت كيفية إعادة تكوين الهواتف اللاسلكية عالية القوة لتحويلها إلى نوع من شبكة الاتصال اللاسلكية»، مضيفا «أعتقد أن لديهم ما يسمى بالخط الساخن للاتصالات الصغيرة الخاصة والتي لا يستطيع أحد قراءتها لأنها لم تكن تعمل على مستوى الهاتف الخلوي، لكننا تمكنا من معرفة ذلك بسرعة» مؤكدا «لقد كان ذلك انقلابا كبيرا تم اكتشافه، ومن ثَمّ تمّ استخدام تلك المعلومات، فقد

كان نجاحا قصير الأمد»، فبحلول العام التالي كان جميع المتمردين قد تخلوا عن استخدام هذه التقنية.

خلال عام 2004 مزجت قوة ماكرستل الشخصية كل الأجزاء المتباينة تدريجيا، فقد كان هناك أسطول متنقل من طائرات الاستطلاع فضلا عن تزايد قدرة استخدام الاتصالات الرقمية للمتمردين ضدهم ووجود «نجمة الموت» التي تمثل قاعدة ماكرستل في بلد قد زادت من قبل الموظفين والمنسقين من أجزاء أخرى في شبكة ماكرستل، فالمهارة غير المسبوقة ومثابرة مشغلي وحدة المهمات الخاصة والرينجر والملاحين الليليين قد تحول إلى عملية ديناميكية أصبحت تعرف باسم F3EAD»» وهي تعني البحث، الإصلاح، الإنهاء، الاستغلال، التحليل، والنشر.

البحث والإصلاح كانتا تستلزمان أصول الاستطلاع والاستخبارات لتعريف وتحديد الهدف ـ عادة ما يكون شخصا ـ في الزمان والمكان، كما أن عملية الإنهاء التي تعني إلقاء القبض على أو قتل الهدف كان مهمة قوى العمل المباشرة وهم مشغلو وحدة المهمات الخاصة وقوة الرينجر وأسراب طياري فرقة العمل البنية، أما عملية الاستغلال والتحليل للمعلومات الاستخبارية للمهمة والتي تعني أي شيء مثل فكّ رموز الأوراق والهواتف وأجهزة الحاسوب إلى استجواب السجناء كان من عمل المشغلين وخصوصا عناصر الاستخبارات بكل مستوياتها، وفور الانتهاء من

هذا التحليل الذي كان يستغرق أسابيع عام 2003 وعدة ساعات قبل عام 2006 يتم نشر النتائج في الشبكة للدفع بالمزيد من العمليات، وقد تطلبت العملية في جوهرها تنسيقا أكثر تشددا وأكثر سلاسة بين الاستخبارات والعمليات مما كان عليه المعيار حتى في قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

من الجدير بالذكر أن قدامى المحاربين الذين طاردوا بابلو اسكوبار في فينزويلا وكبار مجرمي الحرب في البلقان جادلوا بأن ماكرستل وفلين أعادوا بالأساس اكتشاف العجلة التي كانت قد صممتها بالفعل فرق المهام الأصغر، وقال مصدر في قوة الدلتا إن «نشر الحسابات التي تعزى إلى ماكرستل وفلين وهذا التحول الكبير حيث الآن يتم دمج الأشياء، يتجاهل التاريخ».

إن هذا التأنق مشابه لما حصل في كولومبيا بشكل متماثل فتقاسم وكالات متعددة المعلومات الاستخبارية والتكنولوجيا وكسر الجدران بين مختلف الشركاء في الوكالات والتي قام بها ماكرستل في وقت لاحق في العراق قد تم إثباته من قبل حينما كان جيري بويكن يقوم بمطاردة مجرمي الحرب في البلقان في التسعينات من القرن الماضي، فيما قال مسؤول كبير في العمليات الخاصة على اطّلاع بالمهمات إن «مختصر «F3EAD» لم يكن مجرد لقلقة لسان، فقد كان القول أسهل دائما من العمل، لقد فقدت أرواح وجرى الكثير من الدم في سبيل تعزيز فرقة المهام من وتيرة عملياتها

وقاتلت للدخول في دورة قرار شبكة الزرقاوي، كما أن قبول قيادة العمليات الخاصة لفكرة ماكرستل وفلين لم تكن دون تحديات، وفي الوقت الذي كانت فيه فرقة المهام قد جمعت معلومات استخبارية عن هدف ما كان هنالك غالبا توتّر بين أولئك الذين يريدون الاستمرار في مراقبته لمعرفة ما يمكن أن يتعلموه أكثر عن شبكة العدو وأولئك الذين يريدون ضرب الهدف فورا حتى لو كان ذلك يعني فضح الأصول التي أدت إلى الحصول على الهدف في المقام الأول».

لقد كانت تلك الجدالات تميل إلى جانب أولئك الذين يفضلون التحرك بسرعة على أساس أن هناك الكثير أو المزيد من المعلومات الاستخبارية التي يمكن الحصول عليها من ضرب الهدف بدلا من الاستمرار في مراقبته ببساطة، وقد أصبحت عبارة «الضرب من أجل التطوير» عبارة فرقة المهام وقد كتب ماكرستل فيما بعد أن «قتالنا ضد الزرقاوي، كان في صميمه، معركة استخبارات».

وقال ضابط في العمليات الخاصة والذي كان يراقب العمليات بشكل مباشر «بعد أن تمكنت قيادة العمليات الخاصة المشتركة من إكمال آلة F3EAD»» كانت قوة المهام تتعثر أحيانا بشأن حد النموذج، لكنهم حينما يقومون بذلك فإن الماكنة تستمر في العمل، وما لم تثبت أنك تستطيع فعل شيء أفضل من ذلك فأنت لا تستطيع إيقاف الآلة».

الفصل الخامس

عيون الأفعى

كانت موجات نهر الفرات ترتطم بمجموعة من القوارب الصغيرة، التي كانت تختفي في الظلام وقد سحبوها إلى ضفة النهر بجانب مزرعة في مدينة الأنبار، كان الرجال في القوارب يرتدون الكوفية، وكانوا يبدون من بعيد وكأنهم مثل المزارعين المحليين، لكنهم لم يكونوا كذلك، فالرجال من مشغلي قوة الدلتا في مهمة للقبض على أحد كبار ضباط الزرقاوي ـ وهي مهمة من النوع الذي كان يقول عنها الآخرون إنها سوف لن تنجح أبدا.

لقد كان الرجل الذي يسعون وراءه يدعى غسان أمين، وكان مقربا بما فيه الكفاية من الزرقاوي لدرجة رتّب فيها مؤخرا مع أقربائه استضافة لزعيم القاعدة في العراق لمدة خمسة أيام، كان أمين رجل الزرقاوي في راوة، وهي مدينة ذات أهمية استراتيجية على الضفة الشمالية لنهر الفرات حيث كان يديرها شخصيا، وبجسرها عبر النهر كانت مدينة راوة الحقل الرئيس للزرقاوي.

إن أي شخص يتمكن من السيطرة على المدينة فسوف يتحكم

بتدفق المقاتلين القادمين من سوريا إلى ساحات القتال الحضرية الكثيفة في الفلوجة والرمادي وبغداد، لقد حطمت قوات أمين مركز شرطة راوة ومكنت له شبكة مكافحة التجسس التي يديرها بترويع السكان المدنيين الذين يبلغ عددهم حوالي 20 ألف نسمة، فيما قال مسؤول كبير في وحدة المهمات الخاصة إنه «عادة ما يقوم بإعدام شخص واحد بشكل علني في السوق أسبوعيا»، مضيفا «لقد شاهدناه عبر طائرة بريداتور المسيرة وهو يقوم بإطلاق النار على أحد مصادرنا في رأسه، بينما كان في مركبته، لقد كان رجلا سيئا جدا».

وتابع الضابط «لقد كان من الصعب جدا صيده، ولم نعرف كيفية القبض عليه، لكن المعلومات الاستخبارية كانت تشير إلى أنه يملك مزرعة غرب مدينة راوة على حافة نهر الفرات وهو ما أعطى لقوات الدلتا تلك الفكرة»، «وقال أحد مصادرنا إنهم يأتون في موسم الحصاد حيث ينزل ويأتي إلى المزرعة في أيام معينة لمراقبة العمال وهم يقومون بعملية الحصاد وجلب المحصول».

وواصل الضابط «لقد كانت قوات الهجوم مكونة من السرب C بقيادة الكابتن دوغ تايلور أحد مجنّدي قوات الدلتا السابقين والذي تلقى ترشيحا من لجنة مدرسة الضباط المرشحين وعاد إلى الوحدة، وكان الكمين المنصوب للإيقاع بـ«أمين» هو القيادة باتجاه نهر الفرات من قاعدة الأسد الجوية، ومن ثم العوم عبر النهر بالقوارب الصغيرة والتظاهر بأنهم من عمال مزرعته.

لقد كانت الخطة كلاسيكية من نمط التفكير المغاير لدى قوات الدلتا، لكنها كانت أنيقة ومن نوع الخطط التي نادرا ما يتم الموافقة عليها، لكن الولايات المتحدة لم تكن منتصرة في العراق.

لقد كانت الأفكار غير التقليدية التي كان يرفضها كبار القادة في السابق تحصل الآن على آذان صاغية، فيما قال أحد مصادر الدلتا «لقد كانت لدينا سلطة مطلقة للقيام بأي شيء نريده»، لقد أعطيت خطة تايلور الضوء الأخضر ولذا كان هو ورجاله بما فيهم عدد من الناطقين بالعربية يجدون أنفسهم يتسللون إلى مزرعة أمين قبل أن ترتفع درجة حرارة النهار.

كان ذلك صباح يوم السادس والعشرين من نيسان عام 2005، وسرعان ما قام المشغلون باحتجاز المزارعين الحقيقيين وحلوا محلهم في العمل بالمزرعة وفي الحقول حتى إنهم كانوا يقومون بقيادة الجرار الزراعي بانتظار فريستهم كي تقترب، وبعد بعض الوقت دخلت الفريسة إلى المزرعة، فيما قال أحد ضباط المهمات الخاصة «دخل غسان أمين واثنان من مساعديه وهم يقودون سيارتهم باتجاه الرجال، ونزل أمين ليتقدم بضع خطوات مع مساعديه ليقترب من أحد المشغلين ويحييه بالعربية، وقبل أن يدرك خطأه متأخرا أشهر المشغلون أسلحتهم وأخذوه مع مساعديه سجينين».

لقد نجحت الحيلة بشكل جيد جدا وتمكن المشغلون من

إلقاء القبض على عدد من رجال تنظيم القاعدة في العراق في ذلك اليوم في المزرعة، فيما قال أحد ضباط المهمات الخاصة «لقد بدا الأمر كما أنه كان مثل شيء من الأفلام»، مضيفا «لقد كان الكثير من كبار الضباط سيقولون «حسنا، أنتم لا تستطيعون أن ترتدوا الزي العربي وتقودوا الجرّار الزراعي في الحقل، هل يمكن أن يسقط أي شخص في ذلك، ستصلون شخصا بعد شخص إلى المزرعة ولكن في حقيبة».

لقد كان مصدر الدلتا أكثر تحديدا في الإشارة إلى فيلم، مقتبسا من كيفن كوستنر عبارة شهيرة من فيلم (في حقل الأحلام) حينما قال «إذا قمت بالبناء، فستأتي»، وقد جاؤوا وجاؤوا وجاؤوا، فقد أسرع المشغلون في نهاية المطاف مع أسراهم بعد أن أكملوا بنجاح واحدة من أكثر مهمات الدلتا سخونة في الحرب على الإرهاب، وكان أمين من جانبه هادئا أخيرا قائلا بعد أن سقط في الفخ «كان يجب أن أعرف أنهم كانوا أمريكان فالعراقيون لا يعملون بذلك الجد أبدا».

وكما أشارت مهمة غسان أمين في أواخر ربيع عام 2005 كانت حرب قيادة العمليات الخاصة المشتركة في العراق تتحرك غربا كردّ على تدفق المقاتلين الأجانب الذين يدخلون العراق من سوريا، وعلى الرغم من أن قوة المهام قدرت أنه ما لا يقل عن 150 إرهابيا أجنبيا كانوا يصلون إلى العراق شهريا، فقد خلص

ماكرستل إلى أنهم كانوا يلعبون دورا كبيرا في التمرد السني والذي قيمته قيادة العمليات الخاصة المشتركة بما يتراوح بين 12 ألف إلى 20 إلف مقاتل.

وكان الإرهابيون الأجانب من الشباب الذين ليس لديهم مخاوف عائلية أو وطنية ولا يريدون رؤية عراق مزدهر مما وفر سهما غير متكافئ من القيادة المتمردة مع الزرقاوي الأردني نفسه، على سبيل المثال وكان معظمهم تقريبا من الانتحاريين الذين يقطعون بمناجلهم الدموية الأسواق والساحات العراقية، وكانت جماعات المتمردين العراقيين تقوم بنقلهم إلى مجموعة من المنازل الآمنة فور وصولهم إلى العراق على طول المدن والبلدات الواقعة على وادي نهر الفرات الغربي من مدن القائم على الحدود السورية إلى راوة وحديثة وهيت والرمادي والفلوجة ومنها إلى بغداد.

وإدراكا من معرفة فرقة المهام بأن معلوماتهم بشبكة نقل المقاتلين الأجانب خارج حدود العراق كانت ضحلة جدا قام ماكرستل في كانون الثاني من عام 2004 بتأسيس شبكة مماثلة لها من قاعدة بلد إلى قاعدة باغرام في أفغانستان أطلق عليها تسمية قاعدة فرقة العمل المشتركة بين الوكالات في الشرق«JIATF ـ East»)»، وهي مخصصة لتحديد تلك الشبكات وتحديد الأهداف العالية القيمة في الخارج.

وقد كان هذا حافزا لإنشاء ما أطلق غليه أيضا تسمية قاعدة فرقة العمل المشتركة بين الوكالات في الغرب أيضا «)JIATF ـ West هو

التفجير الانتحاري الذي وقع يوم 21 كانون الأول من قبل انتحاري سعودي شاب على مرفق الطعام في قاعدة العمليات المتقدمة «Base Marez» في مدينة الموصل، وأسفر الهجوم عن مقتل 22 شخصا بينهم رئيس العرفاء روبرت اوديل أحد مشغلي الفريق البرتقالي المنتشر في الموصل لمساعدة عناصر قوة المهام لمساعدتهم في التعامل بشكل أفضل مع مشكلة الإرهابيين الأجانب.

لقد كان ماكرستل يعرف بأنه كان بحاجة إلى فهم أكبر لشبكة أئمة المساجد والممولين والمنظرين والميسرين والمقاتلين الذين يمتدون عبر البلدان العربية وخارجها ويغذونها بالجهاديين في مطحنة اللحم التي غدت عليها الحرب في العراق، فبعد تفجير قاعدة «Base Marez» في الموصل تحرك ماكرستل بسرعة، ففي غضون 24 ساعة انتقل من قاعدة باغرام إلى قاعدة بلد وقام بتأسيس «West ـ JIATF» بقيادة توم ديتوماسو.

وفي الوقت الذي كانت تركز فيه «East ـ JIATF» على باكستان وآسيا الوسطى وأفغانستان كانت منطقة التغطية لشبكة «JIATF ـ West» تشمل بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وشرق وشمال أفريقيا وأوروبا والعراق وإيران التي تتقاسمها أيضا مع «East ـ JIATF»، لكنّ الشبكتين ظلتا صغيرتين، تتكون كلٌّ منهما ما بين 15 إلى 25 من الموظفين يستخدمون مكتبا يشبه غرفة الأخبار والمكتب المفتوح، وقد عملت الشبكتان على ما يطلق عليه تسمية «صورة العمليات

المشتركة» والتي تمّ تقاسمها مع كل الوكالات الحكومية مع إعطاء حصة لمكافحة الإرهاب.

لقد رسمت الشبكتان الغربية والشرقية الشبكات الجهادية، لكنهما أيضا جمعتا معلومات استخبارية من العديد من المصادر لخلق ملفات عن الأفراد المطلوبين، وتضمنت هذه الملفات المكونة من خمس صفحات لكل ملف سيرة ذاتية لكل شخص ورسم بياني لشبكته الاجتماعية وتفاصيل ووصف مفصل لنمط حياته ومعلومات استخبارية ثابتة عن مكانه، وتضم هذه الملفات أيضا المعلومات التي تسمح لصناع القرار في الولايات المتحدة بالاختيار بين أربعة مسارات عمل هي: أولا الاستمرار بعدم القيام بشيء سوى مراقبة الشخص، والثاني العمل مع الدول الشريكة وقواتها الأمنية لقتل الهدف أو اعتقاله، أما الخيار الثالث فهو تحويل بياناته إلى بلد آخر والسماح لهم بالتعامل مع المشكلة، أما الخيار الرابع فهو العمل ضد الهدف من جانب واحد.

ولكن في الوقت الذي كانت فيه شبكة العمل الغربية قد بنت صورتها بشكل ثابت على أساس شبكة المقاتلين الأجانب خارج العراق، لكن كان هناك فرق حاد بين وجهة نظر قيادة العمليات الخاصة للعدو داخل البلاد ورؤية القوات المتعددة الجنسيات في العراق، أي القيادة العسكرية التقليدية للقوات المتعددة الجنسيات في العراق برئاسة الجنرال الأمريكي جورج كيسي.

وكانت وجهة نظر موظفي ماكرستل مقتنعة أن تنظيم القاعدة في العراق وخصوصا دخول الزرقاوي إلى شبكة المقاتلين الأجانب يمثل تهديدا كبيرا، لكن كيسي كان غير مقتنع بذلك، وخلال النصف الأول من عام 2005 واصل مقر كيسي تركيز اهتمامه على عناصر النظام السابق.

لقد كان هناك أيضا مصادر جديدة للتوتر بين قوة مهام ماكرستل والقوات الأمريكية التقليدية في العراق، فالقادة التقليديون حاولوا بجهودهم الصبورة بناء علاقات مع المجتمعات السنية في مناطق عملياتهم والتي أزعجتها الغارات المدمرة لفرقة المهام والتي لا يمكن السيطرة عليها، وكان الجيش النظامي يشعر بالغيرة من حصة قيادة العمليات الخاصة من الأصول الاستخبارية وخصوصا فيما يتعلق بطائرات الاستطلاع من نوع المفترس (بريداتور).

وعلى الرغم من أن كيسي كان أعلى رتبة عسكرية من ماكرستل إلا أن ذلك لم يساعد في الأمر فقد كانت توجيهات قيادة فرقة المهام تأتي مباشرة من القيادة المركزية في تامبا بدلا من القوات المتعددة الجنسيات في العراق، وبعبارة أخرى كانت القيادتين العسكريتين المحاربتين في العراق يقاتلان في حربين مختلفتين.

لقد تحقق تقارب من نوع ما بين القيادتين في أيار، فقد تسببت سلسلة مدمرة من الهجمات المنسقة تنسيقا جيدا من قبل رجال الزرقاوي عبر محافظات الأنبار وبغداد وديالى باعتراف كيسي في

نيسان بمدى التهديد الذي يشكله تنظيم القاعدة في العراق وتعريف التنظيم على أنه العدو رقم واحد لقوات التحالف، وفي الوقت ذاته في محادثة مع كيسي عرض ماكرستل تركيز فرقة مهامه إلى الغرب لدعم الجهود التقليدية لمكافحة جماعة الزرقاوي بالقرب من الحدود السورية، وقد كفلت هذه الخطوة مواجهات أكثر دموية بين قيادة العمليات الخاصة المشتركة والقاعدة في العراق، وقد رفع ماكرستل من الرهانات لكن كان يشعر أنه لم يكن لديه خيار آخر.

بحلول خريف عام 2004 قرر قائد العمليات الخاصة المشتركة القيام بما وصفه باستراتيجية «قطع الرأس الصارمة» أي استراتيجية تهدف للقبض على أو قتل الزرقاوي وغيره من كبار الإرهابيين، والتي من غير المرجح أن تنجح، وبدلا عن ذلك ركز عمل قوة المهام على إزالة الكادر الأوسط من قادة القاعدة في العراق من خلال تجريد القاعدة من هيكلها الإداري من ذوي الخبرة والذين يديرون مفاصلها يوما بعد يوم وهو أمر أسرع من استبدالها، وكان ماكرستل يهدف إلى ضرب شبكة الزرقاوي قبل تمددها.

لقد كان تصميم فلين الراديكالي الاستخباري لقوة المهام يمكّن من هذا، لكنه مع ذلك كان يتطلب عملا مكثفا من الجهد يتطلب زيادة هائلة في وتيرة العمليات، وفي ذلك الوقت كانت العناصر البرية في قيادة العمليات الخاصة المشتركة في العراق تتضمن سربا من الدلتا يتكون مقره من قوة هجومية في معسكر فرنانديز (فرقة

المهام المركزية)، لكنها أيضا تضم فرقا موزعة حول المدن السنية الرئيسة مثل تكريت والموصل وبوجود دعم عناصر الرينجر والدلتا في الموصل أصبحت قوة المهام الشمالية، ومن أجل أن يتمكن من التوسع غربا للضغط على شبكة الزرقاوي جلب ماكرستل في صيف 2005 سرب الدلتا الثاني في براغ وتشكيل فريق قوات SEAL Team 6 وسرب قيادة للخلية فضلا عن فصيل الرينجرز لقاعدة الأسد لقوة المهام غرب العراق.

كما قام ماكرستل بنشر قوات SEAL Team 6 كاملة من سرب آخر في العراق وقام بحله ونشر مشغليه حول مختلف الفرق الخضراء وكل ذلك كان يتطلب نقل بعض قواتSEAL Team 6 وقوة المهام البنية من أفغانستان إلى العراق.

لقد أعلن ماكرستل خطته لزيادة القوات في العراق لتسهيل الحملة في وادي غرب الفرات والتي لم تجرِ بشكل جيد مع عناصر قوة المهام القتالية، فيما قال مصدر من قوة المهام البنية «لم يكن الكثير من الناس في الخارج مع توسع ماكرستل، فقد شعروا أنهم كانوا سيتورطون في العراق»، وقد اعترف ماكرستل أن مشغلي الدلتا قابلوا قراره المثير للجدل بتعنت في البداية، وقد تميزت علاقة الجنرال مع قوات الدلتا بحرب متبادلة منذ أن تولى قيادة العمليات الخاصة المشتركة، فحينما زار مقر الوحدة في معسكر فورت براغ بعد توليه القيادة مباشرة، شعر وكأنه قادم من الخارج،

وكأنما لم يخدم هناك، فالكثير من الدلتا كانوا يرون تقليديا مقر قيادة العمليات الخاصة المشتركة كشيء يضيف المزيد من البيروقراطية وقيمة تشغيلية قليلة.

لكن كان هناك اثنان من الأشياء يعملان لصالحه، وهما أولا إنه كأحد أفراد الرينجر فقد تخرج من الفوج نفسه الذي كانت منه الدلتا تستقطب المزيد من مشغليها، والأمر الثاني إنه لم يكن ديل دايلي، كان الكثير من قوات الدلتا قد وجدوا أن في عدوانية ماكرستل تغييرا مرحبا به مما اعتبروه منهج دايلي الحذر أكثر من اللازم.

مع ذلك وحينما جمع ماكرستل قادته في أيار من عام 2005 لشرح منطق الزيادة التي قررها، ووجه بالقليل من الحماس فقد شعر ضباط الدلتا بالقلق من أن العمليات في غرب الأنبار ستضعهم بعيدا عن التأهب العاجل وعمليات الدعم الأخرى التي كانت عليها عملياتهم في بغداد، كما أنهم كانوا قلقين أيضا من أن نشر سربين من أسراب الدلتا الثلاثة دفعة واحدة من شأنه أن يعرقل - وربما بشكل دائم - الجدول الزمني الذي يتم التحكم فيه بعناية والذي أبقى سربا واحدا لنشره في حال الاستعداد في المقر حيث يكون هناك سرب يرتاح ويتم تدريبه وتجديده وسرب في حال الاستعداد. فيما قال مصدر في فريق العمل البني إن «فريق العمل الأخضر كان يعتقد أنه تم استغلاله، كما أن الزيادة غربا كانت تتطلب جهدا كبيرا من الفريق البني والذي كانت معظم طائراته في قاعدة بلد مع مفرزة

صغيرة في معسكر فرناديز وتم بناؤها كما لو أنها كانت الكتيبة الأولى، ولذا لم يكن لدى الفريق البني تلك المرونة التي يملكها الفريق الأزرق والأخضر والأحمر والتي تتمتع بثلاثة عناصر من المناورة الأرضية بشكل مفصل، كما لم يكن الجميع متحمسا بشأن زيادة الوتيرة التي يتوقعها ماكرستل من فريق العمل».

وفي الوقت الذي كانت فيه الكتائب والأسراب والمراتب الدنيا يمتلكون شخصياتهم ونهجهم الخاص، كان بعضٌ من قوات الدلتا مترددين أولا بشأن توسيع أهدافهم المحددة لتشمل المقاتلين من الدرجة الأدنى في تنظيم القاعدة في العراق، وثانيا بشأن ضرب الأهداف فورا بدلا عن مراقبتهم للحصول على المعلومات الاستخبارية.

ومن بين الفرق الهجومية الثلاث وهي الدلتا وفريق SEAL Team 6 والرينجرز كانت الدلتا مليئة بالمشغلين الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين عاما وكانت الوحدة الأكثر ارتباطا بالصبر التكتيكي وهذا ما خلق مشاكل خاصة في العراق وأفغانستان حينما وضع ماكرستل قائد كتيبة الرينجر مسؤولا عن فرق العمل وبضمنها قوات الدلتا، لكن ماكرستل لم ينكرانه من خلال مزج شخصيته القوية ودعم المرؤوسين الرئيسين مثل غريس فارس ورئيس عرفاء قوات الدلتا وسكوت ميللر الذي حل محل ساكوليك كقائد لقوات الدلتا في وقت من مبكر من ذلك الصيف، هو من جعل سياسة الزيادة تنجح لدى ماكرستل.

وقال مصدر في فريق المهام البني «كان يجب أن تمنح ماكرستل الضمان لأنه قاتل عبر كل ذلك، وعبر كل المقاومة التي واجهته لكي يفوز بالأساس «لقد كانت المخاطر عالية، فيما حذر ماكرستل الجنرال جون أبي زيد من ارتفاع الإصابات بين صفوف فرق المهام.

لكن ماكرستل كان يعرف أيضا أن الفشل في العراق كان قريبا بشكل ملموس، وكانت مسؤولية تسمية التحرك غربا تعود لجون كرستيان الذي عاد إلى العراق في جولة أخرى كقائد لفرقة المهام، لقد كانت التسمية التي اختارها تحمل طبيعة المقامرة وهي «عمليات عيون الافعى».

لقد بدأت قوات الدلتا غارات متزايدة من قاعدة الأسد في أواخر شهر أيار، فيما بدأت قوات الزيادة في الوصول في تموز من عام 2005، وبحلول ذلك الوقت كان تنبؤ ماكرستل بشأن أعداد الضحايا قد تحقق، ففي الحادي والثلاثين من أيار كانت غارة وصفها ماكرستل بأن الهدف كان «موقعا محصنا للعدو» في منطقة القائم أدّت إلى مقتل العريف الأول ستيفن لانجماك وهو أول مشغل من قوات الدلتا يُقتل أثناء العمل خلال فترة عامين بسبب إصابته بنيران أسلحة صغيرة، وكان عريف العمليات الخاصة البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما قد انضم إلى قوات الدلتا منذ العام الماضي فقط، لقد كَانت إشارة الجنرال ماكرستل إلى «موقع العدو المحصن» مفيدة، فقد كان المتمردون قد

أصبحوا عارفين بتكتيكات الدلتا وكانوا يشددون على حماية المنازل الآمنة التي يتحصون بها توقعا منهم لغارات الدلتا، وبعد أسبوعين ونصف أدى الهجوم الذي قام به سرب بي على منزل آخر في القائم غير مدركين أن المتمردين كانوا قد بنوا في داخله مخبأ، وقد استقبلت نيران الأسلحة الاتوماتيكية المشغلين أثناء اقتحامهم للمنزل مما أسفر عن مقتل العريف بوب هوريغان ومايكل ماكنولتي وانسحب الفريق المهاجم مستدعيا الطائرات للقيام بغارة جوية على المنزل، لكن الأضرار الحتمية التي حلت في الوحدة قد حصلت على الرغم من كل شيء، وكان هذا الهجوم الذي حصل في 17 حزيران هي المرة الأولى التي تخسر فيها قوات الدلتا أكثر من مشغل في عملية واحدة منذ عمليات العاصمة الصومالية مقديشو في تسعينات القرن الماضي.

كتب ماكرستل أن «الوفيات الثلاث قد أصابت الوحدة بالقشعريرة»، فيما قال مصدر من الدلتا «كانت خسارة هوريغان ضربة قاسية للغاية، وقد تأثر الكثير من الرجال لفقدانه، فقد كان محترما ومحبوبا من قبل الكثير من رجال الدلتا «مشيرا إلى أنه «كان على وشك التقاعد والتفرغ للتركيز على عمله المزدهر في صناعة السكاكين».

في منتصف عام 2005 حدثت أربعة تغييرات رئيسة في عمليات فرقة المهام في آن واحد، وهي التوسع غربا في العراق، والارتفاع

الكبير للقوات الأمريكية المشاركة في البلاد، والتحول من استراتيجية «قطع الرأس» إلى استراتيجية التركيز على المتمردين في المستوى الوسطي من عصابات القاعدة، والرابعة هي القيام بالعمليات في النهار.

لقد كان السبب في الاستراتيجية الأخيرة بسيطا جدا، فقد قال مصدر في قوة المهام البنية إن «الأشرار كانوا يزدادون ذكاء في معرفة تكتيكاتنا الليلية، فقد كنا نضرب أهدافا طوال أكثر من عام في بغداد، ومعظم تلك الغارات كانت تبرز من خلال الإشارات الاستخبارية التي يتم الحصول عليها من مراقبة هواتف المتمردين».

وأضاف أن «القاعدة في العراق قد غدت أكثر حكمة في هذا الأمر، فقد كانوا يستغنون عن استخدام هواتفهم المحمولة ليلا، وكانوا يتوقفون عن القيام بالعمليات أثناء الليل ويبدؤون عملياتهم نهارا «لذا قال ماكرستل لأحد قادة فريق المهام الأخضر المؤثرين «حسنا.. نحن بحاجة للبدء في ضرب تلك الأهداف خلال النهار».

لقد كان هناك تأثير كبير على فرقة المهام البنية إلى جانب التوسع غربا، ففي الوقت الذي كانت فيه قوات الدلتا في بغداد ترسل قوة الهجوم البرية الخفيفة إلى الهدف مباشرة، كانت المسافات في غرب العراق واسعة جدا ولذا كانت القوة الهجومية في كثير من الأحيان تتكون من طائرات الهليكوبتر، ولذا غدت هذه العبارات مختصرات وأفعالا في كلام قيادة العمليات المشتركة، فالمشغلون

عادة ما يتكلمون بعبارة «GAFing» للدلالة على قوة الهجوم البرية وعبارة «HAFing» للدلالة على قوة الهجوم الجوية بطائرات الهليكوبتر.

وقال مصدر في فرقة المهام البنية إن «التحركات المحتملة للقيام بعمليات في النهار مثلت حدثا حساسا لطواقم فرقة المهام البنية والذين كانوا غير راغبين بالطيران نهارا فهم كانوا يعرفون باسم الملاحين الليليين»، لقد كانوا معتادين على الطيران ليلا حيث يمكن إخفاؤهم طائرات الهليكوبتر بسهولة أكبر عن أسلحة المتمردين الصغيرة وصواريخ آر بي جي.

لقد ضغط الملاحون الليليون على قائد فرقة المهام البنية اللفتانت كولونيل ستيف شيلر من أجل الردّ على ماكرستل وفرقة المهام الخضراء وقد نقل شيلر حججهم إلى القيادة العليا قائلا لماكرستل «إذا كنتم ستقومون بذلك فستسقط لدينا طائرات هليكوبتر»، لكن القائد العام أجابه أنه مستعد لتحمل المخاطر».

في الوقت الذي قسمت فيه فرقة المهام البنية بين طواقم التنبيه النهارية والطارئة الليلية وصل الطيارون إلى فترة زيادة مهماتهم الخطيرة على نحو متزايد، لقد كانت الخسائر تتصاعد بين صفوف الدلتا وكانت الوحدة غير معتادة على تلقي الإصابات بشكل فردي.

في الخامس والعشرين من شهر آب ضربت قافلة تابعة لقوة المهام كانت تسير في بلدة حصيبة بالقرب من الحدود السورية

بعبوة ناسفة محلية الصنع مكونة من ثلاثة الغام مضادة للدبابات مكدسة فوق بعضها، ودمر الانفجار مجموعة عجلات من سرب الفريق B مما أدّى إلى مقتل ثلاثة جنود على الفور وإصابة عدد آخر من المشغلين، وضربت سيارة قائد الفريق لكنه نجا من الحادث.

لقد غدا القتال في الأنبار الاختبار الأكثر دموية في صراع الإرادات التي واجهتها قوات الدلتا عبر تاريخها، فيما قال أحد طياري طائرات الهليكوبتر من طراز ليتل بيرد إن «50 بالمئة من القوة المتواجدة هناك أصيبوا بجروح خلال دورة واحدة قام بها السرب هناك لمدة ثلاثة اشهر»، كما أن حقيقة أن أولئك الضحايا من العسكريين كانوا يطاردون أهدافا من مستوى أدنى من عصابات القاعدة زاد من إحباط بعض من مشغلي قوات الدلتا، لكن قوة إرادة ماكرستل المطلقة إلى جانب قوة الشخصية التي كانت بها قوات الدلتا تغربل جميع المتقدمين إليها يعني أن قوة المهام كانت تتقدم بغض النظر عن التكلفة، فيما قال ضابط في فرقة المهام «لقد كان ماكرستل لا يسمح بأن تؤثر تلك الحوادث على أي شخص بلا هوادة، فقد بقي على مهمته وكان يتسمر في الضغط عليها».

لقد غدا حماس ماكرستل حتى الآن هاجسا، وفي تشرين الأول بدأ عامه الثالث كقائد لقيادة العمليات الخاصة المشتركة كان يمضي العامين الأوليين منهما متقدما، فقد منح جميع من حوله انطباعا بأن الشيء الوحيد المهم في حياته هو القتال ضد القاعدة

في العراق، وإن هذا الشيء هو الأمر الوحيد المهم بالنسبة لديهم، كانت رسالة له قادته إلى الوطن في مؤتمر داخل دائرة تلفزيونية مغلقة ومحادثاته شخصا لشخص مع المرؤوسين لديه، حيث قال لأحد القادة الذين كانوا يحاولون ضمان عودة جنود قواته لبعض الوقت الى البلاد «إنني أريدهم أن يدركوا أن ليس لديهم حياة، فهذه هي حياتهم»، وقد كان هذا التصميم الثابت سيفا ذا حدين ففي الوقت الذين كان يعتبر ملهما للكثيرين كان أيضا يحرك بعضا من الآخرين باتجاه خاطئ.

وقال أحد قادة ألوان فرق المهمات التابعة لماكرستل «لقد كان هذا المتأنق صعبا كالمسامير، وربما يكون أفضل جنرال حرب كان لدينا منذ الجنرال جورج باتون في الحرب العالمية الثانية «، مضيفا «لكن القصور في ذلك إنه كان يتوقع أن ذلك كان موجودا لدى الجميع، وإنه لم يكن يدرك أن الجميع ليسوا كلهم على هذا المستوى».

لقد لخص الجنرال نظرته هذه خلال زيارته السرب B في منطقة القائم في 28 آب من عام 2005، فقد كتب قائلا «قلت للرجال هناك في ذلك اليوم ما الذي أؤمن به، وما الذي أصبحت عليه حياتي، إنه القتال، إنه القتال، إنه القتال».

طوال العام 2005 واصلت فرقة المهام في العراق تكثيف تكتيكاتها وتقنياتها وإجراءاتها، كما زادت من وتيرتها التشغيلية، ومع ارتفاع عدد الغارات بشكل دراماتيكي فإن كمية المواد التي

ضبطت في تلك الغارات، تحت قيادة مايك فلين، قد غيّرت ما كانت تقوم به فرقة المهام مع تلك المواد والتي لم تكن في الأصل من أولويات أيّ أحد، فقد كانت فرق الهجوم تقوم بوضعها في أكياس القمامة وتضع عليها ملاحظات ملصقة.

لقد تغير الأمر في صيف عام 2005، فقد أسس فلين وشغل سلسلة من مساحات العمل في قاعدة بلد حيث قام المتخصصون بإزالة كل قطعة ملاحظة من أكياس القمامات فضلا عن تجميع المواد التي كانت تؤخذ من جيوب المعتقلين والأجهزة الرقمية التي تم الحصول عليها من الأهداف، كما ضمن مدير استخبارات قيادة العمليات الخاصة المشتركة بأن قادة فرق الهجوم الذين استطاعوا القبض على مشتبه بهم قد شاركوا في استجواب المعتقل حتى يتمكن من شرح الظروف الدقيقة التي تم فيها اعتقال المشتبه به وأي من المواد تم الاستيلاء عليها.

لقد حدث تقدم كبير حينما التقى ماكرستل وفلين برجل يدعى روي ابسيلوف أثناء زيارته لمقر وكالة الاستخبارات المركزية، فقد كان ابسيلوف يدير المركز الوطني للاستغلال الإعلامي لوكالة استخبارات الدفاع (NMEC) في فيرفاكس بولاية فرجينيا، وقد عرض تقديم المساعدة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة في استخلاص المعلومات الاستخبارية المفيدة من المواد التي تم الاستيلاء عليها أثناء الغارات.

كانت فرقة المهام تسيطر على كمية هائلة من النطاق الترددي، وهو ما مكّنها من مراسلة المركز الوطني للاستغلال الإعلامي لوكالة استخبارات الدفاع (NMEC) بشكل مباشر عن كل المحتويات التي تم الحصول عليها في المهمات، وفي فيرفاكس كان موظفو ابسيلوف الثلاثون يستخدمون برمجيات مبتكرة ليست فقط من أجل الدخول إلى البيانات من محركات الأقراص المدمرة، بل أيضا تجميعها لخلق صورة أفضل عن شبكات الإرهاب.

كان ابسيلُوف وفريقه مسؤولا عما أطلق عليه ماكرستل تسمية «التحسن المضاعف» في قدرة قوة المهام في معالجة المواد الخام التي تم الاستيلاء عليها في العمليات الاستخبارية، وقال قائد في العمليات الخاصة إن «قوة المهام أنشأت قاعدة بيانات شبكة اجتماعية وكانت كل غارة تجعل البيانات أفضل».

في تلك الأثناء وبينما كان ماكرستل وفلين يعملان على تحسين وإصلاح عمليات المعتقلين لفرقة المهام فإن كلا من وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع ومكتب التحقيقات الفيدرالي قد أعادوا الاتصال مع قيادة العمليات الخاصة المشتركة بعد إبقاء قوة المهام طويلة الذراع نتيجة للمخاوف بشأن التعسف تجاه المعتقلين.

منذ البداية الصعبة كان جهد ماكرستل لبناء «شبكة يمكنها هزيمة الشبكة الإرهابية» يتجاوز ربما حتى توقعاته الخاصة، وفي ذروة الحملة ضد القاعدة في العراق كان هناك ما يقرب من 100

ممثل عن الاستخبارات المركزية وثمانين عنصرا ممثلا عن مكتب التحقيقات الفيدرالي في قاعدة بلد.

وقال عقيد متقاعد من القوات الخاصة «لقد كانت لدى ماكرستل قدرة ملحوظة لجلب الجميع تحت خيمة واحدة وجعلهم يشعرون كأنهم لاعبون في فريق واحد».

وأضاف «لقد كان قرار ماكرستل بتصميم قيادة عمليات مشتركة تفضي إلى التعاون يؤتي ثماره»، فيما قال أحد الضباط الذين زاروا فرقة المهام في العراق «كان الجميع يرتدون قبعات مختلفة، لكنهم جميعا كانوا يعملون معا».

على الرغم من أن الجهد الرئيس الذي كانت تبذله فرقة المهام يتركز في الانبار، إلا أن مكوناتها الأخرى لم تستسلم، فعناصر قوات الدلتا في الموصل أيضا كانت عالقة هناك بشكل كبير فيما أحد مشغلي الدلتا «لقد كانوا يطلقون النار على الكثير من الرجال في شوارع الموصل، فقد كانوا يتعرفون عليهم، أو يقبضون عليهم وهم يقودون سياراتهم فيطلقون عليهم النار أثناء حركة المرور ويستمرون بالسير»، ويبدو أن هذا كان يتناقض مع ما كتبه ماكرستل في مذكراته حيث قال «لم تكن قوة هجوم تحت قيادتي تذهب في مهمة بأوامر عدم إلقاء القبض على الهدف إذا ما حاول أن يستسلم»، مضيفا «نحن لم نكن فرقا للموت»، لكن الوصف الذي قدمه مصدر من فرقة المهام لعمل فريق الدلتا أثناء النهار في الموصل يبدو أنه يؤكد ادّعاء المشغل، فقد كانت الدلتا تقترب من أهدافها باستخدام

شاحنة مدنية صغيرة وكانت الشاحنة مزينة بديكورات مشابهة لما هو مستخدم في تلك المنطقة من الشرق الأوسط، لكن الغطاء الخاص لها والموضوع في النوافذ الخلفية يجعل السيارة كما لو أنها مليئة بالبطانيات، والواقع أنه كان يقودها المشغلون الذين كانوا متنكرين بزي السكان المحليين مع مشغلين آخرين كانوا يختبئون في الجزء الخلفي منها عن الأنظار.

لقد كان مشغلو الدلتا يقودون سيارتهم ضمن حركة المرور في الموصل وعيونهم على طريدتهم، وكانوا قادرين على استخدام تلك المركبة لينزلقوا إلى جانب السيارة المستهدفة ليسحبوا الباب إلى الخلف ويطلقوا النار على الإرهابي، وبعد عملية إطلاق النار على الهدف وأيّ شخص معه يقوم المشغلون بحمل الجثث وإعادتها إلى القاعدة.

مع مرور العام كانت هناك إشارات على أن مقامرة ماكرستل في غرب العراق تؤتي ثمارها، فقد انخفض عدد الهجمات بالسيارات المفخخة إلى80 بالمئة بين تموز وكانون الأول من عام 2005، وهو أمر نسبه ماكرستل إلى عملية عيون الأفعى، لكن عند نهاية كل فترة مزدحمة بالظلام حينما تقاعد كل من ماكرستل وفلين وميللر لصالح قوتهم الخضراء كان حينذاك يمكنهم النوم لبضعة ساعات مع ظهور الفجر، وكلٌّ منهم كان يعرف أن شخصا ما خلف الأسلاك فيما لايزال الزرقاوي يلوح في الأفق.

الفصل السادس

مقتل الزرقاوي

في أواخر حزيران من عام 2005 عاد الجنرال ماكرستل إلى الولايات المتحدة لاستضافته في مؤتمر قادة قيادة العمليات الخاصة في غيتسبورغ في ولاية بنسلفانيا حينما تلقى استدعاء من البيت الأبيض لحضور جلسة مجلس الأمن الوطني بشأن الإرهابي أبي مصعب الزرقاوي حيث وجد الجنرال نفسه في غرفة عمليات البيت الأبيض ليطلع الرئيس ومجلسه الحربي حينما ركز بوش عينه على ماكرستل قائلا هل ستقبض عليه؟ وأجاب ماكرستل سنفعل ذلك، وليس هناك شكّ في ذهني بحصول ذلك.

كانت واشنطن ترى الصراع معقدا في العراق الذي يجمع بين التمرد التقليدي والإرهاب الإسلامي والحرب الأهلية الطائفية فضلا عن أنه كان هناك صراع قبلي وحرب بالوكالة بين الولايات المتحدة وإيران وحرب مع تنظيم إرهابي يقوده رجل واحد يُدعَى أبا مصعب الزرقاوي زعيم التنظيم في العراق.

كان تفكير واشنطن ينعكس إلى حد ما من مقر جون كيسي في

بغداد والذي تحول من الشك من أن الزرقاوي كان يلعب دورا هاما إلى اليقين بأن عزله عن ساحة المعركة سيؤدي إلى انهيار الإرهاب.

لقد ضيعت قيادة العمليات الخاصة فرصة ذهبية في تجربة ذلك في العشرين من شباط عام 2005 بعد أن علمت أن الزرقاوي كان يتنقل على امتداد الطريق السريع على طول نهر الفرات بين الرمادي وراوة وخلال فترة زمنية معينة، وضعت قيادة العمليات كمينا محكما، لكن الزرقاوي تأخر عن الموعد المحدد بحيث خففت القوات الأمريكية من حراستها في الوقت الذي كانت تمر فيه سيارته أمامهم حيث انطلق سائق الزرقاوي من خلال حاجز قوات الدلتا بعد أن اقترب من نقطة التفتيش بسرعة عالية.

في ذات الوقت كان الزرقاوي في مرمى نيران قوة الرينجر وطلبت الإذن بإطلاق النار لكن الملازم رفض إعطاء الإذن لأنه ظن أنه لم يحصل على تأكيد إيجابي حول هوية الأشخاص في السيارة، هذا العمل أصاب فرقة الرينجرز بإحباط شديد، وأسرعت مركبة الزرقاوي، بينما كان سائق الزرقاوي الأردني الجنسية يتلفت نحوهم، لقد كان الزرقاوي قريبا بما فيه الكفاية لكي تتم ملاحظة أنه كان يحمل بندقية هجومية أمريكية ويرتدي سترة تكتيكية واقية من الرصاص من نوع بلاك هوك، فيما قال أحد أفراد العمليات الخاصة إن «الزرقاوي تغوط في سرواله من الخوف فقد عرف أنه وقع في الفخ».

لقد أبقت الطائرة المسيرة من نوع المفترس سيارة الزرقاوي تحت النظر حيث كان مشغلو قوات الدلتا يحلقون بها مدركين أن الزرقاوي وسائقه تتم مطاردتهما على طريق ثانوي، بينما كانت الطائرة تبعد عنهما ثلاثين ثانية فقط حيث قفز الزرقاوي من السيارة وترك السائق وجهاز لابتوب و100 ألف يورو معه ليتم أخذها، وقد حاول العاملون في مركز العمليات متابعته بواسطة الطائرة بدون طيار لكن في تلك اللحظة أصابت كاميرا الطيارة عطب وتحولت من مركز التضييق على الزرقاوي إلى زاوية واسعة لكي تظهر مناظر من المنطقة المجاورة وإلى أن تم إصلاح الخلل وعادت الكاميرا كان الزرقاوي قد تلاشى.

. في بداية عام 2006 بدأ حظ قيادة العمليات الخاصة يتغير حينما تمكنت القوات العراقية من اعتقال القيادي في زعيم القاعدة محمد ربيع والمعروف باسم أبي ذر وهو مواطن عراقي وزعيم ذو منصب كبير في تنظيم القاعدة في العراق، وكانت العمليات الخاصة تطارده منذ فترة، لكنه قام في شهر آب من عام 2005 بحيلة حيث نشرت أخبار في منطقته قالت بأنه مات، وزوّر في حينها جنازة كاملة ظهرت فيها والدته وهي تنوح وتولول عليه، وهو ما أدّى إلى توقف العمليات الخاصة عن البحث عنه، لكنه في الحقيقة لم يكن ميتا وكان في قبضة القوات العراقية.

. تمكنت قيادة العمليات الخاصة من خلال قنوات وزارة الدفاع

الأمريكية من إقناع العراقيين بنقل أبي ذر إلى سجن العمليات الخاصة في مدينة بلد، وقد أُخبر المحققون هناك أن الزرقاوي وأبو أيوب المصري كانا يبقيان بعض الأحيان في سلسلة من البنايات في منطقة اليوسفية جنوب بغداد، وقامت فرقة العمليات بعمل غير عادي حول تلك البنايات لأن محلل الاستخبارات كان مقتنعا أن أبا ذر لا يكذب، واستمرت عمليات المراقبة لتلك البنايات فيما بقيت الطائرات المسيرة متوفرة للمراقبة.

وفي شباط من عام 2006 وفي الوقت الذي تم فيه ترقية ماكرستل إلى رتبة فريق بثلاثة نجوم نجح الزرقاوي في إشعال الحرب الطائفية بتفجير مرقدَي الإمامين العسكريين في سامراء، واشتبكت أحياء بكاملها على طول الخطوط الطائفية وبحلول ربيع عام 2006 أصبحت عملية مطاردة الزرقاوي لدى قيادة العمليات الخاصة أكثر أولوية من مطاردة ابن لادن والظواهري.

وتساءل مصدر في العمليات الخاصة في ذلك الوقت قائلا «مَن هو التهديد الأكبر؟» مجيبا «من الناحية العسكرية لقد تم تحييد ابن لادن، فهو لن يستطيع الذهاب إلى أي مكان، وهو غير قادر حقا على الحركة واتصالاته كانت ضحلة، لذا فإن الزرقاوي كان يمثل التهديد الأكبر».

ومع تكدس الجثث في مقالب القمامة في بغداد وطفوها في قنوات المياه، حشد ماكرستل قواته، ففي الثامن عشر من آذار عام

2006 أخبر ماكرستل مرؤوسيه أن فرقة المهام كانت مدعومة وذات مصادر جيدة، لكن عدم وجود تقدم واضح في العراق أعاد الناس إلى بيوتهم قلقين وقد انتقد أولئك الناس معتبرا إياهم انهزاميين.

بعد أقل من أسبوعين وفي الأول من نيسان أعاد ماكرستل تذكير قادته أن مهمتهم هو الفوز فيها هنا في العراق، وكان الطريق إلى النصر هو الضغط على تنظيم القاعدة في العراق وخطوط الاتصال المرتبطة مع سوريا والسعودية، وستقوم فرقة المهام في بعض الأحيان بعمليات مداهمة في سوريا وإجراء عمليات استخبارية في تلك البلاد.

وقال ضابط في قوة المهام «لم تكن هناك غارات في السعودية، لكن لدى قيادة العمليات الخاصة المشتركة أناسا هناك يقومون بأعمال استخبارية سرية يتم فيها إعادة الإرهابيين السعوديين الملقى عليهم القبض في العراق إلى بلادهم، ومن ثمَّ إقناعهم بطريقة أو أخرى بالعودة مرة أخرى للعراق للعمل كعملاء مزدوجين».

لقد اكتشف الإرهابيون أن قوة المهام كانت تفضل العمل ليلا، لذا بدؤوا بالقيام بالمزيد من أعمالهم الإرهابية نهارا، فيما قال أحد طياري طائرات ليتل بيرد «لقد كنا نشاهدهم نهارا عبر أجهزة الاستطلاع يتحركون بحرية، يقومون بكل أعمالهم ويرمون برسائلهم، ويختطفون الرجال خارجا يضعونهم في الشاحنات، ويذهبون بهم إلى الصحراء ثم يقومون بإعدامهم «وقد ردّت فرقة

المهام بزيادة تكتيكاتهم المفضلة لكل من مشغلي الدلتا وطياري الليتل بيرد وهو القيام بمنع المركبات من الجو أو القيام بما يسمى «AVI».

بحلول آذار من عام 2006 قامت فرقة المهام البنية بتقسيم طواقم طياري الهليكوبتر من طراز ليتل بيرد إلى فرق نهارية وليلية، لكي يكون هناك فريق جاهز للقيام بمهمة «AVI» من دون إشعار، وقد كانت هناك عدة طرق للقيام بهذه المهام، لكن اعتراض سيارة نموذجية يتطلب اثنتين من طائرات الهليكوبتر من طراز AH ـ 6 مع وجود قناصة على جانبيهما وزوج آخر من طائرات MH ـ 60K بلاك هوك مليئتين بالمشغلين، وكانت المهمة تبدأ من خلال طائرات الاستطلاع التي تتابع حركة مركبة الإرهابيين، حيث تبدأ باستدعاء الطيارين، الذين يتحققون من الرمز الرقمي، وكلما رأى الطيار صفا من المركبات تتسابق معلومات الرحلة إلى مركز العمليات لتقديم إحاطة سريعة عن نوع السيارة التي ستتم مطاردتها، مثل موقعها، ومن الذي يتواجد فيها ثم تذهب المعلومات إلى الطائرة بشكل مباشر حيث ينتظر المشغلون، فتبدأ حركة عمل المروحيات ويبدأ السباق، وكان أمل الإرهابيين الوحيد هو الدخول إلى حي مكتظ بالسكان، حيث كانت فرقة المهام تكره إطلاق النار خوفا من إيذاء غير المقاتلين.

وقال أحد طياري ليتل بيرد «إذا دخلت المركبة إلى منطقة مأهولة

بالسكان، كنا ننسحب وننتظر في الصحراء انتظارا لصاحب المركبة أن يتحرك مرة أخرى، فإذا دخل في الصحراء المفتوحة عادت اللعبة مجددا».

بعد مطاردة السيارة يبدأ أما رامي طائرة بلاك هوك عند الباب أو طيار الأباتشي من طراز AH ـ 6 بإطلاق طلقات تحذيرية حمراء أمام السائق لإعطاء الناس المتواجدين في المركبة فرصة للاستسلام، فإذا اغتنم الإرهابيون الفرصة واستسلموا تحط طائرة بلاك هوك إلى جانب أو خلف المركبة، وسرعان ما يقوم المشغلون بتقييد الإرهابيين وتفتيش السيارة، بينما تهبط طائرة هليكوبتر أخرى من طراز MH ـ 6 فينزل قناصوها لإقامة منطقة حظر على الطريق، لكن إذا لم تغتنم السيارة الفرصة وبدأت بإطلاق النار على طائرة الهليكوبتر فإن القناصة على بوابة طائرة MH ـ 6 والرماة على طائرة بلاك هوك كانوا مستعدين للقضاء على أية مقاومة عقيمة وقاتلة.

بحلول ربيع عام 2006 كانت طائرات ليتل بيرد تقوم بخمس مهمات استطلاع يوميا، وكان قادة القاعدة في العراق يعرفون جيدا أن مطارديهم هم أقوى قوات النخبة في الولايات المتحدة، وقد كان من السهل التعرف عليهم فهم كانوا يرتدون اللحى ويستخدمون الطائرات مثل ليتل بيرد وباندوس والمركبات والتي لا يمكن استخدامها من قبل أي وحدة عسكرية، وقد بدأ الإرهابيون بإطلاق أسماء مستعارة عليهم انتقاما وتنفيسا عن غضبهم، فكانوا يطلقون على المشغلين

تسمية «الموساد» بالإشارة إلى جهاز المخابرات الإسرائيلي، فيما أطلقوا على طائرات ليتل بيرد تسمية «النحل القاتل».

في ذلك الربيع استمرت فرقة المهام بمطاردة الإرهابيين على طول الحدود مع الأنبار مع التركيز أيضا على منطقة حزام بغداد، وهي المناطق والضواحي الريفية المحيطة بالمدينة، وكان وجود التحالف أقل في منطقة الحزام مما هو عليه في المدن، ولذا كانت القاعدة تستخدم تلك المناطق في العراق كمناطق دعم خلفية يمكن من خلالها ترهيب العاصمة، وكان هذا هو الحال بالخصوص في مناطق حزام جنوب بغداد في اليوسفية واللطيفية والإسكندرية والمحمودية والذي يعرف أحيانا بـ«مثلث الموت»، وقد أولت قيادة العمليات الخاصة المشتركة اهتماما خاصا بتلك المنطقة في أوائل عام 2006.

لقد كانت الضربة في قلب ذلك المثلث مجموعة من المباني في اليوسفية التي أشار إليها وحددها أبو ذر، وكان ذلك، واتجاه محللي الاستخبارات يقوم برصد تلك البنايات لمدة ثلاثة أشهر، وفي مساء الثامن نيسان أثمر صبرهم، فقد ظهرت أمام الشاشة رتل من السيارات يخرج من إحدى تلك المباني، وقد كان هذا الأمر كافيا لإطلاق فريق المنع النهاري للقيام بغارة.

حينما هبط مشغلو سرب C عند الهدف قبل الساعة الثانية بقليل فتح الرجال في البناية النار، وقد لقي خمسة مسلحين مصرعهم

في معركة عنيفة اندلعت بعد ذلك، فيما لم يقتل أي من أفراد فرقة المهام، لكن أحد طياري طائرات الهليكوبتر من طراز MH ـ 6 قد أصيب في قدمه وأصيب آخر بشظايا زجاج في وجهه حينما كان يقود في قمرة القيادة وتضررت كلا الطائرتين، فعادت واحدة منهما إلى القاعدة على الفور، وقد استطاع المشغلون جمع كميات كبيرة من المعلومات الاستخبارية كما عثر في أحد البيوت على سيارة من طراز فان تم تحويلها إلى قنبلة متحركة.

في تلك الأثناء وحينما كانت المروحيات في طريقها إلى الهدف شاهد محللو فرقة المهام المزيد من السيارات تصل إلى مبنى مجاور وبدأت الفرقة مداهمة ثانية ووصلت إلى المجمع المستهدف في الساعة 4.11 دقيقة عصرا، ولم يتمكن اثنا عشر رجلا تم العثور عليهم هناك من إيجاد مقاومة مجدية وسرعان ما تم تجميعهم على متن طائرات الهليكوبتر والعودة بهم إلى مجمع دعم الفرقة في معسكر فرنانديز.

في تلك الأثناء بدأ المحققون العمل على المعتقلين الجدد والذين تم نقلهم إلى قاعدة بلد، تبعت ذلك عدة مداهمات، ففي الساعات الأولى من يوم 16 نيسان كان عناصر من سربB التابع للعمليات الخاصة البريطانية SAS قد بدأوا للتو مطاردة أهداف للقاعدة في العراق كعنصر موازٍ لفرقة المهام التابعة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة منذ آذار الماضي.

كان الهدف يُدعَى لارشوود الرابع، وهو بيت زراعي في ضواحي اليوسفية، لقد كان المقاتلون الذين يدعون بالشفرات مثل مشغلي العمليات الخاصة البريطانية يعرفون كيف يواجهون اندفاع إطلاق النار، فبعد انسحاب أولي في البداية استأنفوا الهجوم بقوة وتمكنوا من قتل خمسة مسلحين، كان ثلاثة منهم يرتدون أحزمة ناسفة، وقد أطلق أحد مقاتلي الشفرة النار فقتل اثنين من مرتدي الأحزمة الناسفة قبل أن يتمكنوا من تفجير أنفسهم، فيما فجر الثالث قنبلته فقتل نفسه، ولم يُصَب أي أحد بجروح، واعتقلت SAS خمسة رجال آخرين، أحدهم أصيب بجروح، فيما عانى خمسة آخرون من جروح، بيد أن هناك إصابات أخرى في المنزل، فقد قتلت امرأة وتم إجلاء ثلاثة آخرين فضلا عن طفل تم نقله إلى مستشفى طبي عسكري أمريكي في بغداد.

لقد تبين أن حد المعتقلين كان مسؤولا في تنظيم القاعدة في منطقة أبي غريب، وهو الرجل الذي استهدفته قوة SAS في الغارة، ومن بين المواد التي استولى عليها البريطانيون في المداهمة شريط فيديو كانت قد تم تصويره من قبل القاعدة وأطلقته ضمن جناحها الدعائي في العراق وهو يظهر الزرقاوي مرتديا بيجامة سوداء وهو يطلق النار من سلاح اوتوماتيكي من طراز M249 وهو مدفع رشاش خفيف تستخدمه القوات الأمريكية.

بعد تسعة أيام أصدر تنظيم القاعدة نسخة معدلة من الفيديو نفسه

مما دفع الجيش الأمريكي إلى نشر اللقطات الخام، والتي تظهر أن الزرقاوي عديم الخبرة في هذا السلاح وعدم اهتمامه بدعوة المؤذن للصلاة في وقت التصوير والتي كان يمكن سماعها وهي تظهر في خلفية التسجيل الخام، فيما تضمن المشهد أيضا الزرقاوي وهو يجلس إلى جانب بندقية من طراز M4 مع قاذفة قنابل من طراز M203 وقد استولى مقاتلو شفرات SAS على هذا السلاح نفسه في منزل اليوسفية حيث يبدو أن هذه الأسلحة قد فقدت مع نظيراتها من البحرية ومن خدمة القوارب التابعة للبحرية الملكية البريطانية خلال مهمة فاشلة أثناء غزو العراق عام 2003، لكن وجود هذا السلاح بيَن لدى فرقة المهام أنها تقترب من هدفها وفي الواقع اشارت الاستخبارات بأن الزرقاوي نفسه لا يبعد عنهم سوى ألف متر.

واصلت فرقة المهام طحنها لشبكة الزرقاوي، على الرغم من أن كل غارة كانت تجري على أمل أن تستسلم الأهداف سلميا، لكن كانت النتائج أحيانا عنيفة للغاية، ففي يوم الخامس والعشرين من نيسان وهو اليوم نفسه الذي أطلق فيه الزرقاوي شريط الفيديو التابع له داهمت فرقة المهام الهدف «قرية جونسون»، وكان منزلا آمنا آخر في اليوسفية، وعند دخول القوات خرج رجل يحمل على كتفه صاروخا فأطلق عليه المشغلون النار مما أدى إلى مقتله على الفور وطبقا لبيان القيادة المركزية حدثت معركة عنيفة مع مقاتلين آخرين ظهروا والمشغلين المدعومين بطائرات الهليكوبتر، وتم قتل أربعة

رجال آخرين فيما كانت النيران مازالت تنطلق من المبنى، فقام المشغلون باستدعاء طائرة للقيام بضربة جوية ساوته بالأرض حيث عثر في الأنقاض على جثث سبعة رجال وامرأة.

كان كل رجل منهم يرتدي حزامين ناسفين وقنبلتين، بيد أن المعركة لم تكن دون كلفة بالنسبة للقوات الأمريكية فقد قتل الإرهابيون الرقيب ريتشارد هيرمان أحد مشغلي الدلتا في بداية إطلاق النار.

لقد كانت فرقة المهام تمثل الذراع العسكري للجيش الأمريكي في العراق، أو على الأقل فيما يتعلق بالعمليات ضد شبكة الزرقاوي، وفي الوقت الذي كانت فيه وتيرة العمل لدى فرقة المهام تقترب مما كان يتصوره ماكرستل وفلين، لكن قائد العمليات الخاصة كان يريد لقواته الدخول في معركة لا يتوقع أنها ستنتهي قريبا، فقد كتب ماكرستل في مذكرة لقواته «لقد كانت وستبقى حربا طويلة وخطيرة»، وهي واحدة من خمس مذكرات كتبها ماكرستل لقواته طوال فترة قيادته.

وأضاف «على الرغم من أن الهياكل الأولية والتكتيكات والتقنيات والإجراءات كانت قد تطورت بشكل هائل عما كانت عليه قبل عامين، لكننا مازلنا نعمل بآليات تشغيل تحتاج إلى تحسين لتكون أكثر فعالية واحترافية، ويجب أن نركز على أننا قوات لمكافحة الإرهاب وهذا ما يجب أن نقوم به».

وتابع أن «مرفق المعلومات الاستراتيجي سيعمق على المدى الطويل فهمنا للعدو، فأنا قبال مغامرتي في الحرب بطريقة اللباس والتزين، وفي كل الأحوال لا يتعلق الأمر بما هو سهل أو حتى ما يرتبط عادة بالمعايير العسكرية التقليدية، ولن يكون متعلقا حتى بما هو فعال، لكنه مرتبط بالطريقة الأكثر فعالية للعمل ونحن سنقوم بكل شيء لزيادة الفعالية حتى ولو بمقدار صغير، فاذا وجد أحد ما أنه غير مقتنع أو غير مريح فليس له مكان في القوات بالنسبة له، فالأمر متعلق بالفوز وصنع عدد قليل من الرحلات إلى مقبرة ارلنغتون في سبيل هذا الهدف».

في الحادي عشر من أيار كرر الرسالة نفسها لقادته التابعين من أجل تعزيز المتعصبين لأهميتها، حيث يتوقع منهم معاملة هذا النوع من القتال، لقد كان هذا جوهر ماكرستل، فقد قال أحد قادته إنه كان يتوقع من الجميع أن يكونوا متحمسين للمهمة التي هم عليها، فقد قال ماكرستل «إن الحياة صعبة الآن، فخذ الحرب واجعلها سببا لذلك».

لقد غدت الحياة أكثر صعوبة بالنسبة لفرقة العمل البنية، فبعد ثلاثة أيام حينما أمر اللفتانت كولونيل جو كويل قائد سرب الدلتا B بالهجوم بعد منتصف الظهيرة على الهدف «ليدفيل» وهو بناية أخرى بالقرب من اليوسفية، واجه المهاجمون إطلاق النار في اللحظة التي هبطت فيها مروحية بلاك هوك بجانب الهدف بالمدافع

الرشاشة وقذائف الهاون، وردّ المشغلون بالقتال حينما فتح رئيس الطاقم النار على مواضع الإرهابيين، وبالعودة إلى موقع دعم البعثة في معسكر فرنانديز.فقد تم إيقاظ طاقم قوة المهام البنية الليلي بشكل مبكر للطيران لنجدة طائرات الهليكوبتر في القتال، لكن كحال طواقم الليتل بيرد بالقرب من اليوسفية فقد وقعوا في كمين . وتم إسقاط طائرة من طراز AH ـ 6 كان يقودها الطيار الرائد مات وريل ومساعده جيمس ويك وقتل الرجلان في يوم عيد الأم.

وقد أصيبت عدة طائرات هليكوبتر بأضرار بالغة اضطرتها للهبوط، فيما تمكنت القوات البرية أخيرا من تأمين الهدف واعتقلت أربعة رجال كما تمّ إجلاء ومعالجة عدة نساء جريحات من المدنيين، لكن القتال كان شرسا جدا ولم يغادروا حتى حلول الظلام، وتم استدعاء سلسلة من الغارات الجوية على البنايات المحيطة.

لقد كانت هناك الكثير من التداعيات بعد معركة «ليدفيل» فقدم تم استبدال قائد سرب B جو كويل بالقائد توم ديتوماسو، وهذا ما يعني أن الأخير كان أيضا رئيسا في فرقة المهام المركزية، وشكلت المعركة أيضا نقطة تحول في تعامل فرقة المهام مع الأهداف التي يتم الدفاع عنها بشدة، فمنذ ذلك الحين أعطت قوات الدلتا وفرقة العمل البنية أولوية أقل للقبض على الأهداف وكانوا أكثر استعداد لاستخدام القوة النارية الساحقة منذ بداية القتال فيما قال أحد قادة

قوة المهام «لقد أخبرت الرجال أنه إذا كنتم تسيرون باتجاه هدف وأطلق النار عليكم شخص ما فقوموا بقتله».

لقد كان هناك ثمة عامل آخر وراء هذا التحول العقلي هو الإحباط الذي خبره المشغلون في مواجهة اعتقال الأشخاص المستهدفين بصورة متكررة لأن السلطات العراقية كانت تقوم بإطلاق سراحهم، لكن استراتيجية ماكرستل في تحطيم حلقات الدفاع حول الزرقاوي كانت تؤتي ثمارها، لذا كان مصمما على إضفاء الطابع المهني على قدرات فريق التحقيق في عمليات الاستجواب.

بحلول الأسبوع الثالث من شهر أيار وبعد أن خضع لعدة أسابيع من الاستجوابات الماهرة اعترف مسؤول القاعدة الذي ألقت عليه القبض وحدة العمليات الخاصة البريطانية SAS في الثاني من شهر نيسان في اليوسفية بتفاصيل عن قيادة جماعة ما يسمى «بالتوحيد والجهاد» حول بغداد، وكشف عن أن المدعو عبد الرحمن هو مستشار الزرقاوي الروحي.

على مدى ثلاثة أسابيع بدأت فرقة المهام بمراقبة عبد الرحمن على أمل أن يقودهم إلى الزرقاوي، وقد فعل ذلك في السابع من حزيران، فقد قامت طائرة بدون طيار بتتبع رحمن أثناء توجهه إلى الشمال في سيارة سيدان فضية خارج بغداد.

في موقع دعم المهمة في معسكر فرنانديز راقب ديتوماسو ومحلله الرئيس، عبد الرحمن وهو يقوم بتغيير سيارته في حركة

الزحام المرورية، ليقفز إلى شاحنة زرقاء صغيرة في محاولة ماهرة، لكنها لم تكن مجدية في إيقاف المراقبة.

من قاعدة بلد كان الكولونيل مارك اروين نائب قائد الدلتا وقائد قوة المهام العراقية يقومون بتوجيه طائرات استطلاع من جميع أنحاء العراق لتغطية منطقة شمال بغداد، فقد كان سرب اروين هو من فقد الزرقاوي بسبب خلل في كاميرا الطائرة بدون طيار عام 2005، لكنه الآن عازم على عدم فقدانه مرة أخرى حيث تابعت الطائرة الشاحنة وهي تتجه إلى مدينة بعقوبة، وانتقل عبد الرحمن من هناك بشاحنة أخرى واستمر في السير ليصل إلى بيت من طابقين في منطقة هبهب شمال شرق بغداد، وهي بلدة تقع على بعد عشرات الأميال فقط من مقر ماكرستل في بلد.

لقد شاهد المحللون والمشغلون والموظفون في قاعدتَي فرنانديز وبلد باهتمام رجلا متينا يرتدي ملابس سوداء يخرج من المنزل ليقوم بنزهة في وقت متأخر من بعد الظهر في طريق خاص قبل أن يعود مرة أخرى إلى المنزل، وهذا الرجل كان هو الزرقاوي.

كان فريق الهجوم على استعداد للانطلاق من قاعدة فرنانديز، لكن اروين لم يكن مرتاحا لغارة فريق هيلبورن وقلقا من أن المكان الوحيد الجيد للهبوط يقع على مسافة بعيدة من منزل الزرقاوي، وهو ما يمكنه من الهروب إلى بستان كبير من أشجار النخيل قريب من المكان، وقد ناقش اروين الوضع مع ماكرستل

ثم قرر أن يتم قصف الهدف فيما يتحرك فريق الدلتا بعد الضربة الجوية مباشرة.

لقد أدّت سلسلة من الحوادث إلى الخروج عن مسار الخطة، فقد فشل محرك طائرة الهليكوبتر لدى الفرقة البنية في البدء في العمل من معسكر فرناندیز، ثم كانت إحدى الطائرتين من طراز إف16 التي قررت فرقة المهام استخدامها في قصف المنزل بحاجة إلى التزود بالوقود جوا، فيما انتقلت الأخرى نحو المنزل لكنها لم تطلق القنابل لأن فرقة المهام المركزية لم تعطِ أوامر القصف بشكل صحيح، وأخيرا وفي الساعة 6.12 دقيقة مساء ألقت طائرة إف16 الثانية قنبلة من زنة 500 رطل موجهة بالليزر على المنزل، وأعقبتها بضربة بقنبلة ثانية في أقل من دقيقتين حولت المنزل إلى حطام، فيما كانت صيحات الهتاف والفرح تتعالى في مركز عمليات بلد.

بعد 18 دقيقة وصل مشغلو الدلتا على متن طائرة ليتل بيرد ليجدو أن الشرطة العراقية يحملون الزرقاوي على نقالة وأوقفوا الشرطة بقوة السلاح، كان المشغلون يدركون أن الزرقاوي مازال حيا، لكنه كان يعاني من إصابات داخلية شديدة، وقد مات أمام عيونهم، لقد كانت الأيام القليلة التالية مليئة بالطاقة المشوشة لماكرستل وفرقة المهام العراقية، فقد قتل القصف أيضا عبد الرحمن ورجلا آخر وامرأتين وفتاة، وكان هذا هو الزناد لقوة المهام التي أطلقت غارات متزامنة في تلك الليلة على المركبات الثلاث التي كان يتنقل

فيها عبد الرحمن في طريقه إلى منزل الزرقاوي والبنايات الأربعة عشر التي زارها أثناء عملية مراقبته، وكان الهدف من الغارات كما وصفها أحد موظفي قيادة العمليات الخاصة هو «سحق الشبكة الداخلية للزرقاوي في ليلة واحدة»، كما قامت فرقة المهام بنبش الأنقاض في هبهب للحصول على معلومات استخبارية وهو ما زاد من وتيرة عدد المهام.

لقد كان من الأشياء المُرْضية جدا وثيقة مكتوبة بخط اليد جاء فيها أن «الاستراتيجية الأمريكية في مثلث الموت كانت ناجحة، وأن كبار قادة القاعدة لم يعودوا قادرين على الاعتماد على المكان كملجأ آمن».

لقد تسبب مقتل الزرقاوي بشعور بالارتياح على كل مستويات القيادية، من قوة المهام المركزية إلى القيادات العليا، وقد اتصل الرئيس بوش في ليلة مقتل الزرقاوي بماكرستل لتهنئته، لكن أي أمل في أن مقتله سوف يؤدي إلى انكماش فوري في العنف لم يتحقق، فقد رقّت القاعدة في العراق بسرعة أبا أيوب المصري الذي كان مساعدا للزرقاوي ليحل محله زعيما للقاعدة، وارتفعت حصيلة الوفيات بين المدنيين في النصف الثاني من عام 2006، إلى أعلى معدل بعد شهر حزيران من الأشهر الستة الأولى من العام نفسه، وهو اتجاه استمر حتى عام 2007».

كان تقييم ماكرستل بليدا حينما كتب «لقد قتلنا الزرقاوي في

وقت متأخر جدا»، ومع تصاعد العنف إلى مستويات عليا كانت فرقة المهام تسعى لمواكبته، في العام 2006 كانت فكرة «العين الثابتة» التي بدأت مع سرب الدلتا وطائرة مسيرة واحدة من طراز «المفترس» في أوائل عام 2004 تؤتي ثمارها كاملة، فتحت قيادة فلين كانت فرقة المهام تسعى أن يكون لديها ثلاث طائرات استطلاع من طراز ISR تراقب الهدف في وقت واحد، وفي الواقع كان هناك ما يكفي في كثير من الأحيان من هذه الطائرات فوق بغداد والمدن الكبرى في الأنبار، فحينما يتم تفجير سيارة مفخخة كان المحللون يستطيعون سحب الفيديو المغذي من الطائرات العلوية ومشاهدته بالاتجاه المعاكس لتتبع مسار السيارة من نقطة البداية، وكان المحرك الرئيس لكل هذا هما ماكرستل وفلين اللذين قاما ببناء ذلك وهو يعمل بشكل تلقائي تقريبا.

في آب من عام 2004 أجرت فرقة المهام ثماني عشرة مهمة فقط، أما في عام 2006 فقد أجرت أكثر من 300 مهمة، وهي تهدف في ذلك إلى إجراء التحليل ونشر أجزاء من عملية «F3EAD» بعد ساعة من الخروج من الهدف، فيما قال ماكرستل «علينا أن نعمل بالسرعة التي تجري فيها الحرب»، فيما قال أحد ضباط من قوة الرينجر إن «ذلك يعني أسرع، فأسرع، فأسرع».

لقد كانت قوة المهام تنمو وشملت بشكل روتيني ما يسمى بفصيل «القوة البيضاء»، وهي قوات خاصة كانت تقوم بالمهام

بشكل مباشر، ولذا كانت لكل مجموعة من فرقة المهام المختلفة قوتها البيضاء الخاصة بها وتُدعَى قوة قيادة مهام مقاتلة في قوتها القصوى أو ما يدعى «CIF» وتلفظ «سيف»، لأنه تم تصميمها لإعطاء قائد القوة المقاتلة المحلي، عند الطلب، قوة لمكافحة الإرهاب في حال عدم توفر قوة المهام التابعة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة.

كانت قوات «CIF» ترتبط بعلاقات تدريب مشتركة مع الدلتا وتتحرك بالتناوب في العراق لدعم قوة المهام التابعة لماكرستل، وفي عام 2006 حصل ماكرستل أيضا على كتيبة من الفرقة 82 المحمولة جوا والتي تدعى قوة المهام «فالكون» مع تعزيزاتها ليتم إلقاؤها في المعركة، وقد واصلت فرقة المهام سيرها المخيف خلال فصل الخريف.

لقد كانت واحدة من أبرز المعارك التي خاضتها، معركة دفاعية، ففي السابع والعشرين من تشرين الثاني عام 2006 كانت إحدى المهام النهارية المحظورة لطائرة تستهدف حد مقاتلي القاعدة الأجانب من مسهلي دخولهم لم تفلح، حينما أسقطت قذيفة آر بي جي طائرة هليكوبتر من طراز AH ـ 6 بين منطقة التاجي وبحيرة الثرثار حوالي خمسين كيلو متر شمال بغداد (كانت القوة المهاجمة في طريقها إلى موقع كبير في الصحراء بانتظار سيارة الهدف حينما وقع الحادث)، وكان هناك عدد كبير يفوق القوة من الإرهابيين

والمسلحين الذين وصلوا في شاحنات متتالية، وقد وجدت القوة المهاجمة نفسها بدون مأوى في الصحراء المفتوحة، وقد ظلت طائرة القوة المتبقية من طراز AH ـ 6 ليتل بيرد والتي كان يقودها الطيار ديف كوبر والذي قام بالكثير من أجل إيقافهم حيث قام مرار وتكرارا بتمشيط الإرهابيين وكان لكوبر الفضل في تحويل مجرى المعركة، وحصل بعد ذلك على وسام الصليب المتميز لجهوده في المعركة، بقيت القوة المهاجمة في الموقع حتى حلول الظلام، لكن المأساة وقعت حينما حلقت طائرة إف 16 لدعم القوة المهاجمة على ارتفاع منخفض جدا مما أدى إلى تحطمها ومقتل الطيار.

ركزت غارات أخرى في ذلك الشهر على جماعة أنصار السنة وهي جماعة إسلامية يقودها الأكراد كانت متحالفة مع تنظيم القاعدة في العراق، لكنها ليست جزءا منه بشكل رسمي، فيما شملت جهود التحالف التصالح مع بعض المجاميع السنية المتمردة لعزل القاعدة في العراق بضمنها جهود لفصل جماعة انصار السنة عن تنظيم القاعدة في العراق، لكن وعلى الرغم من أن قيادة العمليات الخاصة والكثير من بقية مجتمع الأمن القومي الأمريكي كانوا يركزون بشكل خاص على التمرد السني في العراق وتنظيم القاعدة منذ عام 2004، بدأ تهديد مختلف بالظهور وهو تهديد يمكن القول إنه كان أكبر تهديد للقوات والمصالح الأمريكية في المنطقة من التمرد السني، فقد كان عدوا يعود أصله

إلى موضوع ولادة قيادة العمليات الخاصة المشتركة والذي لم تكن قوة المهام العراقية التابعة لها مهيأة له بشكل استثنائي، وكان هذا التهديد هو إيران.

الفصل السابع

حملة جديدة ضد عدو قديم

في الخامس والعشرين من حزيران عام 2004 بدأ العنف يتصاعد في العراق، بينما طالبان بدأت بتجميع وشدّ نفسها من جديد في أفغانستان، وكانت قيادة العمليات الخاصة الأمريكية قد بدأت بالفعل في نشر عامليها في القرن الأفريقي واليمن.

لكن منذ اليوم الأول في الاجتماع الذي استمر لثلاثة أيام لقادة العمليات الخاصة في قاعدة فورت براغ في الولايات المتحدة بقيادة ستانلي ماكرستل بدأ النقاش حول إيران، وكأنما كانت المناقشة خارجة من نهايات التسعينات من القرن الماضي.

وكان السؤال الأهم هو كيفية هزيمة الأهداف العميقة والمدفونة في الملاجئ تحت الأرض داخل ايران والتي تعتقد الولايات المتحدة أنها تضم البرنامج النووي الناشئ في إيران، حيث أشارت المخابرات أنه لا يمكن لسلاح جوي أن يضرب بعمق بما فيه الكفاية ذلك البرنامج الموجود في المستودعات، حيث يعتقد أنه مدفون بمئات الأقدام تحت سطح الأرض وقد تحولت قيادة

السلطة الوطنية الأمريكية إلى قيادة العمليات الخاصة من أجل البحث عن حلول.

منذ ذلك الحين كان الفريق السادس في قيادة العمليات الخاصة «TEAM 6» هو الذي يقود الوحدة من أجل مكافحة الأسلحة النووية لكن أيّ هجوم على المنشآت النووية الإيرانية يتطلب وجود قوة الدلتا، ذلك إن قيادة العمليات الخاصة كانت تدرس القيام بغارات متزامنة على مواقع منفصلة فهي بحاجة لمعدات الدلتا الثقيلة للوصول إلى المخابئ، مع ذلك فإنه حتى الفحص السريع للتحديات المرتبطة بهذه العملية جعل القادة يتوقفون، فعلى عكس الكثير من عمليات المكافحة التي خططوا لها فإن تلك المهمة ليست من المهام الآمنة التي تتعلق بعدد قليل من الإرهابيين، لكنها كانت مهمة واسعة النطاق والتي تتطلب قيام قيادة العمليات المشتركة بتأمين اثنين من المرافق الرئيسة وهو الأمر الذي يحتاج للكثير من الجنود، وربما أكثر من وحدة خاصة يمكن حشدها.

وكان القادة والمخططون يفكرون من أيّ مكان يمكن أن تنطلق هذه المهمة؟ أمن العراق أو الكويت أو قطر؟ أومن بارجة في الخليج؟ كل تلك الخيارات لها عيوب، وكانت النتيجة إنه «لا أحد يريد حقا القيام بعملية مباشرة ضد المنشآت النووية الايرانية»، بحسب مصدر مطلع على تلك النقاشات.

وكوحدة لها المسؤولية الأساسية في مهمة عن مكافحة انتشار

الأسلحة النووية قام الفريق السادس «TEAM 6» بواجبه، ولم تكن هي المرة الأولى التي وجهت بها هذه الوحدة للقيام بوضع عدة خيارات لغارة على إيران، فقبل فترة وجيزة من حرب العراق كان الفريق الأحمر السادس قد قام بعدة بروفات محتملة لمهمة الاستيلاء على ما يشتبه به من منشأة لأسلحة الدمار الشامل على ضواحي طهران تم إيقافها قبل 24 ساعة من تنفيذها، في حين كان يتم وضع الإمدادات لها وعملية إنزال مظلات على علو منخفض، حيث كان الغرض من تلك المهمة هو إيجاد دليل على أن إيران تقوم بتطوير أسلحة نووية، حيث ذكر مصدر في الفريق السادس الأحمر أنهم تدربوا عليها لعدة أسابيع، لكنها لم تكن تحظى بشعبية بين مشغلي الفريق.

وقال المصدر «لقد كنا نفكر أن من الغباء أن نقوم بذلك، ثم كما لو أن الهمة قد تلاشت، لكن الفريق السادس «TEAM 6» عام 2004 كان قد دعا إلى انتهاج عنف سري يهدف إلى تعطيل أو اعتراض للمواد التي يحتاجها الإيرانيون لبرنامجهم النووي قبل أن تصل إلى إيران عبر كوريا الشمالية أو أي مكان آخر.

الاستراتيجية تعتمد على هزيمة المسار، وقد برز تخوف من قبل الولايات المتحدة في أن تكون إيران دولة إقليمية عظمى، فيما كانت إيران تتخوف من احتلال الولايات المتحدة لدولتين على حدودها الشرقية والغربية، وفي عام 2001 كانت إيران قد ألقت

القبض على عشرة قياديين في القاعدة، بينهم سعد بن لادن كانوا قد هربوا عقب الاجتياح الامريكي لأفغانستان، وبما أن الحكومة الإيرانية ليست على علاقة جيدة مع نظام الطالبان أو القاعدة فقد تم احتجاز هؤلاء القياديين في مدينة تشالوس والتي تقع على بعد 108 ميل إلى الشمال من العاصمة طهران، فيما كلف البنتاغون حينها قيادة العمليات الخاصة الأمريكية بالقيام بمهمة الاستيلاء على قياديي القاعدة.

لقد خطط المشغلون للقيام بعملية الاختراق والتسلل بواسطة طائرات هليكوبتر أو عبر الغواصات، لكن تعثرت العملية بسبب نقص المعلومات الاستخبارية، حيث لم يكن يعرف بالضبط مكان وجودهم وفي أي سجن، في وقت لاحق منح الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق مزيدا من الفرص للتسلل إلى إيران، حيث قامت قوات الدلتا والفريق البرتقالي بعمل هادئ على طول الحدود الإيرانية وخصوصا من جهة كردستان، حيث نسقت واتصلت قوات الدلتا بسرعة مع الاستخبارات الكردية «الأسايش» والتي عرفت بتواجد جواسيس لديها يقومون بإرسال التقارير بشأن البرنامج النووي الإيراني.

لقد جندت قوات الدلتا وبمساعدة عراقيين آخرين حملتين، إحداهما ضد القاعدة، والثانية ضد العمليات السرية الإيرانية، فيما قال ضابط في فرقة المهام «لكن الرجال الذين كان لديهم دخول

أكبر وتوظيف أكثر هم الأكراد، فقد أرسلوا إلينا معلومات تتعلق بأهداف جدا كبيرة بالنسبة لنا».

لم تكن الدلتا هي القوة الوحيدة التي عملت مع «الأسايش»، فهناك تاريخ طويل بينهم وبين الفريق البرتقالي يعود إلى التسعينات من القرن الماضي، وأضاف ضابط من قيادة العمليات الخاصة أن «أفرادا من وحدة العمليات الأمريكية الخاصة المشتركة عملت أيضا مع ما يسمى بـ«مجاهدي خلق»، وهي مجموعة مسلحة من المعارضة الإيرانية استندت على نظام صدام ووضعت قواعد لها في العراق.

وزارة الخارجية الأمريكية كانت قد وضعت مجاهدي خلق ضمن قائمة المنظمات الإرهابية، لكن ذلك لم يمنع قيادة العمليات الخاصة الأمريكية من الاستفادة منهم على مبدأ «عدو عدوي صديقي»، وأشار ضابط للعمليات الخاصة إلى ذلك بالقول إن «مجاهدي خلق كانوا من الناس الذين يستطيعون عبور الحدود والدخول إلى إيران، لكن قيادة العمليات الخاصة كانت تفضل أن يتم إرسال المزيد من منتسبيها والحصول على معلومات مباشرة من إيران».

في عام 2003 وصلت معلومات محيرة إلى القيادة دفعت دايلي ثم ماكرستل لتوجيه خلية عمليات القوات المتقدمة لبحث سبل التسلل إلى إيران، وقد سمعت قيادة العمليات الخاصة أن إيران قد نقلت سعد بن لادن وغيره من قيادات القاعدة المنفيين من

أفغانستان إلى «ملجأ ريفي» مثل منشأة في وسط مدينة طهران طبقا لقول أحد ضباط قيادة العمليات الخاصة، وقد أراد قادة العمليات أن تقوم خلية من العمليات المتقدمة بتحديد إمكانية دخول إيران، والذهاب إلى السجن في طهران والتأكد أن سعد محتجز هناك.

في داخل قيادة العمليات الخاصة المشتركة كان الأمر يعتبر مهمة ذات خطورة عالية، لكن موظفي خلية العمليات المتقدمة فوجئوا باكتشاف أن شخصا ما يمكن أن يقود سيارته إلى الحدود الإيرانية، ليظهر جوازا أمريكيا ويدخل بتأشيرة سياحية لمدة عشرة أيام بشكل فوري، أما إذا تقدم الشخص نفسه بطلب للحصول على التأشيرة من خلال سفارة أو قنصلية إيرانية فسيقومون بحسب رقم الضمان الاجتماعي له والبحث بعناية عن خلفيته دون علمه، طبقا لمصدر مطلع على العملية، ومع ذلك فإن تقييم الخلية هو أن الأمر قد يستغرق مالا يقل عن عام للعمل لخلق أسطورة (سيرة الجاسوس وقصته المفبركة) وتوفير الغطاء الذي يسمح لمشغل وحدة المهمة الخاصة بدخول إيران والوصول إلى السجن وجمع المعلومات والمغادرة دون أن يثير الشكوك».

لم يكن ماكرستل سعيدا بهذه النتيجة وقال لهم في ذلك «أنا بحاجة إلى وقت أقرب من ذلك»، وحينما عادت إليه خلية العمليات المتقدمة بعد شهر بالتقييم نفسه وهذه المرة مدعومة أيضا من قائد الفريق البرتقالي الجديد العقيد كونراد كت تروتمان وقد

أخبر ماكرستل تروتمان أنه يريد أن يقوم الفريق البرتقالي بإلقاء نظرة فاحصة بشأن الكيفية التي يمكن بها إجراء المهمة بشكل عاجل.

في الوقت الذي كان فيه الفريق البرتقالي يقوم بالتخطيط، فإن القلق المتزايد بشأن برنامج إيران النووي غير المهمة من استطلاع السجن إلى معرفة ما إذا كانت المواد الانشطارية يتم انتاجها في مواقع معينة في الداخل الإيراني، وبحلول ربيع عام 2004 كان الفريق البرتقالي فريقا مكونا من ذكر وأنثى لإثبات مفهوم فكرة المهمة ومعرفة إذا كان قد تم تغطيتهم بشكل فعال.

وافق ماكرستل على الخطة وأرسلها إلى سلسلة القيادة، لكن وبسبب أنها تستلزم اشتراك بعض العناصر السرية في بلد لم تكن الولايات المتحدة في حالة حرب معه كان على الفريق البرتقالي أن يحصل على موافقة وكالة الاستخبارات المركزية وهو ما أثبت صعوبة الحصول على مثل هذه الموافقة، وقال أحد الضباط من قيادة العمليات الخاصة «لقد واجهنا أوقاتا صعبة للحصول على الموافقة من قبل الوكالة، لكن كان لديهم عدد من المبادئ التي يجب أن يقوموا بحمايتها».

بعد موافقة وكالة الاستخبارات المركزية أعطى الرئيس بوش موافقته وبدأت المهمة في خريف عام 2004، وهو تأخير يثبت أن تقييم خلية العمليات المتقدمة كان صحيحا فيما يتعلق بالمدة التي سيستغرقها الإعداد للعملية.

لقد كانت تغطية المشغلين قوية بما فيه الكفاية للحصول على تأشيرات الدخول من القنصلية الإيرانية، ولذا تم الاستغناء عن فكرة قيادة السيارة باتجاه الحدود، وبدلا عن ذلك توجها بشكل مباشر إلى إحدى المدن الإيرانية الكبرى واستأجرا في فندق وأمضيا عدة أيام يتنقلان بسيارات الأجرة داخل وخارج المدينة، وقد اقرا بصعوبة الاقتراب بشكل كافٍ من المواقع النووية الإيرانية المشتبه بها وأخذ عينات من التربة لفحصها، وقد اختارا عدم القيام بذلك، فيما قال مصدر مطّلع على المهمة «لم تكن في الواقع مهمة فقد كان هدف البعثة مجرد الدخول والخروج وعند عودتهما إلى الولايات المتحدة، اطّلع المشغلون الرئيس بوش بإيجاز عن المهمة والتي أعجبته على النحو المطلوب».

لقد منح احتلال الولايات المتحدة لأفغانستان القوات الأمريكية الوصول إلى الحدود مع إيران منذ أواخر عام 2001 فصاعدا، لكن النفور من المخاطرة منع تقريبا أي جهد للاستفادة من ذلك لأغراض استخبارية، ولم تبدأ قيادة العمليات الخاصة المشتركة حتى حلول عام 2007 برنامجا لاختراق إيران باستخدام بدائل أفغانية مدربة فيما قال أحد ضباط العمليات الخاصة «لقد كان هذا نوعا من الأشياء التي يفترض العالم أننا نقوم بها، ومع ذلك اعتبرت وزارة الدفاع الأمريكية أن البرنامج كان سريا للغاية، حيث إن الضابط الذي كان يستدعى لذلك كان يدخل إلى غرفة في داخل غرفة في داخل غرفة

أخرى في البنتاغون ليتسلم الإيجاز بشأن الموضوع»، وكان رد فعل الضابط على الإيجاز «أنتم تعنون أننا لا نقوم بذلك بالفعل؟».

بعد خروجهم من محطة مطار بغداد الدولي كان نحو من خمسين إيرانيا يرتدون البدلات قادمون لتوهم من طهران يبحثون عن سيارات أجرة في ليلة دافئة من نيسان عام 2009، وبعد ما قام أحدهم بإجراء فحص للشارع كانت طائرة مسيرة صغيرة تحوم حول المطار تقوم بتصويره في الوقت نفسه وتقوم بنقل الفيديو لقوة ضاربة من الرينجرز وقوة SEAL الذين كانوا قد أوقفوا أربع عجلات سترايكر مدرعة وشاحنتَي تويوتا هيلوكس دون أرقام في منطقة مخفية تستخدمها سيارات الأجرة المنتظرة لنقل القادمين من المطار.

وبعد أن اتّصل الإيراني على هاتفه الخلوي تم اعتراض تلك البيانات من المكالمة فتعرفت قوة الرينجر على هويته في غضون لحظات، كانت شاحنة الهليوكس محملة بحوالي نصف دزينة من الرينجرز، فتحركت مسافة قصيرة إلى الأمام قبل أن يترجل منها الرجال بسرعة ويطوقون الإيرانيين، كانوا محاطين بجنود مدججين بالسلاح من أحد افضل أفواج المشاة الخفيفة في العالم، ولم يُظهر الإيراني أقل اضطراب، لكنه ضحك قبل أن ينطق بأسوأ إهانة يمكن أن يفكر فيها قائلا «هل أنتم يهود أيها الرجال؟ فأجابه قائد فصيل الرينجرز قائلا ماذا قلت؟ فقال له الإيراني لقد سألت لأن الأمريكان ليسوا أغبياء بما يكفي لاعتقالي».

لم تكن ثقة الرجل بنفسه شجاعة كاذبة، فقد كان الموقف يجسد معضلة لمشكلة واجهتها الولايات المتحدة في العراق، وكان هدف الرينجر هو شخصية بارزة في منظمة العمليات السرية القوية في إيران وهي قوة القدس التابعة للحرس الثوري الإسلامي، كان الرجل يحمل جواز سفر دبلوماسي، وقد جاء إلى العراق كجزء من حملة إيران لزعزعة استقرار جاره بتوزيع التدريب والقنابل والأموال ليس فقط بين المليشيات الشيعية، الحلفاء الطبيعيين للثيوقراطية الشيعية التي تحكم إيران، بل حتى أيضا للجماعات المتمردة السنية.

مع ذلك فإن شبكة قوة القدس الواسعة من التحالفات في جميع أنحاء الهيكل السياسي الشيعي في العراق يعني أن أيّ تحركات أمريكية ضد ناشطيها تعتبر من الأمور ذات الحساسية العالية، وقال ضابط أمريكي إن «ضابط قوة القدس كان يضحك على من يفترض أن يكون معتقله لأنه كان يعلم أنه محمي».

لقد أنشئت قوة القدس خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينات من القرن الماضي، وقد جمعت بين أدوار جمع المعلومات الاستخبارية والعمل السري لإيران، واضطلعت بدور رائد بالعمليات الخاصة بالجمهورية الإسلامية وحروبها بالوكالة في الشرق الأوسط وخارجه، وكانت هذه القوة وراء تنظيم حزب الله اللبناني وتسعى الآن لإضعاف العراق وقتل القوات الأمريكية في البلاد.

لقد قسمت قوة القدس إلى إدارات أو ما يسمى بالفيالق، وكل فيلق مسؤول عن منطقة جغرافية محددة كان القسم 1000 أو ما يطلق عليه فيلق رمضان مسؤولا عن العمليات في العراق، فيما كان قائد فيلق القدس الجنرال قاسم سليماني هو الذي يرسم سياسة إيران في العراق وليس وزير الخارجية في الواقع.

كان سليماني يمارس السلطة في العراق عبر شبكة معقدة ومتغيرة من القوى الوكيلة وقد شملت هذه: منظمة بدر التي بدأت كجناح مسلح وممول من إيران والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (SCIRI) وفصائل من جيش المهدي التابعة لرجل الدين الشيعي مقتدى الصدر (JAM، or the Mahdi Army)، وبالخصوص فصائله المتطرفة والعنيفة التي أشارت إليها قوات التحالف بتسمية (المجموعات الخاصة)، وعصائب أهل الحق (the League of the Righteous) وشبكة الغراوي في محافظة ميسان جنوب العراق، وكتائب حزب الله.

لقد وجد سليماني أن منظمة بدر (التي كان يطلق عليها سابقا تسمية كتائب أو فيلق بدر) مفيدة بشكل خاص، فقد كانت بدر والمنظمة الأم، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية لديهم علاقات تاريخية مع قوة القدس تعود إلى سنوات المنفى التي قضياها في إيران خلال فترة حكم نظام صدام حسين، وكانت لهما علاقات وثيقة مع الكثير من أعضاء البرلمان العراقيين، حيث استخدمت قوة

القدس منظمة بدر لجمع المعلومات الاستخبارية فضلا عن أنشطة المليشيات وكان وكلاؤها في المنظمة يقومون بنقل المعلومات مباشرة لمعالجي قوة القدس.

إن هدف استراتيجية إيران في زعزعة استقرار العراق خلقت بعض الرفاق الغريبين فمع قوة القدس الذراع السرية للثيوقراطية الشيعية في إيران كانت الأوضاع مريحة حتى لشبكات التمرد السنية، فيما قال أحد الضباط الذين درسوا نهج قوة القدس عن كثب «كان الأمر يعرض 100 بالمئة هكذا، هل أنت على استعداد لقتل الأمريكان؟ وهل أنت على استعداد لتنسيق الهجمات؟ فإذا كان الجواب نعم، يكون الرد فهذا هو السلاح وهذه هي الأموال».

لقد قارن الضابط هذا المنهج بذلك الذي استخدمته الاستخبارات الأمريكية في الثمانينات حينما كانت الوكالة تقوم بتسليح وتمويل المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الاحتلال السوفيتي وضد حلفائهم من الأفغان الشيوعيين.

قوة القدس أيضا قادت عمليات إعلامية في العراق وعملت عبر الإنترنت ووسائل الإعلام بهدف التأثير على أي اتفاق بشأن وضع القوات الأمريكية بين الولايات المتحدة والحكومات العراقية، والتي تحكم الدور المستقبلي للقوات الأمريكية في العراق وتحقيق المصالحة بين الفصائل الشيعية، فيما قامت بتركيز تلك المجاميع الشيعية للقيام بهجمات على قوات التحالف فقط.

في أوائل عام 2005 قدّم فيلق القدس سلاحا جديدا لساحة المعركة العراقية وهو العبوة الخارقة للدروع (EFP) وهي نوع من القنابل التي يتم زرعها على الطرق وتمتاز بالنحاس المصهور فيها والتي تخترق دروع عربات التحالف المدرعة.

وقد زاد استخدام العبوات الخارقة للدروع بنسبة 150 بالمئة عام 2006، مما تسبب في إصابات بين القوات الأمريكية بلغت نسبتها 30 بالمئة من مجمل الإصابات وعدد الضحايا من الجنود الأمريكان.

ومن شهر كانون الثاني إلى بدايات عام 2007 قدرت الاستخبارات الأمريكية وجود أكثر من 150 عنصر نشط إيراني في العراق فيما ظلت قطاعات واسعة من الحكومة الأمريكية لعدة سنوات تنفي وجود أنشطة لفيلق القدس، لكن بعد كل تلك السنوات من التردد في مواجهة الإيرانيين لم تعد سلسلة القيادة في الولايات المتحدة بقادرة على تجاهل عدد القتلى الذين قضوا على يد فيلق القدس.

في صيف عام 2006 أمر وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد ماكرستل باستخدام العمليات الخاصة لاستهداف فرق الموت الشيعية لأن الجنرال جورج كيسي قائد القوات المتعددة الجنسيات لا يملك السلطة لإعطاء الأوامر إلى قيادة قوات العمليات الخاصة المشتركة، فيما تم الطلب من ماكرستل ملاحقة المقاومة الشيعية وخاصة تلك التي تدعمها إيران، وقال ضابط أمريكي من قوة الرينجر

«لقد أصبحت هذه أولويتنا بعد أن تمّ استخدام العبوات الخارقة للدروع في مدينة الصدر شرقي بغداد والتي عثر على ملصقات فيها تشير إلى أن صناعتها تمت في مرافق التصنيع الإيرانية».

بدأت قيادة العمليات الخاصة المشتركة باستهداف الوكلاء الإيرانيين، فما بين تشرين الثاني من عام 2006 إلى كانون الثاني من عام 2007 قامت قوة المهام الخاصة لماكرستل باثنتين من العمليات، الأولى في الحادي والعشرين من كانون الأول حيث تحركت القوة على الهدف المسمى «كلارك»، وتم إلقاء القبض على العميد محسن شيرازي في مجمع المجلس الأعلى الاسلامي بقيادة عبد العزيز الحكيم، حيث يعتبر شيرازي القائد الذي يوجه جميع عمليات فيلق القدس ويشغل منصب قائد قوة القدس للعمليات، وبعد احتجاجات من القادة العراقيين والإيرانيين تم إطلاق سراحه بعد تسعة أيام، وبعد هذه المهمة كانت هناك مهمة ثانية لكنها هذه المرة في أربيل حيث تم الهجوم على رتل دبلوماسي إيراني في الساعات الأولى من يوم 11 كانون الثاني، حيث كانت وحدة الدلتا تأمل في القبض على محمد جعفري نائب رئيس مجلس الأمن القومي الإيراني الذي كان يلعب دورا رئيسا في الحملة العسكرية داخل العراق والجنرال مانجهير فرزانده رئيس الاستخبارات في الحرس الثوري، ولكنّ أيّا من الاثنين لم يكن موجودا ضمن الرتل، فقد تم اعتقال خمسة أشخاص من أفراد الحرس الثوري برتب أقل

وتم تسمية العملية باسم «أربيل خمسة» والذين قدموا معلومات استخبارية قيمة تحت الاستجواب.

ردت قوة القدس على هذه العملية يوم 20 كانون الثاني بهجوم مخطط له بعناية على مركز كربلاء المؤقت للتنسيق المشترك، وهو مجمع تحرسه القوات العراقية والأمريكية في وسط العراق، جيث نفذت عصائب اهل الحق، وهي أخطر قوة في المجاميع، ذلك الهجوم، فقد قدموا بثمان سيارات دفع رباعي سوداء وكانوا يرتدون زي الجيش الأمريكي من أجل الوصول إلى المجمع وقاموا بقتل جندي أمريكي وخطف أربعة آخرين تم إعدامهم بعد قليل من هروبهم.

في شباط من عام 2007 حل الجنرال ديفيد بترايوس محل جورج كيسي كقائد للقوات المتعددة الجنسيات، وفي ذلك الوقت أصبحت الحملة على فيلق القدس ووكلائه حربا، وكان ذلك الأمر واضحا على مستوى مسرح العمليات ومستوى الذكاء والاستخبارات، فقد كان هؤلاء الرجال نشطاء جدا، فيما قال أحد المدنيين من الجيش الأمريكي إن «نية الجنرال ديفيد بترايوس عندما تسلم القيادة هو وقف ذلك النشاط، وكما هي العادة حينما يتجاوز الأمر قدرة الجيش يتم تحويل الأمر لقيادة العمليات الخاصة المشتركة «ويبدو أن وصية رامسفيلد الأخيرة لبترايوس قبل تقديم استقالته في الثامن عشر من كانون الأول عام 2006 كانت أن يلاحق الإيرانيين، وقد

كافح ماكرستل لمعرفة كيفية استيعاب ما كان أساسا يعتبر كمهمة مضاعفة بالنسبة له.

كانت قوة مهامه في العراق تُدعَى في ذلك الوقت قوة المهام 16، وقد تمّ صقلها وتدريبها لملاحقة شبكات الإرهاب السنية، وبالخصوص تنظيم القاعدة وكانت كل استخباراتها وتركيزها وتحقيقاتها قد أصبحت متمرسة على تلك الأهداف وهو ما جعلهم مشغولين طوال الوقت، ففي بداية عام 2007 قدرت تلك القوات أنها قتلت ما لا يقل عن 2000 إرهابي من القاعدة والفصائل الأخرى، لكن تلك الخبرة التي تم الحصول عليها بشق الأنفس كانت محدودة الفائدة أمام الإيرانيين ووكلائهم على الأقل بالنسبة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة، فيما قال ضباط كبير في وحدة العمليات الخاصة إن «محققي قوة المهام 16 لم يكونوا حتى يعرفوا ما هو السؤال الأول الذي يجب طرحه على أولئك الرجال».

كان جون كرستيان قائد قوة المهام 16 في ذلك الوقت قد طلب عدم إضافة مهمة أخرى لديهم في استهداف فيلق القدس وحلفائه خوفا على تشتت تركيزها على تنظيم القاعدة في العراق، وقد شاركه ماكرستل في ذلك القلق، فلم يرد الجنرال إضافة المجاميع الشيعية لمهام قوة المهام 16، ولا تقسيمها من أجل التركيز على المجاميع الإرهابية، فيما قال ضابط من قوة الرينجر «لقد كنا ننزف في بغداد بسبب العبوات الخارقة للدروع والتي يجري جلبها من

إيران، لكن ماكرستل لم يكن على استعداد لسحب القوات الضاربة ضد القاعدة والتي ينظر إليها على انها المعركة الحقيقية من الناحية الاستراتيجية»، مضيفا «ولذا طلب المزيد من الأصول».

تلك الأصول جاءت من قوة المهام «البيضاء» من مسرح العمليات الخاصة في العراق والتي تعرف باسم قوة المهام المشتركة والتي يرمز لها بالرمز (CJSOTF)، وتتضمن فريقا من القوات الخاصة ووحدات (SEAL) بقيادة العقيد الركن كيفن ماكدونيل قائد القوات الخاصة الخامسة والذي يقود قوة المهام والتي تتضمن أيضا وحدة (SEAL) رقم 4 التي يقودها القائد جون بورنهام وهي بمسؤولية قيادة العمليات الوسطى، وكان ماكدونيل يرسل تقاريره إلى الجنرال فرانك كيرني مدير العمليات الخاصة السابق والذي كان يقود في ذلك الوقت كل القوات في القيادة المركزية ما عدا قيادة العمليات الخاصة.

الجنرال ماكرستل كان يدرك أنه بحاجة إلى مصادر كبيرة لمعالجة كلا الهدفين، فتوصل إلى حل وهو إضافة مقاتلين إلى قوات (CJSOTF) ممن سبق لهم أن استهدفوا جيش المهدي في مدينة الصدر، لكن المشكلة كانت تكمن في أن قائد قوات العمليات الخاصة كان يرغب في أن تكون قوات (CJSOTF) تحت إمرته، الأمر الذي قاومه القادة كيرين وماكدونيل لأنهما كانا يريان أن ماكرستل كان يريد إفراغ وحدات «المسرح» من العمليات

الخاصة من قوة المهام لأغراضه الخاصة، ولذا تم تسليم مهمة مكافحة الإيرانيين إلى ماكدونيل من كانون الثاني إلى آذار من عام 2007 وتقديم التقارير إلى ماكرستل، لكن الاحتكاك بين الضابطين لم يجعل هذا الأمر يعمل بسلاسة، وفي نيسان تحركت قيادة المهام لمكافحة الإيرانيين إلى قاعدة بلد وتم منحها إلى القائد السابق لسرب الدلتا في قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

وقال أحد الضباط المتقاعدين إن «ماكدونيل قد تخلص من بعض أفراد المقر الرئيس، وكانا فصيلا أو فصيلين من قوة SEAL وبعض الأمور الفنية لقوة المهام الجديدة»، وقد أطلق على الفرقة الجديدة تسمية فرقة المهام 17.

لقد كانت مهمة هذه القوة تتلخص في هدف بسيط بالتسمية ألا هو هزيمة فيلق الحرس الثوري الإسلامي ـ قوة القدس ووكلائها وشبكاتها في العراق ـ لتعطيل النفوذ الإيراني فيما قال ضابط في فرقة المهام إن «تفويض قوة المهام 17 كان ملاحقة أي شيء تقوم به إيران للمساعدة في عدم استقرار العراق».

«وكانت قوة المهام تعمل على ثلاثة خطوط للعمليات هي: الخط الأول تعطيل شبكة عمليات قوة القدس من خلال الاستهداف الحركي للأشخاص بمهمات اغتيال أو اعتقال، والخط الثاني استخدام المواد الاستخبارية التي يتم الحصول عليها للضغط على كبار القيادات الشيعية، والخط الثالث عزل قوة القدس عن وكلائها العراقيين.

القوة الضاربة لقوة المهام 17 كانت في البداية عبارة عن فصيلين من وحدات سيل القتالية من وحدات بورنهام والقوات البيضاء التي تُدعَى CIF»»، فيما أطلق على الحملة التي تقوم بها ضد قوات القدس اسم «كانين 18»، كانت التحديات الكامنة التي تواجه قوة المهام 17 من أجل ايجاد وتصفية وإنهاء الأعداء الذين لا يريدون أن يتم العثور عليهم، يضافِ إليها عقبات السياسية تواجه عملها، ففي الوقت الذي كانت فيه القيادات السياسية في العراق سعيدة بإنجازات آلة ماكرستل في طحن وتدمير العصابات الإرهابية في مناطق القاعدة كانت الحساسية تبدو شديدة فيما يتعلق باستهداف المجاميع الشيعية حتى من أولئك الذين كانوا بوضوح يقومون بقتل عراقيين آخرين، ذلك إن العلاقات السياسية لبعض قيادات المليشيات الشيعية مع الحكومة العراقية يعني أن هناك قائمة غير رسمية من الشيعة الذين لا يمكن لنا معرفة هدفهم، وقد كتب ماكرستل في حينها أن «هذه الدينامية كانت بمكانة الفرامل على عمل قوة المهام 17 طوال وجودها»، غير أن قوة المهام الجديدة سرعان ما تركت انطباعا.

فمنذ عدة أشهر كانت فرقة العمل 17 تطارد الأخوين ليث وقيس الخزعلي اللذين يديران عصائب أهل الحق، وكان قيس الخزعلي البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما في حينها هو الأخ الاكبر، والذي عمل سابقا مع والد مقتدى الصدر قبل اغتياله عام

1999 من قبل نظام صدام، وبعد الدعم الذي قدمه لمقتدى الصدر في أعقاب الغزو الأمريكي انشق الخزعلي عنه عام 2006 ليؤسس عصائب أهل الحق، كانت اتصالاته السياسية تعني أنه لم يكن من المفترض أن تقوم قوة المهام 17 باعتقاله، وهذا الشيء ينطبق على أخيه ليث الخزعلي، مع ذلك وردت معلومات استخبارية في آذار عام 2006 تفيد بتواجد ليث الخزعلي بشكل مؤكد في مدينة البصرة جنوب العراق، وعينت قوة المهام 17 موقع الهدف بالاسم «سيتانتا»، وفي العشرين من آذار من العام نفسه طارت قوة ضخمة مكونة من مزيج من أسراب قوة ساس جي وأفراد من وحدة سيل بقيادة بورنهام لتحط في مدينة البصرة وبدعم من القوات البريطانية هناك تم اعتقال ليث الخزعلي وسبعة رجال آخرين دون قتال، فيما تمّ التعرف على واحد من السبعة على الفور بأنه قيس الخزعلي، وحينما اتصل بورنهام بماكرستل ليطلعه على الخبر قرر الأخير أن قيس يعتبر هدفا كبيرا جدا ولذا لا يمكن إطلاق سراحه.

محللو فرقة المهام بدؤوا على الفور العمل على كمية كبيرة من الوثائق والمواد التي تم العثور عليها، بينما كانوا في حيرة من أمرهم حول أحد المعتقلين وهو رجل عربي في منتصف العمر تصرف وكأنه من الصم والبكم، وقد عثر المحققون على وثيقة تشير إلى أن قائد عملية كربلاء كان القيادي أزهر الدليمي وكان معروفا بارتباطه بالأخوين قيس وليث الخزعلي مما ربطهم بالهجوم وأثبتت أن قوة القدس قد قدمت دعما كبيرا لها.

لقد أقنعت الوثائق التي تم العثور عليها رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي بإبقاء الأخوين قيس وليث الخزعلي وراء القضبان، وفي غضون الشهرين التاليين قامت قوة المهام بقتل أزهر الدليمي شمال بغداد، أما الرجل الذي ادّعى الصمم والبكم فقد بدأ بالحديث وكشف عن نفسه وهو يدعى علي موسى الدقدوق وهو قيادي كبير في حزب الله اللبناني قامت قوة القدس بجلبه إلى العراق لمساعدة عصائب أهل الحق، وكان دور الدقدوق نموذجا لجهود قوة القدس في استخدام مختلف القواطع للقيام بعملياتها في العراق، فيما كانت مهمته وفقا لتصور قوة القدس هو تدريب المدربين، حيث يتم إرسال الأشخاص لتلقي التدريب في لبنان وإيران غالبا من مدربين في حزب الله، من ثم العودة إلى العراق لتدريب الآخرين، فيما قال ضابط في قوة المهام 17 «لقد كنا مشوشين حول التقسيم الفعلي بين قوة القدس والشبكات المنفصلة، وكان هذا الأمر مقصودا.

بعد هذا النجاح وفي العشرين من نيسان من العام نفسه نجحت العمليات الأمريكية الخاصة باعتقال أبي ياسر الشيباني الرجل الثاني في شبكة الشيباني والتي يقودها أخوه الأكبر أبو مصطفى الشيباني العضو السابق في منظمة بدر حيث كانت هذه الشبكة تعمل ولأكثر من عامين في نقل العبوات الخارقة للدروع من قوة القدس داخل ايران لمختلف المليشيات، ومنها عصائب أهل الحق، لكن قوة المهام اضطرت إلى الانتظار 5 أشهر أخرى قبل أن يتم إلقاء القبض

على شخصية أخرى رفيعة المستوى وهو العقيد محمود فرهادي والذي كان يدير أحد المعسكرات الثلاثة على طول الحدود الإيرانية العراقية، والتي يدير منها فيلق رمضان حملته داخل العراق، حيث تم اعتقال فرهادي ـ والذي تظاهر بأنه ممثل التجارة الإيرانية ـ في العشرين من أيلول في فندق في محافظة السليمانية شمال العراق، وهو ما دفع الحكومة الإيرانية إلى تقديم احتجاج شديد وإغلاق الحدود الشمالية مع العراق لفترة من الزمن.

لقد أدّت عمليات الاعتقال ولاسيما تلك التي يقوم بها الناشطون الإيرانيون بالخصوص إلى إعادة قوة القدس تقييم عملها وكيفية قيامها بحملتها في العراق، وبدلا من تقليص وجودها الرامي إلى زعزعة الاستقرار أو إنهائه سعى سليماني بشكل متزايد إلى وضع وجه عراقي على الحملة، ونتيجة لذلك نمت شبكة الشيباني وغيرها من الوكلاء في الحجم.

في تشرين الأول من عام 2007 تولى العقيد ريشارد كلارك قيادة قوة المهام الخاصة 17، وكان هذا أمرا مهما، حيث أول مرة يتم تعيين قائد من قوات الرينجرز لمنصب القيادة على مستوى O ـ 6 (الذي يعادل نقيب في البحرية ورتبة عقيد في خدمات أخرى) وتحت قيادة كلارك كان قائدا على مستوى O ـ 5 من قوة SEAL يقود العمليات بفصيلين من الرينجر (حوالي 90 جنديا) وفصيلين من قوة SEAL (حوالي 32 جنديا) فضلا عن فصيل من الرينجر في المقر

ومقر قوات SEAL وجميع تلك القوات كانوا يتواجدون في مجمع قاعدة النصر في بغداد.

كانت قوة المهام 17 تتضمن أيضا فريق استطلاع من قوات SEAL في بغداد وفريق استطلاع آخر من قوة الرينجر في مدينة الكوت التي تبعد حوالى 160 كيلومتر جنوب شرق بغداد.

خلط ماكرستل قوات الهجوم بحيث شملت على مستوى السرية في القوات المهاجمة فصائل كانت تعمل لقوة SEAL أو قوة الرينجر لصالح قادة كل من القوتين، وهذا ما ضاعف من حجم القوة الهجومية لقوة المهام 17 والتي ممكن أن يتواجد فيها فصيل واحد من الرينجر يكون فيها قوة ضاربة، وكان بعضٌ ممن أُجبروا على العمل طبقا لذلك النموذج قد امتعضوا من ذلك على أساس أن من غير الضروري تحديد القوات المهاجمة، فيما قال ضابط من قوة الرينجر إن «ليست هناك حاجة أن يكون هناك 75 عنصرا في هجوم منفرد، فقد كانت هناك أربع قوات هجومية قد أُجبرت على أن تكون قوتين اثنتين».

إن أحد الأسباب التي جعلت قوة المهام 17 أن تعمل بهذه الطريقة أيضا هو إن قوة SEAL كانت تعاني من نقص في طاقم المركبات مما يحدّ من حركتهم، وكانوا في مناطق أخرى يستخدمون طائرات الهليكوبتر في الهجوم الجوي على الموقع وعلى مسافة قريبة من الهدف، لكن في مناطق بغداد ذات الكثافة السكانية والجو العدائي

لم يكن ذلك ممكنا، فيما قال ضابط في قوة الرينجر «لا يمكن القيام بموازنة النقص في المركبات بطائرات الهليكوبتر في مدينة الصدر»، مضيفا أن «الحل المثالي لذلك هو أن تقلهم مركبات الرينجر».

وسرعان ما تورطت قوة الرينجرز في عملية حدثت في العشرين من تشرين الأول والتي كشفت مدى هشاشة الجليد السياسي الذي كانت تتزحلق عليه قوة المهام 17، ففي تلك الليلة قامت قوة سرية من الرينجرز من سرية B من الكتيبة الثانية منها بالقيام بغارة برية داخل مدينة الصدر من أجل اعتقال قيادي شيعي من المجاميع الخاصة.

قوة الرينجرز فقدت هدفها ووجدت نفسها محاصرة بغابة كثيفة من مجاميع المليشيات المسلحة في أدغال منطقة حضرية، وهو ما دفعها لطلب الدعم من طائرات الهليكوبتر وقاتلت في طريق عودتها الصعب من مكان إلى مكان وقتلت 49 شخصا في طريقها، العملية كانت شبيهة بعملية مقديشو، فيما تسببت القوة بالكثير من الأضرار الجانبية، وكان رد الفعل السياسي جراء القيام بعملية عسكرية عنيفة في قلب المنطقة الشيعية في بغداد فوريا.

لقد كانت القوات الأمريكية تقوم بعمليات من المستوى نفسه في مناطق سنية مثل الفلوجة دون أن يزعج ذلك القادة العراقيين الشيعة، لكن العمل الحركي حتى لو كان على نطاق أصغر بكثير كما حدث في مدينة الصدر يتجاوز الحدود.

الجنرال ديفيد بترايوس كان قلقا من العَملية، وعبّر رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي عن غضبه، فيما اتهمت حكومته القوات الأمريكية بقتل خمسة عشر مدنيا في الغارة، لذلك وابتداء من شهر كانون الثاني عام 2008 لم يعد مسموحا لقوة المهام 17 بدخول مدينة الصدر، فيما قال أحد الضباط «لقد أُصيبت القوة بإحباط عميق، فقد كان على منتسبي القوة الاضطرار إلى انتظار الأهداف إلى حين مغادرتها المدينة لتقوم بضرباتها»، مضيفا «لقد كانت الفكرة إننا سمحنا بتكوين ملاذ آمن رغما عنا».

بعضٌ من المراقبين كانوا يرون أن الخطأ في عملية مدينة الصدر كان يكمن في اعتماد قوة المهام 17على القوة العسكرية المفرطة على حساب الدقة، فعند قيامهم بأي شيء كانوا يقومون بإطلاق النار على كل شيء، فيما قال أحد الضباط المتقاعدين الآن من القوات الخاصة إن «القوات حينما كانت تطلق النار على كل شيء فقد كانت تقتل الشخص الخطأ، وتلقي القبض على الشخص الخطأ، الذي ربما يكون مرتبطا بصلة قرابة لأحد المطلوبين، ولم تنسق القوة مع السكان المحليين».

بهذا الخصوص كتب الجنرال ماكرستل «كانت السياسة مسؤولة جزئيا عن هذه الأخطاء، فقد كانت الفرق التي تحت قيادتي تريد العمل بحرية كاملة من أجل تحقيق وتيرة العمل المطلوب لكن بترايوس كان يريد التوازن ما بين رغبته في مواجهة الإيرانيين

وحاجة المالكي لمنع المليشيات الشيعية من الانقلاب على حكومته»، نتيجة لذلك كانت قوة المهام 17 تواجه قيودا مفروضة عليها في المحافظات التي تم تسليمها للسيطرة العراقية والتي كان عددها تسع محافظات مع نهاية عام 2007 وهي محافظة الديوانية ومدن الهندية والنجف وكربلاء ومدينة الصدر والتي «أصبحت كلها ملاذات آمنة» بحسب قول أحد ضباط الرينجر.

وأضاف «منذ ذلك الحين كان يجب على قوة المهام 17 الحصول على الموافقة في يوم الغارة وعبر سلسلة طويلة من الأوامر القيادية تنتهي إلى بترايوس»، مشيرا إلى أن «قوة المهام 17 قد أصبحت سياسية جدا، وكانت هناك الكثير من الأوقات التي نلقي فيها القبض على أشخاص كبار من قوة القدس يحملون جواز سفر دبلوماسي، فنضطر للاتصال، وفي أحد الأيام أغلق المالكي عمل قوة المهام ليوم واحد قائلا إلى أن يصبح هذا الشخص في المجمع التابع لي فإن عمل قوة المهام متوقف، وهو ما أغضب ماكرستل، ولذا كان عليَّ أن اقود سيارتي إلى المنطقة الخضراء بصحبة الرجل الذي تم إطلاق سراحه في اليوم التالي»، وتابع بالقول إن «الشكاوى من المخاوف السياسية منعت قوة المهام غالبا من ضرب الأهداف الشيعية»، مؤكدا «لا تدع أحدا يخدعك، إن ضعف وتيرة العمليات يمكن دفعها سياسيا، فقد كان يلقى باللوم على وجه الخصوص على القوة البيضاء أي على ضباط غير فريق SEAL 6، ذلك إن عدم

الخبرة مع إشارات الاستخبارات في وقتها الحقيقي تجعل من عملية الاستهداف مزحة».

أدّت مشكلة عدم الخبرة إلى تفاقم مشكلة أخرى، فحقيقة عندما يتعلق الأمر بالإشارات الاستخبارية والمراقبة والاستطلاع فإن فرقتَي العمل 16 و17 في منافسة على المصادر نفسها، كما أوضح ماكرستل.

قيادة العمليات الخاصة المشتركة لم تعطِ فرقة المهام 17 الأولوية التي تم تخصيصها لتنظيم القاعدة في العراق، لذلك وكما قال أحد ضباط الرينجر «كنا في قوة المهام 17 في قعر التسلسل الهرمي».

بحلول عام 2008 كانت قوات المهام شمالا وغربا، في الموصل وقاعدة الأسد من أولويات فرقة المهام 16، لكن فرقة المهام المركزية في بغداد أيضا كانت تقوم بعمليات أكثر من فرقة المهام 17 الكثير منها لتسلية قوة الرينجر المركزية الذين كانوا يستغلون كل فرصة للسخرية من فرقة المهام 17، متبوعة بنموذج قيادة العمليات الخاصة في السماح لقادتها بالقيام بالعمليات يوميا، وهو ما دعا قائد فرقة المهام 17 للتعبير عن خيبة أمله من عدم قدرة قواته الهجومية على الخروج من الباب، لكن وعلى الرغم من كل تلك العقبات نفذت فرقة المهام 60 غارة خلال تسعين يوما منذ بداية عام 2008 وهي أعلى نقطة وصلت إليها في تاريخها القصير».

في ربيع عام 2009 كشفت التحقيقات التي أجريت مع عناصر

قوة القدس والمليشيات الشيعية أن كبار مشغلي فيلق القدس لا يقومون بالتسلل عبر الحدود العراقية مثل نظرائهم من قادة القاعدة في سوريا، بل كانوا يصلون بدلا عن ذلك برحلات تجارية على متن طائرات المسافرين من طهران.

لقد كانت هذه المعلومة لحظة انتشاء لقوة المهام 17، ولذا أقنعت المخابرات الأمريكية شركات الطيران بتقديم بيانات الركاب عن كل رحلة قادمة من طهران والتي يتم نقلها سريعا إلى مقر فرقة المهام 17، فقد افترضت القوة أن مشغلي قوة القدس يقومون بالسفر جوا تحت غطاء السرية، لكن في غضون ثلاثة أيام ظهر اسم حقيقي لأحد أعلى أولوياتها في أهداف قوة القدس على قائمة المسافرين، وكان هذا الرجل هو نفسه الذي اعتقلته قوة الرينجر حينما كان يهم بركوب سيارة الأجرة ووضعته في الجزء الخلفي لمركبة سترايكر في رحلة قصيرة إلى قاعدة النصر المتاخمة للمطار.

إن الذي تبع ذلك كان التحديات التي طبعت عمل فرقة المهام 17، فلبضعة ساعات استجوبت فرقة المهام ذلك المشغل كما كان يحدث لأفراد فيلق القدس الآخرين، فيما قال أحد ضباط فرقة المهام «نحن لم نعذبهم، ولم نكن نضربهم، لكننا كنا نأخذ كل ما لديهم من مقتنيات شخصية، ثم نقوم باستجوابهم ووضعهم في السجن».

وأضاف أن «ما موجود في جيوب معتقلي فيلق القدس وأدواتهم

الإلكترونية مثل الحاسوب المحمول كانت تحمل أحيانا معلومات استخبارية مفيدة».

لقد كان الإيراني الذي اعتقلته فرقة المهام 17 في نيسان من عام 2009 لا يحمل معه حاسوبا محمولا، لكنه يحمل عدة هواتف ووثائق هامة، لكن كالمعتاد وكما يحدث لوضع معتقل يعمل مشغلا لقوة القدس فإن الأمر يعني أن احتجازه قصيرا، فكلمة الإبلاغ عن قبض يتم إرسالها بسرعة إلى سلسلة القيادة، ومن هناك إلى رئيس الوزراء نوري المالكي، فيما قال ضابط في فرقة المهام 17 «تم تسليمه إلى العراقيين ثم أفرج عنه في اليوم التالي»، بعد ذلك أوقف المالكي فرقة المهام 17 حتى تتم الموافقة على توضيح قائمة أهدافها من خلاله يوميا.

سعت قيادة العمليات الخاصة المشتركة لملء الثغرة في معلوماتها الاستخبارية عن قوة القدس التي تصل من العراق والشام، ولذا اعتمدت بشدة على المعلومات الاستخبارية من بلاد أخرى كانت قد أولت اهتماما شديدا بالمليشيات الشيعية في منطقة الشرق الأوسط وهي إسرائيل، وهو ما دفع قيادة العمليات الخاصة للوصول إلى المخابرات الإسرائيلية لأنه منذ نصف عقد من الزمن أنشأت قوة الدلتا خلية خاصة لها في تل ابيب لتبادل المعلومات الاستخبارية مع الاستخبارات الإسرائيلية.

لقد كان دوغ تايلور من ضباط قوة الدلتا والذي ترأس مهمة عام

2005 التي ارتدت فيها القوة ملابس فلاحي المزارع من أجل إلقاء القبض على غسان أمين أحد كبار مساعدي الإرهابي أبي مصعب الزرقاوي زعيم القاعدة في العراق حينها، دوغ تايلور «كان يدير الخلية الاستخبارية مع الإسرائيليين منذ فترة طويلة، فقد كان قادرا على العمل معهم وتبادل المعلومات مع الاستخبارات الإسرائيلية وفتح علاقات سمحت لهم بالمتاجرة بالمعلومات الاستخبارية التي تزود بها قيادة العمليات الخاصة منهم مقابل معلومات استخبارية يتم تزويد الإسرائيليين بها» بحسب ضابط كبير في وحدة المهام الخاصة.

لقد زوّدت خلية الدلتا في تل أبيب الاستخبارات الإسرائيلية بمعلومات استخبارية عن الشبكات السنية النشطة في جنوب لبنان والأردن والعراق في مقابل حصول قيادة العمليات الخاصة على معلومات استخبارية من الإسرائيليين عن حزب الله والفصائل الشيعية الأخرى في الشام والعراق، وكان لقيادة العمليات الخاصة الحق في إجراء هذه الصفقة لأنه في أجهزة الاستخبارات الأمريكية يحق لمنظمات الاستخبارات الإفراج عن المعلومات التي ينتجها كل فرع وفي المقابل حصلت الاستخبارات الإسرائيلية على معلومات مفيدة جدا من هذه الصفقة، وطبقا لأحد الضباط الكبار في الاستخبارات الأمريكية «كان لدى الإسرائيليين هدف آخر يتمثل بدفعنا باستمرار ضد الإيرانيين ومحاولة الوصول بنا

إلى اعتراض نشاطات حزب الله في جميع المناطق الأخرى من العالم من أجلهم».

في نهاية المطاف تولت قوة المهام البرتقالية خلية تايلور ذلك العمل بسبب أن تلك الوحدة كانت منذ زمن طويل مرتبطة بعلاقات مع الإسرائيليين، لكن وعلى الرغم من توسع الاختراق الإسرائيلي الكبير لشبكات المليشيات الشيعية فإن المعلومات التي أدّت إلى اعتقال الأخوين قيس وليث الخزعلي لم تأتِ هذه المرة من تل أبيب، بل من لندن، فيما قال مسؤول كبير في وحدة المهام الخاصة «لقد كانت المعلومات مجاملة من وكالة الاستخبارات البريطانية، حيث كان هناك مصدر في وحدة الاستخبارات البريطانيةM16 في بلاد الشام يعرف بالضبط أين كان الخزعلي موجودا في البصرة».

وأضاف أن «قيمة المعلومة يمكن الحكم عليها من حقيقة أنها لم تأتِ من أولئك المعتقلين في الموقع، فيما يفترض أن عدد الأشخاص الذين يعرفون موقع المنزل يعدون على أصابع اليد الواحدة»، لقد كان هناك تماثل معين للدور البريطاني في اعتقال الخزعلي، حيث تم إطلاق سراح الأشقاء بعد ذلك، ليث في حزيران عام 2009 وقيس في كانون الثاني من عام 2010، في مقابل إطلاق سراح بيتر مور استشاري تكنولوجيا المعلومات البريطاني والذي خطف مع أربعة من حراسه الشخصيين الذين تم قتلهم بعد

ذلك، والذي كان يعمل على برنامج لتعقب مليارات الدولارات من المساعدات الخارجية التي كانت تتدفق إلى الخزينة العراقية».

وقال ضابط في فرقة المهام 17 «لقد كان أمر المفاوضات دبلوماسيا للغاية، حتى إنه كان خارج نطاق سيطرة قيادة العمليات الخاصة المشتركة، بينما كانت الحكومة البريطانية هي التي تتفاوض»، وفي تشرين الثاني من عام 2012 أطلقت الحكومة العراقية سراح مشغل حزب الله علي موسى الدقدوق الذي تم اعتقاله مع الأخوين قيس وليث الخزعلي والذي كانت الولايات المتحدة ترغب بمحاكمته بارتكاب جرائم حرب لدوره في قتل الجنود الأمريكان الأربعة الذين تم اختطافهم في كربلاء.

مع تزايد القيود السياسية على وحدة المهام 17 بعد عملية مدينة الصدر والتي راح ضحيتها 49 شخصا تعثرت عملياتها أكثر من أي وقت مضى في الوقت الذي خفضت الولايات المتحدة مسؤولياتها بتحويل الكثير من المسؤوليات الأمنية إلى حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي، وبين شباط وآب عام 2009 وهو الوقت الذي حلّ فيه الجنرال راي اوديرنو قائدا للقوات المتعددة الجنسيات محل الجنرال ديفيد بترايوس لم تقم وحدة المهام 17 بأكثر من ثلاث عمليات بسبب القيود التي وضعها الجنرال العسكري من فئة أربع نجوم.

وبالطبع كعادة قيادة وحدة المهام 17 في معالجة عدد قليل من

الأهداف الشيعية لجأت إلى طريقة جديدة للالتفاف على القيود السياسية من خلال القيام بعمليات اغتيال دون ترك أي بصمة للولايات المتحدة على تلك العمليات.

الطريقة الجديدة اعتمدت على ما يسمى بجهاز أكس بوكس(X. box) والذي تم تصميمه من قبل قوات الدلتا وفريق المهام Team 6.

الأكس بوكس هي قنبلة تم تصميمها لكي تبدو بشكل وفعل القنابل نفسها التي يتم صنعها من قبل المتمردين العراقيين باستخدام المواد التي توجد عادة في القنابل والعبوات المتفجرة التي يتم تصنيعها محليا، حيث كان لدى فريق الدلتا وTeam 6 الفريق المتخصص بالذخائر المتفجرة قد تعلما كيفية إبطال تلك العبوات المحلية.

لقد استطاع الفريقان الحصول على بعض تلك القنابل والعبوات السليمة من ساحات المعارك في العراق وأفغانستان، وتم تفكيك أجزائها، وقبل أن يمضي الكثير من الوقت تعلم الفريقان كيفية إعادة بنائها من جديد من خلال الهندسة العكسية، فيما قال ضابط كبير في وحدات المهمات الخاصة إنهم «على ضوء هذا الاختيار دارت في زوايا قيادة العمليات الخاصة أحاديث تتعلق بالقدرات الكامنة لهذه الطريقة وكيفية استغلالها».

وأضاف الضابط الكبير «لقد استخدم صانعو القنابل في قيادة العمليات الخاصة في البداية مكونات القنابل التي تم العثور

عليها في أفغانستان، وهي مكونة من دوائر إلكترونية باكستانية وصينية مرتبطة بذخائر سوفيتية قديمة، وكان القصد من ذلك هو إنشاء متفجرات لا يمكن تمييزها حتى وإن تم إرسال عيّنات منها إلى مقر مكتب التحقيقات الفيدرالي لمكافحة الإرهاب في ولاية فرجينيا حتى لا ينتبه إليها المحققون عند تنفيذ الاغتيالات ويتم إلقاء اللوم على العمليات الإرهابية في حال إجراء التحليلات المختبرية عليها».

قنابل الأكس بوكس كانت فيها ميزات تختلف عن العبوات العادية من أجل الحد من مخاطرها على المدنيين والمشغلين، فعلى العكس من الكثير من العبوات الناسفة العادية كانت مجهزة بلوحة ضغط، وهذا ما يعني أن على مشغلها أن يراقب الهدف ثم يقوم بضغط الزر، الميزة الأخرى لقنابل الأكس بوكس والتي تجعلها مختلفة عن العبوات الناسفة العادية هي يجب أن تكون مستقرة جدا لتجنب الانفجارات المبكرة جدا، ولذا كانت قيادة العمليات الخاصة تستخدمها لاغتيال الأفراد بدلا عن المجموعات، فيما قال ضابط كبير في وحدة المهمات الخاصة» في هذا النوع من العبوات أنت بحاجة لقتل شخص واحد في سيارة، فأنت لا تبحث عن قتل 40 شخصا في سوق»، وأضاف الضابط «كنا نحصل على الأذن لاستخدام القوة العسكرية ضد الأشخاص بالاسم بشرط أن تتم في أماكن لا تسبب أضرارا جانبية، وقد تمكنّا من اغتيال رجل في سيارة

بيك اب هايلوكس في منطقة لا يتواجد فيها الجيش الأمريكي أو قوات التحالف».

وتابع «كان معظم المتمردين الذين قتلتهم قيادة العمليات الخاصة المشتركة بهذه الطريقة أهدافا لفرقة المهام 17 في جنوب العراق»، وقد شملت تلك الاغتيالات مجموعة متنوعة من الناس كانوا يديرون قوة القدس وقنواتها في الجنوب.

كانت وحدات الدلتا الأكثر احترافا تقوم بمراقبة الهدف لعدة أيام عن طريق سرب استطلاع يدعى D)) حيث يتم وضع القنبلة في المكان والوقت المناسب في سيارة الهدف وتفجيرها عن بعد.

لقد كانت عمليات المراقبة جزءا من الحياة الروتينية لسرب الاستطلاع D بحيث كان بإمكانهم التنبؤ بالمكان والوقت المناسب الذي يتم فيه وضع قنبلة أكس بوكس في سيارة الهدف دون أن يشعر بعد مراقبة ذلك الهدف لعدة أيام ومعرفة عاداته والطريق الذي يسلكه في التحرك.

وقال أحد ضباط العمليات الخاصة أن «قيادة العمليات الخاصة قد اختارت ربما استخدام قنابل أكس بوكس في ساحات معارك أخرى والتي لا تتمكن فيه الطائرات المسيرة من طراز المفترس متابعة الهدف، وهي قد فعلت ذلك في أماكن لا تريد فيها الحصول على إذن ضد هدف دقيق جدا ودون الحاجة إلى إطلاق صاروخ أو القيام بغارة أو مداهمة»، مضيفا أنه «وعلى

الرغم من أن فريق تصنيع قنبلة أكس بوكس قد استخدم مواد من ساحة القتال الأفغانية لكنها لم تستخدمها أبدا في أفغانستان وتم استخدامها فقط في العراق»، وتابع «لقد استخدمنا قنبلة الأكس بوكس بالتعاون مع وحدة الدلتا، لكننا كنا نعرف كما قال لنا الكثير من الضباط: ما هو فرقكم عن الأعداء إذا كنتم تقومون بقتل الناس عن طريق الشراك والخداع».

لقد واصلت فرقة المهام 17 العمل لبضعة سنوات، لكن تمّ إغلاقها قبل وقت طويل من انسحاب القوات الأمريكية من العراق نهاية عام 2011، وعلى الرغم من كل التحديات التي واجهتها فقد تمكنت من إحراز بعض النجاح وإن كان ذلك عابرا.

وقال ضابط من قوة الرينجر «في السابق كانت قوة القدس تدير عمليات الشراء والعملة الأمريكية عن طريق تحميل الشاحنات، لكن بعد قوة المهام 17 بدؤوا يستعملون الطرق المخفية واضطروا إلى القيام بما كانت تقوم به القاعدة في الشمال، ولذا كان هناك مستوى معين من النجاح في ذلك هناك».

وأضاف «لقد أنقذنا الكثير من أرواح قوات التحالف عن طريق الحدّ من بصمات قوة القدس حول مدينة الصدر، لكن ذلك لم يكن يعادل ما كانت تقوم به فرقة المهام 16» في الوقت نفسه، وفي عام 2007 تحولت المهمة الرئيسة لفرقة المهام 16 إلى مدينة الموصل حيث وضع ماكرستل كتيبة الرينجر في قيادة فرقة المهام الشمالية،

وتلك كانت المرة الأولى التي يتم بها منح قوة الرينجر قيادة قوة المهام على مستوى الكتيبة والسرب.

في الحرب الأوسع كان هناك شعور في أواخر عام 2007 بأن كفة الموازين بدأت تميل لصالح التحالف، فقد طالب بترايوس بزيادة عدد القوات وحصل على قوة بلغت خمس كتائب قتالية وهو ما يعادل أكثر من 20 ألف جندي إضافي، وفي الوقت الذي كانت تتدفق فيه معظم تلك القوات إلى بغداد وتلتزم بها، كان التحالف يحرز تقدما في تقسيم القبائل السنية في الأنبار عن المجموعات المتمردة المرتبطة بها بعيدا عن القاعدة فيما أصبح يعرف بـ«الصحوة السنية».

في حزيران عام 2007 غادر مايك فلين قيادة العمليات الخاصة المشتركة ليصبح مديرا في استخبارات القيادة المركزية، وبعد عام من ذلك انتقل ماكرستل من القيادة بعد خمس سنوات من العمل، وهي أطول فترة بكثير من وجود أي قائد آخر، ولم تكن قيادة العمليات الخاصة التي تركها وراءه تشبه إلى حد بعيد المنظمة التي تولى قيادتها في تشرين الأول من عام 2003، فميزانيتها وسلطاتها وحجم مقر قيادتها وموظفيها توسعت جميعا بشكل كبير (في عام 2002 كان حجم قيادة العمليات الخاصة المشتركة لا يتجاوز 800 عنصر، لكنها في نهاية عام 2008 بلغت 2300 عنصر)، وقد تطورت قيادة المعركة بشكل مماثل، فبعد أن كانت معتادة على القتال على

هامش الصراع الكبير، لعبت دورا مركزيا في العراق على الرغم من أن الجيش الأمريكي بذل قصارى جهده من أجل التعتيم، ولم يعترف أبدا بالقيادة ولا وحدات عملياتها الخاصة بالأسماء حينما تتم مناقشة عملياته.

لقد تظافرت عدة عوامل مكنت من صعود قيادة العمليات الخاصة المشتركة إلى مركز الصدارة، منها حقيقة أن الزرقاوي وحلفاءه كانوا مع القاعدة في الوقت الذي يعتبر فيه الجيش الأمريكي تدمير القاعدة أكثر مهماته إلحاحا، مما يعني أن قيادة العمليات الخاصة المشتركة غالبا ما يطلق عليها تسمية «قوة المهمة الوطنية» والتي من المرجح أن يكون لها دور البطولة، فالنمو السريع لشبكات الهاتف النقال في العراق والاستخدام المتزامن لها من قبل المتمردين كان أمرا لا يقدر بثمن في مساعدة فرقة مهام ماكرستل للعثور على العدو وتحديده، وينطبق الشيء ذاته على ظاهرة مقاهي الإنترنت، وإدخال طائرات المفترس بدون طيار بأعداد متزايدة.

العامل الآخر أن ماكرستل بطبيعة الحال كان محظوظا في أن يكون تحت تصرفه ذلك المزيج من النساء والرجال الذين كوّنوا خليطا لامثيل له من الاحتراف والمهارة والخيال والشجاعة والاندفاع نحو عملهم وهو شيء يجعل جميع القادة السابقين لقيادة العمليات الخاصة في وضع الشكوى، فليس هناك ضمانات في أن جميع المزايا التكنولوجية التي جلبتها قيادة العمليات الخاصة إلى

المعركة يمكن أن تؤدي في تشابكها إلى الفوز، فقد كان الأمر مثل المهندسين الألمان في الحرب الخاطفة في الثلاثينات من القرن الماضي والذين أخذوا الدبابات والأدوات والاتصالات اللاسلكية والمقاتلين ودمجوهم بطريقة لا يتصورها الآخرون.

إن ما يميز ماكرستل عن الآخرين كان: أولا رؤيته لكيفية مزج جميع الأدوات التي تقع تحت تصرفه معا، بينما يقوم بتسطيح منظمته وكسر البناء العمودي للقيادات والذي يبقي المعلومات غير مستغلة بالكامل، ثانيا كانت قوة الشخصية مطلوبة لتحويل هذه الرؤية إلى واقع، وما كان يعنيه ذلك هو إنه في أشد الأيام ظلاما على الجيش الأمريكي في العراق خلال أعوام 2005 و2006 و2007 حينما كانت البلاد في طريقها لأن تصبح مكانا تحفظ فيه جثث الموتى، كانت قيادة العمليات الخاصة هي القوة الوحيدة عمليا القادرة على تحقيق النجاح وقد اعترف الرئيس جورج بوش للمؤلف بوب ودورد بأن قيادة العمليات الخاصة كانت رائعة.

إن الدور الحاسم الذي لعبه ماكرستل وقيادة العمليات الخاصة التابعة له في هزيمة تنظيم القاعدة في العراق وجعله يعود على أعقابه في الوقت الذي بدا فيه أن الجماعة الإرهابية على حافة إن لم يكن النصر بالمعنى التقليدي، ثم دفع القاعدة العراق باتجاه فترة غير محددة من الصراع الطائفي الدموي، سيبقى أمرا غير معترف به لسنوات، فقد كان حجم قيادة العمليات الخاصة

المتنامي ودورها المتزايد في الأهمية يسرق من القيادة قدرتها على الاختباء في الظلّ.

في أقلّ من ثلاث سنوات فإن الرجل الذي سلمه ماكرستل القيادة وهو نائب الادميرال بيل مكرفن والذي يترأس أعلى ملف نجاح لقيادة العمليات الخاصة المشتركة، لكن كانت لديه مواضيع عليه أن يتطرق إليها في حدود العراق.

الفصل الثامن

استطلاع الهدف القريب في سوريا

تحركت أربع طائرات مروحية في الجو، كان اثنان منها من نوع بلاك هوك مليئتين بمشغلي قوة الدلتا، تقوم بتغطيتهما طائرتان من طراز AH ـ 6 ليتل بيرد، وكانت جميعها تتجه إلى الحدود السورية مع العراق بالقرب من منطقة القائم، وكان الطيارون الذين يقودونهما من فريق نايت ستالكرز (الصيادين الليليين)، لكن على الحدود كان ضوء النهار موجودا، فالساعة حوالي 4.45 دقيقة مساء في السادس والعشرين من تشرين الأول عام 2008، وكان الفريق في طريقه لقتل رجل.

الرجل المطلوب كان يُدعَى أبا غادية، واسمه الحقيقي بدران تركي حشان المزيدي وهو رجل عراقي في الثلاثينات من العمر يدير شبكة كبيرة من المقاتلين الأجانب في سوريا.

في ذروة الحرب في العراق أعوام 2006 و2007 قدّرت قيادة العمليات الخاصة أن أبا غادية كان يرسل من سوريا ما بين 120 إلى 150 مقاتلا أجنبيا (بضمنهم 20 إلى 30 انتحاريا) شهريا إلى العراق،

هذه المعلومات كانت بفضل جاسوس في معسكر أبي غادية والاشارات الاستخبارية التي سهّلها أحد المشغلين في فريق المهام البرتقالي الذي كان يقوم بمهمات سرية في المنطقة.

كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة تقوم بتتبع الرجل بعناية لعدة أشهر، وعلمت فرقة المهام أنه يقوم بزيارات إلى العراق أحيانا للحفاظ على حسن نياته مع المقاتلين، إلا أن قاعدته المنتظمة في المنطقة كانت في منزل آمن في قرية السكرية بالقرب من مدينة ألبو كمال السورية والتي تبعد ستة اميال عن مدينة القائم العراقية.

لقد كانت الطائرات تحلق الآن باتجاه تلك القرية وفوقها بآلاف الأقدام، كانت طائرة مسيرة من نوع المفترس تلقي بعينها الإلكترونية على الهدف وتنقل ما تراه إلى قاعدة الأسد في الأنبار، حيث كان موظفو فريق المهام يتجمعون حول عدد قليل من شاشات الحواسيب التي تتسلم تغذية الفيديو الحي (لقد كان مركز عمليات قوة المهام الغربي يفتقد إلى المعدات ذات التكنولوجيا المتطورة الموجودة لدى نظرائه في قاعدة بلد)، وبما أن طائرات الهليكوبتر قد عبرت الحدود العراقية فقد أصبحت المهمة الآن تحت قيادة وكالة الاستخبارات المركزية.

كانت الغارة على قرية السكرية قد استغرقت تسعة أشهر من التخطيط، لكنها أصبحت الدليل الوحيد العلني على حملة سرية ناجحة تشن داخل الأراضي السورية بواسطة الفريق البرتقالي

وعناصر أخرى من قيادة العمليات الخاصة منذ الأيام الأولى للحرب في العراق.

يمتد تاريخ قيادة العمليات الخاصة في الشام إلى المهام التي قامت بها قوات الدلتا وجيش فرجينيا الشمالية خلال الثمانينات من القرن الماضي، حيث حافظت قوات الدلتا على علاقات سرية مع العمليات الخاصة الإسرائيلية، فيما كان مشغلو الدلتا يرتدون الزي الإسرائيلي حينما كانوا يعملون في الدولة اليهودية، وقامت تلك الوحدة من الدلتا والتي دعيت فيما بعد بالفريق البرتقالي بتعميق شبكتها تدريجيا في المنطقة.

بعد هجمات الحادي عشر من أيلول رفعت الولايات المتحدة من معرفتها بتهديدات الإرهاب الإسلامي، وفي عام 2002 منح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد قيادة العمليات الخاصة المشتركة الضوء الأخضر لتولي مهام في كلٍّ من سوريا ولبنان.

كان لدى الولايات المتحدة قلق عميق بشأن عمليات فيلق القدس في المنطقة فضلا عن التأثير الكبير لحزب الله في لبنان، وقد صنف مشغلو وحدات العمليات الخاصة حزب الله، وليس القاعدة، كفريق حينما يتعلق الأمر بالإرهاب الإسلامي، فيما قال أحد المشغلين «لا يمكنك أن تتورط مع حزب الله، فقد جعلوا القاعدة أشبه بالمزحة».

لم تعد بيروت ساحة حرب كما كانت عليه أعوام السبعينات

والثمانينات، لكن الخطر مازال يختبئ في الظلال، وقد تعلّم أحد مشغلي جيش فرجينيا الشمالية هذا الدرس بالطريقة الصعبة في تشرين الأول من عام 2002 حينما قام بالسير على الأقدام بالقرب من الكورنيش الشهير في العاصمة اللبنانية، فقد كان عائدا من مهمة في البلد المجاور ومرّ عبر لبنان من أجل القيام بأنشطة لإدامة غطائه غير الرسمي حينما أجبره ثلاثة أشخاص على دخول سيارة في طريق عودته القصير إلى الفندق.

المشغل تعود خلفيته إلى القوات الخاصة، لكنه لم يكن مسلحا، حاول المقاومة وتمكن من مصارعة مسدس من طراز كاليبر كان يحمله أحد المهاجمين وتمكن من الهرب، لكنه أصيب بإطلاقة في الحجاب الحاجز.

المشغل لم يكن يرغب بكسر غطائه من خلال الذهاب إلى السفارة الأمريكية، ولذا أجرى اتصالا بدلا عن ذلك وتم وضعه تحت رعاية ضابط طبي إقليمي والذي كان يعمل من داخل السفارة.

بناء على نصيحة الطبيب قام بخياطة جرحة بنفسه في غرفة الفندق، واستمر بعملية الاستطلاع المضادة بشكل كامل، طبقا لمصدر في المهمات الخاصة، ثم انتقل المشغل بعد ذلك إلى العملية الشاقة المطلوبة لتغطية مسارات تتبعه قبل مغادرته لبنان دون أن يكسر تغطيته.

وعلى الرغم من معاناته من جرح الإطلاقة تمكن من عبور

حدود دولية متعددة قبل أن يتلقّى العلاج الطبي مما يعتبر إنجازا حرفيا وقدرة على التحمل كان يناقشها المطلعون همسا لعدة سنوات في وقت لاحق، وقال مصدر من وحدة المهمات الخاصة إن «وضع الناس وإخراجهم من تلك البيئات يتطلب خطوات متقنة جدا لضمان أن تكون العملية نظيفة من خلال تغطية سليمة وليس تحت المراقبة».

وأضاف أن «الرجل مرّ بكل تلك الخطوات، وهذا هو السبب في أنها كانت أسطورية»، أما بالنسبة لما يتعلق بالذين هاجموا المشغل وأسباب ذلك الهجوم فقد كشف موظف في قيادة العمليات الخاصة على دراية بالمهمة أنهم كانوا على الأرجح من مجرمي الشوارع الذين رأوه هدفا وفرصة وليسوا أعضاء في حزب الله الذين شكوا بأنه كان أكثر مما يبدو عليه، فيما تسلم المشغل بعد ذلك نجمة فضية لبسالته في العمل ضد أعداء الولايات المتحدة خلال الفترة من 19 إلى 21 تشرين الأول من عام 2002.

كان لدى قيادة العمليات الخاصة الكثير من الأسباب وراء الرغبة في دخول سوريا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، أحدها معرفة أن سوريا كانت تمتلك أسلحة كيميائية وتحاول تحقيق قدرات نووية، ربما بمساعدة من إيران، كما كان لفيلق القدس نفوذه في سوريا، فضلا عن أن احتلال العراق عام 2003 بشّر حالا بقلق جديد، فالجماعات المتمردة السنية قد استخدموا سوريا كمحطة

وطريق للمتطوعين من المليشيات المتجهة إلى العراق من العالم الإسلامي الأوسع.

وكما هو الحال في لبنان كان لقوة المهام البرتقالية دورا كبيرا، حيث مثل عام 2003 نقطة التحول في العقلية لديها، فالثقافة التي كانت عليها قيادة العمليات الخاصة تستلزم تغيير القيادة، وجرى هذا الأمر خلال الصيف، فقد تم استبدال قائدها العقيد توم توت من المدرسة الاستخبارية القديمة بالعقيد كت تروتمان الذي كان يعمل مساعدا له، وقد بدا مختلفا جدا، حيث قال أحد الضباط «إنه كان ذا تركيز تكتيكي جدا، وكان يريد دخول القتال بشدة وخصوصا رغبته في تغيير الوحدة وتحديث منصات الإشارات الاستخبارية».

كانت قوة المهام البرتقالية تقدم بشكل مباشر دعما حقيقيا لقوة المهام في قيادة العمليات الخاصة المشتركة، فيما قال أحد الضباط إن «منهج ترومان كان لدعم الوحدات أفقيا وعموديا»، مضيفا أن «الجميع في تلك المنظمة كانوا يريدون الدخول في القتال لأنهم يعرفون أن بقاءهم كأصول استراتيجية يعني بقاءهم على الهامش».

إن الشيء الذي لم يتغير في الوحدة البرتقالية هو دورها المتكرر باعتبارها الذراع التكتيكية لوكالة الأمن القومي (NSA) والتي كانت تمول معظم ميزانية إشارات الوحدة الاستخبارية بواسطة برنامج التشفير الموحد، الأمر الثابت الثاني هو هاجس الوحدة بالسرية حيث قال ضابط متقاعد في العمليات الخاصة إن «كل

فرد في الوحدة كان مدرجا ضمن قوائم الجيش، مما يعني أنه ليس موجودا»، وعلى الرغم من وجود مقر للوحدة في معسكر بلفوير في فرجينيا، لكن أسرابها الثلاثة وهي الأرضي، والإشاري، ودعم المهام، فضلا عن عناصر الطيران الداعمة لها التي تنتشر حول مناطق واشنطن كانت في كل الأحيان تدار من مواقع سرية.

في عام 2003 كان لدى الوحدة البرتقالية فرق في السعودية وفي القرن الأفريقي وأمريكا الجنوبية من ضمن المناطق التي تقع خارج العراق وأفغانستان، لذا كان لدى الوحدة البرتقالية كل شيء في العالم.

وقال أحد المخضرمين في وحدات المهمات الخاصة «لقد كان مشغلو الوحدة البرتقالية في الشام يعملون في المناطق التي كانت يتحرك فيها الجواسيس الإسرائيليون باستمرار، الأمر الذي يفسر جزئيا السبب في أن المهمات في سوريا ولبنان كانت عرضية».

وأضاف أنه «على سبيل المثال إذا أوقفت الأجهزة الأمنية السورية شبكة من المصادر الإسرائيلية للاستجواب فإن قيادة العمليات الخاصة كانت تريد معرفة ما الذي تكهنه السوريون قبل أن يقوموا بإعادة مشغليهم»، فيما قال أحد المحققين القدامى في المهمات الخاصة إنه «وبسبب هذا الحذر، لم يتعرض أيٌّ من مشغلي الوحدة البرتقالية للخطر في سوريا وهو ما يعتبر سجلا ملحوظا، لأن المخابرات السورية كانت جيدة

حقا»، مضيفا أن «المخابرات السورية كانت دائما تبحث عن جواسيس لها طوال الوقت».

لقد مكّنت تلك المهمات قيادة العمليات الخاصة المشتركة من بناء صورة تفصيلية عن الشبكة التي تقوم بنقل الجهاديين من مطارَي حلب ودمشق عبر القسم السوري من وادي نهر الفرات إلى أن يتمّ عبورهم الحدود العراقية من جهة مدينة القائم.

بعد عدة سنوات كان هناك اسم واحد يبرز باعتباره المخطط الرئيس لتسهيل عبور جماعة الزرقاوي في سوريا وهو أبو غادية، وقد حاولت الولايات المتحدة الضغط دبلوماسيا على سوريا، حيث أرسلت ديل دايلي (منسق وزارة الخارجية لشؤون مكافحة الإرهاب من حزيران 2007 إلى نيسان 2009) في جولة عبر العواصم العربية للطلب من حكوماتها ممارسة ضغوطها على نظام الأسد، كما أعطت الحكومة الأمريكية نظيرتها العراقية معلومات استخبارية عن نشاطات أبي غادية، وهو ما دفع العراقيين إلى الضغط على الحكومة السورية لفعل شيء حيال ذلك.

لقد رفضت الحكومة السورية في البداية اتخاذ أي إجراءات، ربما لأن إبقاء أبي غادية في وضعه يمكن النظام من تتبع شبكة المقاتلين الأجانب عن قرب في بلادهم.

وقال مسؤول كبير في قيادة العمليات الخاصة «لقد كان أبو غادية يدير الشبكة، وكان من السهل على المخابرات السورية إبقاء

عيونهم مفتوحة عليه» وهو الأمر الذي أغاظ بترايوس الذي شعر بالإحباط من تقاعس السوريين ودفعه إلى أن يتطوع بالسفر إلى دمشق ومواجهة الأسد بشأن أبي غادية، لكن الرئيس بوش رفض هذا العرض في اجتماع عبر دائرة تلفزيونية مغلقة مع الجنرال.

في النهاية تعب النظام السوري من وجود أبي غادية داخل حدوده وسمح للحكومة الأمريكية بمعرفة أنه يمكنها أساسا النظر بطريقة أخرى إذا استهدفته القوات الأمريكية وقامت إدارة بوش بتسليم المهمة إلى قيادة العمليات الخاصة المشتركة.

بالنسبة لبعضهم كان يبدو أن قيادة العمليات الخاصة بحاجة إلى قليل من الحث لضرب أبي غادية، وبحلول عام 2008 أنشأت كلٌّ من القيادة المركزية وقيادة العمليات الخاصة الأمريكية فريق عمل مشترك بين الوكالات في مقرهما في تامبا في ولاية فلوريدا لتتبع المقاتلين الأجانب (ترأس سكوت ميللر كلا القيادتين»، وقد أعطيت الأولوية لأبي غادية على أساس أن مصادر استخبارية متعددة قد تعرفت عليه بأنه المسهل الرئيس للمقاتلين الأجانب الذين توجهوا إلى العراق، وأن إزالته من شأنه أن يخلق توقفا في تدفق الإرهابيين الأجانب الذي كان يسعى إليه بترايوس.

لقد عملت فرقتا المهام معا على وضع تصور للعمليات في المهمة ضد أبي غادية، لكن فرقة مهام تامبا قد طلبت التفويض فقط وليس سلطة المهام، ولم يتمكنوا من إصدار الأوامر إلى

المنظمات الأخرى، وحينما طلب من قيادة العمليات الخاصة التحرك اعترضت على ذلك بحجة أن ليس لديها الأصول الكافية للقيام بالغارة، بينما تحافظ على وتيرة عملياتها في العراق، لكن قيادة العمليات الخاصة المشتركة حاولت توضيح وقفة إلى القيادة المركزية ووحدات العمليات الخاصة مدعية أنه طالما كان أبو- غادية على قائمة أهدافها فلا يستطيع أحد أن يطلق مهمة ضده.

هذا الامر لم يكن مقبولا لدى نائب قائد القيادة المركزية الفريق مارتن ديمبسي، حيث قال أحد المصادر في القيادة المركزية إن ديمبسي قال لقيادة العمليات الخاصة المشتركة «إذا لم تقوموا بفعل شيء فنحن سنقوم بذلك»، وقد تسبب هذا التهديد قيام العمليات الخاصة المشتركة بإعطاء الأولوية لأبي غادية.

طوال تسعة أشهر على الأقل ركزت قيادة العمليات الخاصة المشتركة على جمع المعلومات الاستخبارية عن محور المقاتلين الأجانب، وكان المخططون يعلمون أنه وعلى الرغم من قيام أبي غادية ببناء بيت في منطقة الزبداني على بعد حوالي ثلاثين كيلومتر شمال غرب دمشق، لكنه كان يتردد على المنزل الآمن بالقرب من مدينة ألبوكمال وفي بعض الأحيان كان يسافر إلى العراق.

لقد كانوا يأملون أن يدخل إلى العراق بينما هو تحت المراقبة، لكنه لم يفعل ذلك ولذا كان البديل عن ذلك هو ضربه أثناء تواجده في المنزل الآمن وقد قام مشغل الوحدة البرتقالية بعدة رحلات

منفردة لقرية السكرية سراً للاستمرار في مراقبة أبي غادية، وكان من بين مهامه وضع ونقل المعدات التي تسمح لوكالة الأمن القومي تحديد موقع الهاتف النقال لأبي غادية بشكل دقيق في مبنى معين، كما أن قيادة العمليات الخاصة المشتركة كان لديها اختراق للتجسس على أبي غادية ضمن حلقته القريبة، وهو جاسوس كان قد تم تجنيده بالأصل من قبل المخابرات السورية.

في عملية التخطيط لضربة جوية في سوريا، وعلى الرغم من أنها على بعد بضعة أميال فقط من الحدود العراقية، كان على محللي الاستخبارات في فرقة المهام تحديد وقت ردّ الفعل المحتملة من قبل القوة الجوية السورية وقوات حرس الحدود وشبكات الدفاع الجوي، في حين أبلغت الولايات المتحدة كبار المسؤولين السوريين في دمشق أن الغارة ربما تكون وشيكة الوقوع لأن الجنود على طول الحدود السورية لم يكونوا الأكثر حكمة.

الدفاعات الجوية السورية كانت موجهة نحو إسرائيل وتركيا وليس العراق منذ فترة طويلة، فيما أفادت المعلومات الاستخبارية أن طياري القوة الجوية السورية لم يكونوا يحلقون سوى بضع مرات في الشهر، فيما قال مصدر في الاستخبارات العسكرية الأمريكية إن «الطيارين السوريين لم يكونوا في حالة إنذار وتأهب».

لقد قدر مخططو الاستخبارات في فرقة المهام أن المشغلين قد يقضون ما لا يقل عن 90 دقيقة في داخل سوريا على الهدف قبل

وصول المتاعب إليهم، فيما قال مصدر في الاستخبارات «لقد كان ذلك وقتا كبيرا بالنسبة لفرقة المهام، لكن بالنسبة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة كان عليها أن تطلق الجاسوس في معسكر أبي غادية وأن يخبرهم أن الشخص المطلوب يتواجد في المنزل الآمن، كما يجب أن يكون هاتف أبي غادية على ذلك الموقع».

مصدر في الاستخبارات العسكرية قال إن «هناك عدة بدايات خاطئة فقد قضى الكثير منا الكثير من الوقت في التخطيط لذلك وخرجنا إلى قاعدة الأسد في محافظة الأنبار عدة مرات من أجل الحصول على ذلك الرجل».

أخيرا اجتمع الجميع في يوم 28 تشرين الأول من عام 2008 وكان طاقم طائرات الهليكوبتر من الفرقة البنية قد قضى حوالي 36 ساعة في التحضير للمهمة، وبعد عبور الحدود، كان الطيران إلى الهدف لم يستغرق سوى 15 دقيقة، والهدف كان في القرية الصغيرة هو بناء من طابق واحد ذو سقف مسطح.

لم تطلق طائرات الهليكوبتر النار عند اقترابها من الهدف فقط هبطت مروحيات بلاك هوك وقامت بنشر المشغلين الذين انطلقوا إلى المبنى، حيث قاموا بقمع المقاومة التي أبداها أبو غادية وحفنة من المسلحين التابعين له خلال 90 ثانية فقط مما أسفر عن مقتل ما بين ستة إلى اثني عشر مسلحا دون أي إصابة أو قتل في صفوف المشغلين.

لقد امضى المشغلون حوالي ساعة في استغلال الموقع الحساس لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الاستخبارية القيمة قدر الإمكان قبل أن يطلبوا من طائرات بلاك هوك العودة بهم، فيما تم تجميل جثمان ابي غادية على متن طائرة الهليكوبتر عبرت الحدود وعادت به إلى قاعدة الأسد، وكما توقع محللو الاستخبارات لم تظهر أيٌّ من القوات الأمنية السورية أثناء وجود المشغلين على الأرض.

لقد استمرت الوحدة البرتقالية بعملها في بلاد الشام، لكن وجودها انخفض في غضون عامين بعد أن أصبحت إيران هي الأولوية الأعلى، فيما زادت قوات الدلتا التزامها بالمنطقة.



الفصل التاسع

النصر في الموصل

كانت ليلة ساخنة أخرى من بداية الصيف، والعرق يتحدر من تحت خوذات قوات الرينجر التي تزحف شمالا عبر الشوارع والأزقة الخلفية لمدينة الموصل، لقد تركوا خلفهم مركبات سترايكر على الجانب الجنوبي من القناة علي بعد كيلومترين تقريبا خلفهم حتى لا ينتبه الهدف في الوقت الذي يحاولون فيه اقتحام منزله.

وكعادة الكثير من قياديي الإرهاب لم يكن الوصول إليه بالأمر السهل بواسطة المركبة بأي حال من الأحوال، وقد كان وقوف المركبات بعيدا حتى الآن ينطوي على الكثير من المخاطرة، فهم لا يستطيعون الرد بمدافع الرشاشات الثقيلة لمركبات سترايكر ولا القيام بإخلاء الضحايا بسرعة عند حصول أي إصابات، لكن الهدف كان يستحق المخاطرة.

لقد أشار التحالف إلى أن المدعو أبو خلف هو أمير الموصل في تنظيم القاعدة في العراق، لكنه في الواقع كان الرجل الثاني في

التنظيم بعد أبي أيّوب المصري الذي تولى المسؤولية بعد مقتل الزرقاوي، وقد طاردت فرقة المهام أبا خلف لمدة ست سنوات دون أن تنجح في اصطياده، اليوم ولأول مرة تتمكن فرقة المهام من تحديد مكانه وضربه قبل أن تتاح له الفرصة للهروب.

خلال الأشهر السابقة كانت فرقة المهام الشمالية تقوم بسلسلة من الغارات فككت فيها بشكل مطرد البنية التحتية للقاعدة في العراق، لقد كانت قوة الرينجر تعلم أنه كان يوم 24 حزيران من عام 2008 وأن لديهم الفرصة للقيام بضربة مدمرة ضد الشبكة الإرهابية.

لقد كانت هذه المهمة هي الأكثر أولوية بالنسبة لأي من المشتركين فيها، فهي لا تمثل فقط الماكنة التي خلقها الجنرال ستانلي ماكرستل وانتقلت بعد ذلك إلى نائب الادميرال بيل مكرفن فحسب بل إنها تعكس إلى أي مدى تطورت قوة الرينجر منذ عملية «روهينو» قبل أقل من سبع سنوات.

اقتحم طابوران من الجنود منزل أبي خلف من الخلف وهو طريق تم اختياره جزئيا لكي لا يشعر بهم الحراس على السقف، وبينما كانوا يتحركون بهدوء كانت طائرة صغيرة من مجموع اثنتين صممت على الطراز المدني تحلق مرتفعة فوق الهدف ومؤكدة موقعها لقوة الرينجر من خلال إطلاقها الضوء على ومضات قصيرة تشبه ضوء الأشعة تحت الحمراء الذي ينطلق من نظارات الرؤية الليلية لديهم، لكنه لم يكن مرئيا للعين المجردة، وقد كانت هناك

مجموعة متنوعة من هذه الطائرات تحلق فوق مدينة الموصل، لكن الوحدة البرتقالية عادة ما كانت تستخدم طائرات من طراز سيسناس أو طائرات مروحية مماثلة لها محشوة بأجهزة التصوير وأجهزة الإشارات الاستخبارية.

لذا إذا كان هناك أيٌّ من المتمردين يقوم بالهروب من المبنى أو تمكن من الإفلات من نطاق جنود الرينجر فإن الطائرات ستقوم بتعقبه بالإضاءة النابضة بالأشعة تحت الحمراء بحيث يمكن التعامل معه بعد الهجوم الأولي.

لقد كانت تلك الليلة مهمة الفصائل الأربعة المشاركة في الهجوم، وقد ترك إحداها لحراسة المركبات، بينما تحركت الفصائل الثلاث المكونة من 8 رجال في كلٍّ منها إلى الهدف وهم يعانقون الجدران ويتخفون في الظلام في طريق اقترابهم من بيت أبي خلف الذي كان في وسط الزقاق وكان على أحد المجموعات أن تأخذ زمام المبادرة في الهجوم من خلال خرق ودخول المنزل من قبل رقيب الفصيل وهو جندي الوحدة الأكثر خبرة، فيما يبقى الآخر في الاحتياط في مواجهة الهدف في حال الحاجة إلى تعزيز الهجوم، ما تبقى من جنود الفصيل ينقسمون إلى فريقين مكونين من أربعة أفراد، يتخذ كلٌّ منهم موقعا في زاوية من الزقاق لعزل الهدف وعدم السماح لأي شخص بدخول أو مغادرة المنطقة.

بعد أقل من عشر دقائق على مغادرتهم مركباتهم وصلت قوة

الرينجر إلى نقطة الانتشار وهي تبعد زقاقا واحدا عن الهدف، وكان أربعة من القناصين يراقبون الفريق ويعزلون الفريق، أما بقية القوة الهجومية فتوقفوا في الزاوية بعيدا عن نظر المنزل، وكان على بعد زقاق واحد يقف العقيد مايكل ايريك قائد كتيبة الرينجر الثانية وقوة المهام الشمالية وقائد الفصيل الرائد كوريللا لمراقبة المهمة فقد كان يعرف أن المخاطر عالية، حيث إن الرائد يعتبر رسميا قائد القوة البرية بشكل رسمي، لكن دوره الأساسي كان إبقاء مقر عمليات الفريق الشمالي متحركا وطلب أصول إضافية عند الحاجة.

كانت قوة الهجوم كلها متلهفة للتحرك، كل ثانية ينتظرون بها تزيد من فرصة انكشافها، لكن قائد الفصيل الرائد كان يقود قوة الهجوم، كان يريد الانتظار إلى أن يتمكن فريق المراقبين من القناصة في مواضعهم على السطح المجاور للمبنى المستهدف، فيما قال أحد عناصر الرينجر المشاركين في المهمة إن «دور الفريق كان ضمان أن يكون لدى قوة الرينجر العديد من العيون وغلق جميع ثغرات المنزل قدر الإمكان».

كان عناصر الرينجر الأربعة في الفريق يتحركون بأسرع ما يمكن، متسللين من سطح إلى سطح عبر سلم خفيف من الغرافيت يبلغ طوله 30 قدما، وبعد فحص صور الحي اختار قائد الفريق موقعا يمكن أن يصل إليه رجاله دون رؤيتهم، لكن المشكلة إنهم كانوا بحاجة إلى تجاوز سبعة سطوح من أجل الوصول إليه.

لقد جثمت قوة الهجوم في مكانها وكانت تنتظر، التوتر كان يزداد وكان الرينجر يقفون على زاوية قطرية من منزل أقوى زعيم للإرهابيين في شمال العراق، بعيدين عن خط الرؤية المباشرة للهدف، لكنهم مغمورون بأضواء الشارع، وكما يستذكر أحد عناصر الرينجر «كان هناك شعور ملحٌّ للقيام بالاقتحام، لكن قائد الفصيل الذي كان قد قام بـ200 مهمة مع قائد فريق القناصة وهو رقيب من الدرجة الأولى، كان يعرف أنه يمكن الاعتماد عليه، في النهاية اتصل قائد الفريق وقال إن فريقه في مواضعه.

وقال عنصر الرينجر «لقد استغرقت الرحلة على سطوح المنازل حوالي تسع دقائق، في وتيرة لا تصدق حين التفكير في ما ينطوي عليه الأمر في نقل أربعة رجال على سلم واحد»، مضيفا «كانت تبدو وكأنها أبدية حينما تكون جالسا في الشارع في زاوية مضاءة بشكل جيد في إحدى المدن الأكثر عدوانية في العراق».

بدأ قائد زمرة الهجوم وعريف الفصيل بالركض عبر الشارع ليصبحوا في وضع الاستعداد للاقتحام، لكن ومثل العديد من منازل الإرهابيين كان مجمع بيت أبي خلف محميا بجدران عالية وبوابة فولاذية ثقيلة، فيما يقدم الباب الأمامي السميك المزيد من الحماية، وكان الرينجرز بحاجة إلى اقتحامها في وقت واحد، لذا وضع قائد الزمرة المهاجمة سلما على الجدار الخارجي ونزل في المجمع حيث انتقل بسرعة لوضع عبوة ناسفة عند الباب، فيما كان

الآخرون يستعدون عند المدخل أو يتسلقون السلم لتغطية قائد الزمرة حيث يضع الشحنة عند الباب.

همس قائد فريق القناصة عبر المايكروفون الموضوع على كتفه أن عنصرا من عناصر المليشيات الذين كانوا يرقدون عند السطح على الهدف وقف، وعلى ما يبدو أنه سمع فريق الهجوم وهو يتخذ مواقعه، على الرغم من حرص قوة الرينجر على الصمت، ولذا قام الرائد بفحص الشاشة المعلقة على صدره والتي تمكنه من مشاهدة فيديو في الوقت الحقيقي من الطائرة التي تحلق فوق رؤوسهم وشاهد أن رجلا بدأ بالتحرك على سطح المنزل، وفي ذات اللحظة جاء صوت عريف الفصيل عبر الراديو «ثلاثة، اثنان، واحد، اقتحام»، وتبع ذلك ضبابية من الحركة والعنف.

لقد سحب الرجل الذي كان يتحرك على السطح مسدسا وتحرك باتجاه جبهة المبنى وكان هذا أقصى ما استطاع أن يقوم به قبل أن يطلق قائد القناصة رصاصتين في جمجمته أردته قتيلا على الفور، ومع انفجار قنبلة الاقتحام عند المدخل بصوت يصمّ الأذان وصل الرجل المتبقي على السطح إلى بندقية هجومية، كانت قوة الرينجر تسرع من تحته عبر الباب الذي يطل على غرفة معيشة، فيما قال عريف الفصيل عبر مايكروفونه «لقد كان اقتحاما جيدا، النسور يتحركون في موطئ القدم»، وبكلمات أخرى استطاع الفريق المهاجم أن يفجّر عند الباب والمدخل وكانوا داخل المنزل.

حينما كانوا يقومون بتطهير المنزل والتحرك بداخله والقضاء على أية تهديدات كان الرينجر يتحركون داخل المبنى مثل الماء والقيام بعملية مسح لكل غرفة عبر خريطة متزامنة هي نتيجة لمئات التدريبات المكررة والقتال، وحالما يجدون أيّ رجال في سن العسكرية تتوقف قوة الرينجرز للحظات وتترك اثنين من الجنود لمراقبة تلك الغرفة، فيما يستمر الآخرون بالتطهير في بقية البناية، فيما لم يكن من المألوف للرينجر تطهير مجمع في أقل من 20 ثانية.

كانت غرفة المعيشة مفتوحة على مدخل يقود إلى ممر يحتوي على بضعة غرف نوم، وفي أول غرفة عثر قائد الزمرة وأحد عناصر الرينجر الشبان على رجل وإمرأة كان ينامان على حصير وقد طلبا من الزوجين وضع أيديهما على رؤوسهما، كلاهما لم يفعلا ذلك، وكرر عنصرا الرينجر الأمر، في الوقت الذي كان فيه زملاؤهم يقومون بفحص الغرف الأخرى في الممر.

بدلا من أن يضع يديه على رأسه كما يتطلب الأمر، بدا الرجل وكأنه يريد الوصل بيده إلى داخل ردائه، لذا شدد قائد الزمرة إصبعه على زناد بندقيته من طراز M4 وكان لديه أقل من ثانية لاتخاذ قرار حياة أو موت.

***

بحلول عام 2008 أدت نجاحات قيادة العمليات الخاصة المشتركة في الأماكن الأخرى من العراق إلى تحويل الجهد الرئيس

للقيادة في العراق إلى فرقة المهام الشمالية، وبعد أن تمّ محاصرتها في بغداد والأنبار تركزت القاعدة بشكل متزايد في الموصل، وكانت قوة فرقة المهام الشمالية الضاربة مكونة من فصيلين من قوة الرينجر وقوات الدلتا، وبعد تقييم قوة الوحدات استقر كوريللا على تقسيم العمل حيث أوكلت قوة الدلتا بهجمات الهليكوبتر واعتراض المركبات في صحراء سنجار بين الموصل والحدود السورية إلى الغرب، بينما تركز قوة الرينجر على الهجمات في المناطق الحضرية بعرباتهم من طراز سترايكر.

في النصف الأول من العام خضع هذا التجمع لتنظيم القاعدة في العراق إلى حملة لا هوادة فيها استهدفت مقاتليها الأجانب وأمراءها الماليين والروحيين وقادتها العسكريين ووصلت وتيرة العمل لفرقة المهام إلى القيام بثمان غارات في كل ليلة.

القوة الضاربة كانت تقوم بضرب المنزل بناء على المعلومات الاستخبارية التي تفيد بوجود هاتف خلوي مرتبط بقيادي إرهابي في داخله، وبمجرد أن تعثر القوة الضاربة على الهاتف يقوم المحللون بتحميل محتوياته في أجهزة حاسوب معبأ ببرامج رسم الخرائط الشبكية المتقدمة، ثم يقومون بجمع ما حصلوا عليه من معلومات من استجواب المعتقلين، فيما قال مصدر من فرقة المهام الشمالية إن «المحللين سيقومون بعد ذلك بتحميل مجموعة من الأهداف الإضافية فورا بناء على تلك المعلومات حتى نتمكن من

تدمير الخلية كلها في فترة الظلام، وهو أمر لم يكن يحصل أعوام 2004 و2005».

لقد كان أبو خلف من أهم اهداف الفرقة الشمالية، لكنّ المحللين لم يتمكنوا أبدا من الاتصال بهاتفه الخلوي و«هو السبب الذي أبقاه حيا طوال ست سنوات» بحسب المصدر، مضيفا أنه «لم يكن لديه حتى سعاة يستخدمون الهاتف الخلوي»، لكن المفاتيح التي مكنت من العمل أخيرا على أبي خلف على الأرض كانت من التجسس الأرضي السيبرانية لوكالة الأمن القومي ومن مصادر التجسس العراقية العاملة مع فرقة العمل الشمالية والذين يُدعَون بالموهوكس والذين كانوا في تلك القضية من الجواسيس الأكراد الذين تديرهم قوات الدلتا.

كانت هناك شكوك في أن قادة الإرهاب يتواصلون من خلال تقاسم اسم مستخدم وكلمة سر واحدة في بريد إلكتروني مشترك وتتم العملية من خلال كتابة رسائل إلى بعضهم وحفظها في البريد كمسودات دون إرسالها، فيما يتمكن زملاؤهم من قراءتها طالما لديهم اسم المستخدم وكلمة السر الصحيحة، ولهذا قامت وكالة الأمن القومي برنامج استفهام يقوم على تنبيهها كلما تم إدخال نفس معلومات اسم المستخدم وكلمة المرور في بلدان مختلفة مثل باكستان وسوريا والعراق وفي غضون بضع ساعات تحصل الوكالة على اسم المستخدم وكلمة المرور لتلك الحسابات، فيما سمحت فرقة العمل الشمالية لجواسيسها (الموهوكس) بتحميل

برامج على أجهزة الحواسيب في مقاهي إنترنت الموصل والتي من شأنها ان تنبههم كلما كتب شخص ما في واحدة من تلك المجاميع اسم المستخدم نفسه وكلمة المرور.

سرعان ما عرف المحللون أنهم يتتبعون أحد كبار قادة تنظيم القاعدة من محتويات أحد الحسابات، لكنهم لم يكونوا يعرفون هويته بالضبط، فقد أشرت حالة تنبيه أن شخصا ما يحمل اسم المستخدم قد سجل دخولا في أحد مقاهي الموصل لفترة كافية مكنت الموهوك المتواجد هناك والذي يعمل لصالح فرقة المهام من تحديد هويته بشكل إيجابي على أنه هو أبو خلف بعد خروجه من المقهى وسيره باتجاه سوق مجاور.

بعد متابعته من قبل الموهوك وطائرة فرقة المهام، عاد الإرهابي إلى منزله وأصبح الهدف تحت مسمى (هلال البحيرة) ببساطة لأن كلمة (هلال البحيرة) كان الرمز المستخدم لأبي خلف في مهمة الاستهداف الإلكترونية.

لقد كان الوقت ما بعد الظهر وغريزة كوريللا تخبره بأنه ينبغي الهجوم عليه فورا، لكن ضابط عملياته أقنعه بإبقاء المنزل تحت المراقبة ورسم خريطة شبكة أبي خلف من خلال قيام طائرة مسيرة بمتابعته كلما ترك المنزل لرصد تحركاته، لقد كان في الأمر نوع من المخاطرة حيث يمكن أن تفقده فرقة المهام الشمالية ببساطة. سرعان ما حصلت فرقة المهام على طائرتين بلا طيار فوق المنزل، لقد كان

هذا الأمر روتينيا بالنسبة لفرقة المهام عام 2008 في الموصل والتي اعتادت السيطرة على 14 طائرة مراقبة فوق المدينة في وقت واحد.

في مقر فرقة المهام في قاعدة العمليات الأمامية (Base Marez) كان القادة والمحللون يشاهدون بشكل متأكد قيام أبي خلف بالخروج من منزله في وقت مبكر من المساء وعودته إلى السوق، حيث أقلّته مركبة من نوع سيدان سوداء، كان كوريللا يشعر بالقلق، لأنه حتى مع وجود هذه الأصول الرائعة للمراقبة لدى فرقة المهام، كان من السهل أيضا فقدان أبي خلف داخل وخارج حركة المرور المزدحمة أو أن يقوم مثلا أثناء ذلك بتغيير سيارته، لكنّ محللي الصور المدربين تدريبا عاليا أبقوا اعينهم على السيارة حيث عاد أبو خلف إلى الحي الذي يسكن فيه بعد أن التقى برجلين في فناء أحد المنازل في إحدى المناطق الريفية لمدة ثلاثين دقيقة قبل عودته بمركبة السيدان إلى منزله.

مع حلول الظلام وضعت فرقة المهام خطة للقيام بهجومين متزامنين في الوقت نفسه في تلك الليلة حيث تقوم إحدى الفصائل بمهاجمة منزل أبي خلف بينما تقوم الثانية في الوقت نفسه بمهاجمة المجمع الذي التقى فيه الرجلين، وبعد سلسلة قصيرة من جلسات الإيجاز والتخطيط حملت قوة الرينجر عناصرها في مركبات سترايكر وخرجت من البوابة.

***

اتخذ قائد الزمرة قراره فسحب الزناد وأطلق النار على رأس الرجل، أدرك عنصر الرينجر ما كان يريد قائد زمرته أن يقوم به لذا قام بالفعل نفسه وإطلاق النار إلى جانب سلاح قائده الاوتوماتيكي، وقال أحد عناصر الرينجر لاحقا «لقد كان ردّ فعلهما عدوانيا دون تقييم، فلو ثبت أن الرجل كان غير مسلح لكانت هناك عواقب على هذا الفعل».

أفاد قائد الزمرة بعد ما قام به أن الغرفة تم تطهيرها وهي آمنة وترك عنصر الرينجر المتخصص لحراسة المرأة وفوقهما قتل قائد فريق القناصة المسلح الثاني على السطح، لكن بمجرد مغادرة قائد الزمرة الغرفة تحركت المرأة نحو جسد زوجها ومرة أخرى كان على متخصص الرينجر أن يتخذ قرارا في جزء من الثانية، ومرة أخرى قالت له غريزته أن يحسب الزناد، فأطلق دفقة قصيرة من النيران انشطر فيها راس المرأة إلى نصفين.

مع تشتيت انتباه المجموعة لعدة لحظات من صوت إطلاق النار، انطلق شخص من آخر غرفة بقيت لم يتم تطهيرها وركض نحو الدرج وهو يقبض على مسدس مندفعا خارجا نحو قبة السطح، فقط ليجد نفسه بمواجهة قائد فريق القناصة الذي وضع رصاصتين في رأسه ولتهوي جثة الرجل المسلح مرة أخرى عبر القبة إلى الطابق الأرضي وتتحطم على أحد عناصر الرينجر، وكان تأثيرها إنها كسرت نظارة الرؤية الليلة على وجه الأخير، وهكذا كان أبو خلف ميتا.

لقد كانت قوة الرينجر في المنزل لمدة أقل من ثلاثين ثانية، ومع تطهير المنزل أخيرا وقتل جميع الذكور البالغين، بدأت الرينجر مرحلة استثمار المهمة فقد كشف فحص الرجل الميت في الغرفة الأولى وجود سترة انتحارية، ولو لم يطلق عنصرا الرينجر النار على الرجل فربما كانا وبضعة من رفاقهم في عداد الموتى، فقد أنقذت غريزة قائد الزمرة العديد من الأرواح، كما كان قرار عنصر الرينجر المتخصص بإطلاق النار على المرأة، وكانت أول امرأة يتم إطلاق النار عليها من قبل الفصيل في 200 مهمة، كانت عملية إطلاق النار غير عادية على الإطلاق لأن 10 بالمئة فقط من مهمات الفصيل تضمن تبادلا لإطلاق النار.

عثرت قوة الرينجر أيضا على مبلغ 120 ألف دولار كان أبو خلف قد تسلمها من الرجل الذي التقى به في وقت سابق من ذلك اليوم، وهو طبيب مصري، كشفت المعلومات الاستخبارية لفرقة المهام أنه كان في العراق من أجل العمل على نوع من الهجمات الكيميائية (القاعدة في العراق كانت تحاول منذ عدة أشهر الهجوم بسيارة مفخخة كيميائيا على إحدى قواعد التحالف).

وقال أحد الجنود الذين كانوا هناك «لقد كانت قوة الرينجر مبتهجة وكوريللا وجه الخصوص كان متحمسا، فقد حققوا انتصارا كبيرا والمهمة تم تنفيذها بشكل رائع».

كان تأثير الهجوم يمكن قياسه من كمية الرسائل التي تم إعتراضها

من قيادة فرقة المهام خلال الأسابيع القليلة التي تلت ذلك، فقد كتب أحد عناصر القاعدة في العراق في رسالة تم اعتراضها «أنا متعب من الجري، وليس لدي مكان للنوم فهم يطاردونني في كل يوم ولا أستطيع الاستمرار بذلك».

بالتزامن مع عمليات القوات الأمريكية والقوات العراقية التقليدية حافظت قوة المهام الشمالية على الاستمرار بالطرق على تنظيم القاعدة في العراق، وكانت النتيجة انخفاض ثلثي الهجمات بالسيارات المفخخة في الفترة ما بين آذار إلى حزيران من عام 2008، حيث انخفض عدد الهجمات من 234 إلى 78 فقط، وبالنسبة للسيارات الانتحارية المفخخة كان الانخفاض بنسبة 59 بالمئة من 72 سيارة إلى 11 سيارة فقط.

إن أرقاما كهذي إلى جانب نجاح الهجوم على أبي خلف وغيره من القيادات البارزة سبب في أن يعلن بعضهم من خارج قيادة العمليات الخاصة المشتركة النصر، فمع خليتها التي جمعت أنواعا مختلفة من مصادر المعلومات الاستخبارية، كانت وتيرة عمل قوة المهام الشمالية أبعد مما يمكن تصوره في الأيام الأولى للثورة التي بدأها ماكرستل وفلين، فمن بين ما مجموعه 18 مهمة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة في كل العراق في آب من عام 2004، بلغ متوسط عدد المهمات لفرقة المهام الشمالية وحدها في ربيع عام 2008 أكثر من 60 غارة شهريا.

مع وصول القدرة إلى ذروتها تغيرت الأمور، ففي 13 حزيران حلّ بيل مكرفن محل ستانلي ماكرستل كقائد للعمليات الخاصة المشتركة، وكان مكرفن ضابطا في قوة SEAL مع سمعة تعتبره مفكرا عميقا اعتمدت في جزء منها على الوقت الذي قضاه في مدرسة الدراسات العليا البحرية في مونتيري بولاية كاليفورنيا، حيث صمم وكان أول من تخرج من ـ العمليات الخاصة/ منهج الصراع المحدود ـ وهي الأطروحة التي حولها إلى كتاب بعنوان «العمليات الخاصة ـ دراسات مفصلة في العمليات الخاصة نظريا وممارسة» والتي قدم فيها تعريفه الخاص للعمليات الخاصة والتي حيا فيها براعة مهمات العمل المباشرة التي كانت موطنا لقيادة العمليات الخاصة المشتركة وقوات SEAL، لكنها تجاهلت نهج الحرب غير التقليدية الذي كان من ضمن تخصص القوات الخاصة.

لقد كتب في تعريف العمليات الخاصة أن «العمليات الخاصة تجري من قبل قوة مدربة ومجهزة ومدعومة خصيصا لهدف محدد يكون تدميره أو إزالته أو إنقاذ (في حال وجود رهائن) ضرورة سياسية وعسكرية».

لقد عمل مكرفن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول كمدير للتخطيط الاستراتيجي في مكتب مكافحة الإرهاب على موظفي مجلس الأمن الوطني، كما أن عمله مع الجنرال المتقاعد والقائد السابق لقيادة العمليات الخاصة المشتركة واين داوننغ قد منحه

رؤية لا تقدر بثمن حول كيفية اتخاذ القرارات الأمنية على أعلى المستويات في الحكومة الأمريكية.

مكرفن لم يكن بأيّ حال من الأحوال مجهول القيمة لدى قيادة العمليات الخاصة المشتركة فقد شغل منصب مساعد قائد المنظمة للعمليات خلال فترة نصف عقد، لكن كانت هناك اختلافات طفيفة بين أسلوب قيادته وأسلوب قيادة ماكرستل، ذلك إن بعض المراقبين يرون أن قيادة ماكرستل لمرؤوسيه كانت أصعب قليلا، وقد واصل مكرفن من حيث توقف ماكرستل بالاستمرار في تسطيح وتوسيع المنظمة بشكل أفقي.

بعد تولي مكرفن القيادة وضع نفسه في البداية في قاعدة بلد، لكن أولويات قيادة العمليات الخاصة المشتركة والجيش الأمريكي قد تحولت نحو أفغانستان، أما في العراق فقد حافظت قيادة العمليات الخاصة المشتركة على الضغط، لكن بقوى أقل وقيود سياسية أكثر، وأخذت فرقة المهام تعمل في ذلك الوقت بشكل وثيق مع القوات الخاصة العراقية، وهو ما يشكل اعترافا بأنه حتى الحرب السوداء للعمليات الخاصة كانت الحرب تأخذ نكهة محلية أكثر، لكن أيضا كانت هناك أخطاء، ففي إحدى المهمات التي كانت تستهدف «مجموعة خاصة» شيعية في محافظة بابل وسط العراق، وفي يوم 27 حزيران قتلت قوات العمليات الخاصة حارس أمن بريء وكان هذا الحارس ابن عم لرئيس الوزراء العراقي آنذاك نوري المالكي.

في مطلع تموز وفي محاولة للتخفيف عن المالكي قام الجنرال بترايوس بإحضاره إلى مقر مكرفن في قاعدة بلد حيث قام المشغلون والقادة بإعطائه لمحة عامة عن قدرات قوة المهام وكان عرضا غير عادي لزعيم أجنبي.

في السنوات الثلاث الأخيرة من حرب الولايات المتحدة في العراق كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة مثل جميع القوات العسكرية الأمريكية خاضعة لاتفاقية وضع القوات أو ما يطلق عليها تسمية (SOFA) بين الحكومتين الأمريكية والعراقية وكان هذا الاتفاق يستلزم من قيادة العمليات الخاصة الحصول على موافقة بشأن الأشخاص المستهدفين قبل إطلاق الغارات، وقد كانت عادة الحكومة العراقية إطلاق سراح معظم المشتبه بهم بالإرهاب والذين يتم اعتقالهم من قبل قيادة العمليات الخاصة، مما خلق إحباطا شديدا على مستويات القيادة في العراق، فيما ظلت الأوضاع بما يتعلق باستهداف المليشيات الشيعية وداعميهم من فيلق القدس أكثر ضعفا، وكان مشغلو فيلق القدس بالنسبة للحكومة العراقية ضمن قائمة لأهداف المقيدة مما يعني أن قيادة العمليات الخاصة لا تستطيع اعتقالهم دون موافقة حكومة المالكي وهو أمر نادرا ما يحدث.

حلول بداية عام 2010 تحولت معظم فرقة المهام إلى أفغانستان لكن كان أمام الوحدات التي بقيت نجاح كبير ينتظرها حيث قامت

في 18 نيسان بعملية عسكرية مشتركة بين قيادة العمليات الخاصة والقوات الخاصة العراقية بغارة نجحت فيها بقتل خليفة الزرقاوي المكنّى بأبي أيوب المصري وثلاثة إرهابيين آخرين على منزل آمن في الحدود الواقعة بين محافظتَي صلاح الدين والأنبار.

لقد أشّر انسحاب عام 2011 نهاية عمليات قيادة العمليات الخاصة في العراق وكان ماكرستل وغيره من القادة يجادلون دائما بأن حملة قيادة العمليات الخاصة كانت قد صممت لاعتقال الإرهابيين والمتمردين على أساس إبعادهم وتراجعهم من أجل إتاحة الوقت لحلّ سياسي، وما من شك أن قيادة العمليات الخاصة المشتركة قد حققت نجاحا غير اعتيادي ضد القاعدة في العراق وحلفائها، لكن مع غياب الحلّ السياسي الشامل في العراق وبالنظر إلى حقيقة أن الوجود العسكري الأمريكي في العراق كان من المقرر أن ينتهي، فمن المرجح أن تكون كل تلك المكاسب مؤقتة، وهذا ما حدث فبحلول الأسبوع الأول من كانون الثاني عام 2014 أعاد نسل القاعدة في العراق ممثلا بداعش السيطرة على الفلوجة.

بالنسبة للكثيرين في فرقة المهام أدّت الإحباطات التي رافقت اتفاقية وضع القوات إلى تنامي نظرة حسد باتجاه زملائهم فيما كان يعتبر لفترة طويلة المسرح الثاني في الحرب على الإرهاب، حيث قال ضابط في قوة الرينجر إن «اتفاقية SOFA كانت مثلما يقول أحدهم للجميع: لنحزم امتعتنا أيها الأولاد ودعونا نذهب إلى أفغانستان».

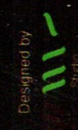
الفهرس

وبالطبع كعادة قيادة وحدة المهام 17 في معالجة عدد قليل من الأهداف لجأت إلى طريقة جديدة للالتفاف على القيود السياسية من خلال القيام بعمليات اغتيال دون ترك أي بصمة للولايات المتحدة على تلك العمليات. الطريقة الجديدة اعتمدت على ما يسمى بجهاز أكس بوكس(X.box) والذي تم تصميمه من قبل قوات الدلتا وفريق المهام Team 6.

الأكس بوكس هي قنبلة تم تصميمها لكي تبدو بشكل وفعل القنابل نفسها التي يتم صنعها من قبل المتمردين العراقيين باستخدام المواد التي توجد عادة في القنابل والعبوات المتفجرة التي يتم تصنيعها محليا. حيث كان لدى فريق الدلتا و Team 6 الفريق المتخصص بالذخائر المتفجرة قد تعلما كيفية إبطال تلك العبوات المحلية.

لقد استطاع الفريقان الحصول على بعض تلك القنابل والعبوات السليمة من ساحات المعارك في العراق وأفغانستان، وتم تفكيك أجزائها. وقبل أن يمضي الكثير من الوقت تعلم الفريقان كيفية إعادة بنائها من جديد من خلال الهندسة العكسية. فيما قال ضابط كبير في وحدات المهمات الخاصة إنهم "على ضوء هذا الاختيار دارت في زوايا قيادة العمليات الخاصة أحاديث تتعلق بالقدرات الكامنة لهذه الطريقة وكيفية استغلالها".

وأضاف الضابط الكبير "لقد استخدم صانعو القنابل في قيادة العمليات الخاصة في البداية مكونات القنابل التي تم العثور عليها في أفغانستان، وهي مكونة من دوائر إلكترونية باكستانية وصينية مرتبطة بذخائر سوفيتية قديمة. وكان القصد من ذلك هو إنشاء متفجرات لا يمكن تمييزها حتى وإن تم إرسال عيّنات منها إلى مقر مكتب التحقيقات الفيدرالي لمكافحة الإرهاب في ولاية فرجينيا حتى لا ينتبه إليها المحققون عند تنفيذ الاغتيالات ويتم إلقاء اللوم على العمليات الإرهابية في حال إجراء التحليلات المختبرية عليها".





دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 ـ07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-7732235-4-4